الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم التاريخ

أطروحة جامعية مقدمة لنيل درجة دكتوراه "علوم" في الأدب الشعبي

بعنـــــــوان

صورة المرأة في رحلة ابن بطوطة

إعداد الطالبة :

منصورية بن عبد الله ثالث

بإشـــراف:

أ.د.شعيب مقنونيف

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د. عبد الحق زريـــوح	أستاذ التعليم العالي	ج تلمســـان	رئيســـــا
أ.د. شعيب مقونيـــف	أستاذ التعليم العالي	ج تلمســـان	مشرفا ومقررا
د.ة .نصيرة بكـــوش	أستاذة محاضـرة "أ"	ج. تلمســان	عضـــــوة
د.ة. عمارة كحلـــي	أستاذة محاضـرة "أ"	ج. مستغانـم	عضـــــوة
د.ة. حليمة شيـــخ	أستاذة محاضـرة "أ"	ج. وهران 01	عضـــــوة
د. عبد الرحمن بغداد	أستاذ محاضـــر "أ"	و.ج.مغنيـــة	عضـــــوا

السنة الجامعية: 1437-1438هـ/ 2016-1017م

شكـــــــر

إنّه لمن الواجب على السّالك دروب الحياة والمعرفة ، أن يذكر بعد النّجاح أصحاب الفضل عليه، ومن الواجب في هذا المقام وهذا المقال، أن أتقدّم بالشّكر والامتنان العظيم للدّكتور المشرف السّيّد: شعيب مقنونيف الّذي كان له الفضل في تعميق معرفتي في أدب الرّحلات وفي مساعدته في اختيار موضوع أطروحتي، وعلى وقوفه إلى جانبي موجّها مرشدا وناصحا، راجية من العليّ القدير أن يجازيه عنّي خير الجزاء وأن يديم عطاءه.

ولا أنسى أن أتقّدم بتشكّراتي لأعضاء لجنة المناقشة الفاضلين الّذين تواضعوا وقبلوا أن يمدّوني بملاحظاتهم النيّرة وانطباعاتهم حول بحثي هذا.

ويمتدّ شكري إلى كلّ من ساندني ولو بالكلمة الطيّبة.

إهـــــــــــداء

إلى اللّذين قال الله في حقّهما:

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾.

(سورة الإسراء: الآية 23) .

إلى الّتي روحي من روحها وأعجز عن ردّ جميلها، إلى الّتي غمرتني بدفء حناها وحسن رعايتها، إلى أحنّ وأطيب قلب في الوجود، إلى الّتي تسعد لأفراحي وتتألّم لأحزاني، إلى من أعيش بسرّ دعائها. إلى وردة العمر: **والدتي الحبيبة**.

إلى من زرعني بذرة وسقاني عناية وانتظرني زهرة، إلى مثلي الأعلى في الحياة الّذي تعلّمت منه الصّبر، حبّ العمل، تحمّل المسؤوليّة والتّفاؤل نحو نجاح مستمرّ: **والدي الغالي**.

إلى من كان ولازال سندا لي في دراستي، والّذي أشكره على طول صبره لأحقّق حلمي، إلى رفيق دربي في دراستي وحياتي كلّها، والّذي شاركني حياتي، وقاسمني حلوها ومرّها: **زوجي إسماعيل**، دون أن أنسى أبنائي وفراقدي المنيرة : **دعاء، غفران ومنصف محمد الأمين** .

إلى جدّتي الّتي أتمنّى لها دوام الصّحّة والعافية وطول العمر.

إلى إخوتي وعروق دمي ونبضات قلبي:

رجاء وزوجها عبد القادر، نبيل وزوجته، فادية وزوجها سفيان .

قال القاضي الفاضل عبد الرّحيم بن علي البيساني :

" إنّي رأيتُ أنّه لا يكتب إنسانٌ كتابا في يومه إلّا قال في غده: لو كان غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستَحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبر، وهو دليل على استيـــــلاء النّقص على جملة البشر " [1].

[1]– محمد بن محمد الحسيني الزبيدي: إتحاف السّادة المتّقين بشرح إحياء علوم الدّين، ج1، مؤسّسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، 1414هـ –1494م، ص3.

مقدمة

الحمد لله الّذي أفاض النّور على قلوب مناهل أهل العرفان، وجعل أشراف هذه الأمّة حملة القرآن، حمدا لمن بيده زمام الأمور يُصرّفها على النّحو الّذي يريده، فهو الفعّال لما يريد، إذا أراد أمرا فإنّما يقول له كن فيكون، والصلاة والسلام على النّبي العربيّ الأميّ صلّى اللّه عليه وسلّم أفصح من نطق بالضّاد، محمّد عبده ورسوله، وعلى آله وإخوانه من الرّسل والأنبياء مصابيح الهدى وأعلام الخير وبعد...

فتعدّ الرّحلة أحد أهمّ طرق التواصل والتعارف بين مختلف الشّعوب والثقافات والأجناس على مرّ العصور، عرفها الإنسان منذ القدم فهي قديمة قدم البشريّة ظهرت بظهور سيّدنا آدم عليه السّلام. وقد اعتبر أدب الرّحلات من أخصب الحقول الّتي نبع فيها العرب قديما، فهو من أهمّ المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، حافل بالأبعاد الاثنوغرافية كونه ينقل لنا معلومات وحقائق من المشاهدة الحيّة، وذلك بوصفه طبائع الأمصار وعاداتهم وتقاليدهم، ناقلا نمط وأسلوب عيشهم من خلال تسجيل الرّحّالة لكلّ ما وقعت عليه عينه، فتلك التّجارب عرّفته وعرّفتنا على ثقافة عصره وطريقة تفكيره، كما كشفت لنا جوانب مختلفة من مظاهر حياته بمختلف أنواعها. وهذا الأخير لم يحصّل ما حصّله إلّا بعد ركوبه الصّعاب ومخالطته لمختلف صنوف العباد، وهذا ما تشهد عليه مؤلّفاته خاصّة الحجازية منها بما أنّ الحجّ كان هدفه ومسعاه الأوّل.

ومن أقدم نماذجه الذّاتية: رحلة ابن بطوطة في كتابه الموسوم بـ:"رحلة ابن بطوطة المسمّاة: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، حيث استطاع أن يأخذنا عبر سطورها إلى أماكن ترحاله، ناقلا آراءه وانطباعاته حول ما شاهده وما سمعه .

تعتبر رحلته صورة شاملة للعالم الإسلاميّ في القرن الثّامن الهجري- الرابع عشر ميلادي-، نظرا لاتّساعها المكاني والزماني و لاشتمالها على شتّى المعارف من تاريخ وجغرافيا، واجتماع وسياسة وفقه. وقد تضمّنت رحلته العديد من الشّخصيات خاصّة

النّسويّة منها، فالمرأة كانت حاضرة غير مغيّبة ولا مهمّشة فيها، كما كانت ملازمة لذاكرته لم ينس جنسيّتها ولا ديانتها ولا اسمها، وكان لا ينتقل من مكان إلى آخر دونها، تتبّع دقائق أمورها وكشف حقائق تتعلّق بحياتها ؛ بعاداتها وتقاليدها بمكانتها ونظرة الغير لها بتقديسها أو احتقارها مستحسنا أمورا منتقدا أخرى محاولا تغييرها، منهنّ من كان على قيد الحياة من جوار وزوجات و سلطانات وزعيمات وأخريات زاهدات وصالحات، ومنهنّ من اكتفى بالتّرحّم عليهنّ واصفا قبورهنّ ذاكرا مآثرهنّ.

من خلال تصويره الدّقيق لها جعلنا نتمثّلها وكأنّها صورة حيّة ناطقة خاصّة وأنّها مثّلت في رحلته أعلى نسبة في الحضور مقارنة بالرّجل، فكانت عنصرا محوريّا قامت عليه رحلته وجزءا لا يتجزّأ منها، لم نجد مكانا قصده إلّا وذكرها فيه ؛ بدءا من الأمّ والبنت والزّوجة إلى الجارية والسّلطانة إذ ظلّت مستقرّة في ذاكرته حتّى بعد مرور زمن بعيد، فتلك الصّور التّي نقلها لنا عنها وعن تلك الحقبة الزّمنيّة جعلتنا نحسّ وكأنّنا نعيش في القرن الثّامن الهجري ونستعيد أحداثه بكلّ تفاصيله

وإنّ سبب اختياري لموضوع صورة المرأة في رحلة ابن بطّوطة "دراسة تحليلية" لاعتبارات كونه يعدّ مقصدا علميّا من جهة وبهدف التّعمّق في دراسة أدب الرّحلة من جهة أخرى. وفي دراستنا هذه حاولنا اتّباع منهجيّة قوامها الوصف والتّحليل والتّصنيف، وذلك بالوقوف على مواطن ذكر المرأة وتبيان مكانتها في مجتمعها مع تحليل بعض الشّخصيات انطلاقا من الواقع الّذي كانت تعيش وتتحرّك فيه كما جسّده ابن بطّوطة في رحلته.

وقد تبادرت إلى أذهاننا مجموعة من التّساؤلات نصوغها على النّحو التالي: ما الدّور الّذي أدّته الرّحلة وما أهدافها؟. وما الدّوافع الّتي جعلت صاحبها يمضي قدما نحو المجهول؟. وهل حقيقة تضمّنت رحلة ابن بطّوطة العجيب والغريب من الأمور؟.

ومن هي تلك المرأة الّتي احتضنتها رحلته؟. كيف صوّرها وكيف واجه القضايا المرتبطة بها ؟. وعلى أيّ أرض وقف في تصويره لها ؟.

وقد سبقت هذه الدّراسة دراسات عديدة إلّا أنّها لم تُعن بالبحث عن صورة المرأة في أدب الرّحلة، وبالتحديد رحلة ابن بطّوطة مقتصرين على وصف الحضارات المختلفة الّتي تعرّف إليها ابن بطّوطة و إظهار العجائبي والغرائبي في رحلته، أو حول التشكيك في مصداقيّتها من عدمه نظرا لمزجها بين عنصر الواقع والخيال من ذلك: "ابن بطّوطة وصناعة أدب الرّحلة: نسيج الواقع والخيال"، مخطوط رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكيّة، بيروت،2003، لشادي حكمت ناصر.

وقد اعتمدت في هذه الأطروحة على جملة من المصادر والمراجع القديمة منها والحديثة فمن المصادر أذكر: "رحلة ابن بطوطة المسمّاة: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لشمس الدين بن عبد الله اللّواتي الطّنجي المعروف بابن بطّوطة تقديم وتحقيق: علي المنتصر الكتاني. وذلك لننقل صور المرأة الّتي تضمّنتها رحلته والوقوف على مواطن ذكرها في مختلف الأمصار.

أمّا المراجع فاستفدت من: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري لناصر عبد الرزاق الموافي، الجغرافية والرحلات عند العرب لنقولا زيادة، الرّحلات المغربية والإسلامية وأعلامها في الأدب العربي القديم والمعاصر لمحمد دواوي، وذلك للتعريف بأدب الرّحلة وتحديد أنواعها وبواعثها. وعلى أعلام النّساء في عالمي العرب والإسلام لعمر رضا كحّالة، موسوعة شهيرات النساء خليل البدوي و المرأة : بحث في سيكولوجية الأعماق بيير داكو، للتعريف ببعض الشّخصيات البارزة ولدراسة حالتها الاجتماعية في مختلف الأمصار من ناحية وحالتها النّفسية من ناحية أخرى، من خلال إبراز دورها في المجتمع كالمرأة المنجزة المتصفة بالكرم المشيّدة للمساجد أو المرأة

المضطهد الرّاضخة للقوانين القهريّة والتعسّفية، لننتقل بعدها إلى الجانب السّياسي من خلال تبيان دورها في تولّي شؤون الدّولة وتفوّقها على الرّجل في ذلك .

وقد أملى عليّ بحثي هذا خطّة اقتضت منّي تقسيمه بعد المقدّمة إلى مدخل وثلاثة فصول وخاتمة.

تطرّقت في المدخل إلى ضبط بعض المصطلحات الّتي اعتمدت عليها في هذه الدّراسة وذلك بتحديد مفهوم الرّحلة مبيّنة أنواعها وبواعثها وفوائدها، كما تعرّفنا فيه على أدب الرّحلات ومدى أهمّيته عند العرب، لنستخلص بعدها القيم الواردة التّي تضمّنتها الرّحلات بصفة عامّة .

وقد تناولت في الفصل الأوّل: ابن بطّوطة وتجواله في الآفاق، حيث تعرّفنا على شخصية هذا الرّحّالة والمؤرّخ الجغرافي المكتشف الّذي كانت ولا زالت لديه مكانة في الذّاكرة الشّعبية العربيّة الإسلاميّة من خلال كتابه الّذي يعتبر بمثابة سيرته الذّاتية، مركّزين فيه على جوانب مميّزة من شخصيّته كرغبته المفرطة بالنّساء، كما تعرّفنا على الظّروف الّتي أحاطت بعمليّة تدوين كتابه .

أمّا الفصل الثّاني فتناولنا فيه مفهوم العجائبي نظرا لاحتواء الرحلة على العجيب والغريب من الأحداث، لنقف فيه على بعض الحكايات بالدّراسة والتّحليل.

وتطرّقت في الفصل الثّالث إلى صورة المرأة في رحلة ابن بطّوطة في مختلف الأمصار من بداية رحلته إلى نهايتها، لنختتمه بإبراز الأبعاد الخفيّة المتعلّقة بها مقتصرين على بعض النّماذج .

وأخيرا ختمت بحثي بحصيلة لأهمّ النّتائج الّتي توصّلت إليها، بالإضافة إلى قائمة الفهارس.

وإنّي لا أدّعي أنّي بلغت الكمال في عملي هذا ولا أزعم عدم حاجة هذا العمل إلى المزيد إذ سيكون فتحا لدراسات أخرى، وحسبي أنّي ركبت مركبا صعبا بذلت فيه الجهد الصّادق للوصول إلى الهدف المنشود، وإن وفّقت بعض التّوفيق فمن الله ومعونته، وإن تكن الأخرى فالكمال لله وحده، وأسأل الله ألّا يحرمني أجر المجتهد المخطئ، ولا يؤاخذني إن كنت قد نسيت أو أخطأت مصداقا لقوله جلّ جلاله: " **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴿٢٨٦﴾**" البقرة(2).

منصورية بن عبد الله ثالث

تلمسان، في 25 ماي2016

المدخـــل

مفـــهوم الرّحـلـــــــة

" أنواعها بواعثها وأهدافها "

أوّلا: مفهوم الرّحلة لغة و اصطلاحا

1- لغـــــة

2- اصطلاحا

ثانيا: أدب الرحلة تعريفه و أهمّيته

1- الرّحلة في الإسلام

2- دعوة الإسلام إلى الرحلة

ثالثا: أنواع الرّحلات العربية من حيث التقسيم

1- الرحلة الدينية

1-1 الإسراء و المعراج

1-2 الرّحلة بغرض قصد البقاع الكريمة

1-3 تدبر آيات الله ونواميسه في الكون

1-4 الرحلة للجهاد في سبيل الله و لنصرة الدّين الإسلامي

2- الرحلة العلمية

2-1 الرّحلة الاستكشافيــة

2-2 الرحلة في طلب العلم

- رحلة سيّدنا موسى مع العبد الصّالح
- الرّحلة في طلب الحديـــــــــث

2-3 الرّحلة بقصد العبرة "قصّة ذي القرنين "

- الرحلة الأولى: " رحلة المغرب "
- الرحلة الثانية: " رحلة المشـــرق "

❖ الرّحلة الثالثة: " رحلة بين السّدين "

3- الرحلة التجاريـة

4- الرحلة السياحية

5- الرحلة الرسميـة

5-1 السّفارة (التّمثيل الدّبلوماســــــــي)

5-2 التوسط في فكّ الخصومات والنّزاعات

5-3 تبليغ الدعوة إلى أقطار العالـــــــم

رابعا: أنواع الرحلات من حيث التدوين و التسجيل

1- رحلات كتبت أثناء الرحلة

2- رحلات كتبت من المذكرات

3- رحلات كتبت من الذاكــرة

خامسا: فوائد الرحلة وأهدافها

سادسا: قيم تضمنتها الرحلــة

1- قيمة تاريخيّة

2- قيمة علميــة

3- قيمة دينيـــة

4- قيمة أدبيـــة

عرف الإنسان الرّحلة و التّرحال منذ أن خلق الله سيّدنا آدم عليه السّلام[1] بعدما أمره بالهبوط إلى الأرض هو وأمّنا حواء، ولم ينزلهما سبحانه وتعالى في نفس المكان بل جعل أبانا آدم في مكان وأمّنا حواء في مكان آخر، وذلك كي يسعيا للبحث عن بعضهما.

<< فالشّعوب لم تخلق في موضع واحد لكنّ الله فرّقها وبثّ بينها المسافات، وغرس في الجميع في الوقت ذاته فطرة السّعي للتّعارف واللّقاء >> [12]. ويظهر ذلك في قوله **جلّ وعلا:** << يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ >> [3]، فبفضل هذا الانتقال استطاع الإنسان أن يكفل عمران الأرض فلولا ذلك الخروج لما كان هناك انتشار إنسانيّ في أنحائها.

وقد كان للرّحلة الدور الكبير في نشر الدين من خلال الفتوحات و التوسعات الإسلامية، وخلال تلك الفترة عرفت نشاطا كبيرا، فهؤلاء الذين جابوا في البلاد هم الذين مهّدوا لهذا التوسّع. فخلال تلك الرحلات لعب الجنود والقادة دور الرحالة فبوصفهم ونقلهم للمشاهد حرّكوا تلك الرغبة المتمثلة في حب الاطلاع والاستكشاف وضرب أصقاع الأرض، وكذا تنشيط التبادل التجاري خاصة بعد التوسع الإسلامي، كما كان لها دور في توسيع

---

[1]– آدم: << كنيته: أبو البشريّة: قال الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي وقال ابن العبّاس رضي الله عنهما: سمّي آدم لأنّه خلق من أديم الأرض وأديم الأرض وجهها، فقد ورد ذكره في مواضع متفرّقة من القرآن الكريم، ففي موضع خلقه الله من تراب، وفي موضع خلقه من طين لازب، وفي موضع من حمأ مسنون، وفي موضع من صلصال وكلّ هذه الألفاظ تصبّ في معنى واحد وهو التّراب الّذي هو أصل الطّين، فأعلمنا الله أنّه خلقه من تراب جعل طينا ثمّ انتقل فصار كالحمأ المسنون ثمّ انتقل فصار صلصالا كالفخّار>>(ينظر: أبو زكريا محي الدّين بن شرف النّووي: تهذيب الأسماء واللّغات، ج1، دار الكتب العلمية، لبنان، د. ط، د. ت، ص96) .

[2]– فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 2002 م، ص22 .

[3]– من سورة الحجرات(49) /الآية: 13.

معارفهم، وبذلك تكون هنا قد اتخذت ملامح الطابع العلمي من خلال سعيهم إلى طلب العلم و التفقه في الدين بمجالسة كبار العلماء والمفكرين والأخذ عنهم .

فهناك من اغترب بدافع الجهاد والدفاع عن الدين، وهناك من اغترب لنشره و الدعوة إليه، بإخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبنصرة وتوجيه معتنقيه، وهناك من رحل للتدبر في ملكوت خالقه و معجزاته في هذا الكون الفسيح. من ذلك رحلة ابن فضلان نحو بلاد البلغار(309هـ/921م) بعد اعتناق ملكها ألمش بن بلطوار الدين الإسلامي، وقد أرسل هذا الأخير إلى الخليفة المقتدر وفدا يرأسه عبد الله بن باشتو الخزري، طالبا منه أن يبعث إليه من يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام، ومن يساعده في بناء مسجد بطراز معماري إسلامي وكذا بناء حصن يحمي به نفسه ورعيته من الأعداء. كانت هذه البعثة الدينية والهندسية برئاسة ابن فضلان [1]، لأنّه كان من أبرز رجال الدين في تلك الفترة. خلالها قام بتسجيل رحلته في رسالة قدمها إلى المقتدر بعد عودته نقل فيها كل الأوضاع السياسية في الدول الإسلامية، وقد أصبحت هذه الرسالة التي كانت تتضمن مادة وصفية تحليلية مرجعا أساسيا لمن جاء بعده [2] .

كما كان للرحلة الدور في حفظ الحديث وجمعه وتدوينه، فكان العلماء والصحابة يتكبدون مشقة السفر وعناءه لسماعه من منبعه الأصلي، فضلا عن معرفة الطرق المتعددة للحديث الواحد وكذا تحصيل علو الإسناد. ومثالنا عن ذلك "جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه بلغه حديث عن صحابي بالشام سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، استعظم أن يفوته شيء من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى بعيرا وشد عليه رحله وسافر مسيرة شهر حتى قدم الشام، فإذا هو عبد الله بن أنيس فقال له : << حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص، فخشيت أن أموت

---

[1]- << هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد- مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي- ، كان مولى الخليفة العباسي المقتدر والقائد محمد بن سلمان الّذي استطاع إلحاق الهزيمة بالدّولة الطّولونية، وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة سنة 292هـ -905 م>> (عبد الرّحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"، دار الفكر، دمشق، ط1، 1984م، ص243) .

[2]- ينظر: أدب الرحلة في التراث العربي..، ص164 .

قبل أن أسمعه >>[1]. ويشير البخاري نقلا عن عبد الفتاح أبو غدّة في كتابه: " صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل" إلى الحديث الّذي رواه في كتابه: الأدب المفرد في باب المعانقة عن طريق عبد الله بن محمد بن عقِيل، أنّه سمع جابر بن عبد الله يقول: << بلغني عن رجل من أصحاب النّبي صلى الله عليه وسلّم حديثا سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فاشتريت بعيرا ثمّ شددت رحلي، فسرت إليه شهرا حتّى قدمت الشّام، فإذا عبد الله بن أُنيس، فقلت للبوّاب: قل له: جابر على الباب، فقال: أبن عبد الله؟. قلت نعم. فخرج عبد الله بن أنيس فاعتنقني، فقلت: حديث بلغني عنك أنّك سمعتَه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: يحشر الله الناس يوم القيامة عراةً غُرْلاً بُهْماً، قلنا ما بُهما؟. قال: ليس معهم شيءُ، فيناديهم بصوت يسمَعُه من بَعُد كما يسمعُه مَنْ قَرُبَ: أنا الملِكُ – أنا الدّيّانُ –، لا ينْبغي لأحدٍ من أهلِ الجنّةِ أنْ يدخل الجنّةَ وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النّار يدخل النّار، وأحد من أهل الجنّة يطلبه بمظلمة– يعني لا يدخل أهلُ الجنّة الجنّة، وأهل النّار النّار إلّا بعد تصفية الحساب– فقلت وكيف؟. وإنّما نأتي الله عراةً بهما؟ قال: بالحسنات والسّيّئات ؛ يعني القِصاص يكون بالحسنات والسيئات >> [2] .

أوّلا: مفهوم الرحلة لغة و اصطلاحا:

1- لغـــــة:

إذا بحثنا في التراث المعجمي القديم ووقفنا على لفظة "الرحلة" نجدها تشتمل على المعاني التالية :

يرى ابن منظور (ت 711هـ) أنّ أصل الكلمة من رحل من مشتقاتها:

- << الرّحْلُ: مركب للبعير..، ورجل مُرحل أي له رواحل كثيرة >>[3] .

---

[1]– إسلام ويب: رحلات العلماء ودورها في حفظ الحديث wwww.google.com

[2]– عبد الفتاح أبو غدّة: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، بيروت، ط1، 1971م–1391هـ، ص ص18– 19.

[3]– أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، مج 11، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، د. ط، د. ت، ص 279 .

ويضيف الفيروز أبادي في معجمه :

- << ارتحله: حطّ عليه الرَّحْلَ فهو مرحول ورحيل وإنّه لحسن الرِّحلة بالكسر، فالرَّحل للإبل والرُّحال العالم به المجيد >>[1] .

وإذا عدنا إلى المعجم الصافي في اللغة العربية فلا نجد اختلافا يذكر كونها تصب في معنى واحد وهو الحركة ومما ورد فيه بالإضافة إلى ما سبق ذكره:

- << الرَّحل: منزل الرّجل ومسكنه وبيته .
- ارتحله: جعل عليه الرَّحل .
- الرّاحلة من الإبل: البعير القويّ على الأسفار والأحمال .
- الرّاحلة عند العرب: كلّ بعير نجيب سواء كان ذكرا أو أنثى .
- الرّحيل: اسم ارتحال القوم للمسير وقيل القويّ على الارتحال والسّير.
- رجل رحّال: عالم بذلك مجيد له .
- الرُّحلة: السّفرة الواحدة و المُرتحل: اسم الموضع الّذي يحلّ فيه >>[2].

<<ورحل عن البلد رحيلا ويتعدّى بالتّضعيف فيقال: رحّلته وترحّلت عن القوم وارتحلت والرّحلة بالكسر والضّمّ لغة اسم من الارتحال. وقال أبو زيد الرّحلة بالكسر اسم من الارتحال، وبالضّمّ الشّيء الّذي يرتحل إليه، يقال قربت رحلتنا بالكسر وأتت رحلتنا بالضّمّ أي القصد الّذي يقصد >>[3].

---

[1]– مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط ، مج 3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د. ط، 1403 هـ–1983 م، ص383 .

[2]– صالح العلي الصالح ، أمينة الشيخ سليمان الأحمد: المعجم الصافي في اللغة العربية، الرياض، د. ط،1401 هـ، ص197 .

[3]– أحمد بن محمّد بن علي المقري الفيومي: من كتاب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرّافعي، ج1 ، المطبعة الميمنية، مصر، د. ط، د.ت، ص108 .

وارتحل إلى رحمة الله: مات [1]، فهذه اللّفظة تؤدّي معنى آخر مرتبط بالعقيدة وهو مصير حتميّ لكلّ الكائنات الحيّة، فلو قلنا مثلا رحل فلان فهذا يعني انتقاله من عالم محسوس إلى عالم غيبي مجرّد مصداقا لقوله سبحانه وتعالى: "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾"[2].

كما تعني << الانتقال من مكان إلى آخر لتحقيق هدف معين ماديا كان هذا الهدف أو معنويا، أما الحركة خلال الرّحلة بقطع المسافات فهي السّفر جمعه أسفار>> [3]، ومنه قوله تعالى: << فقالُوا ربَّنا باعِدْ بَيْن أَسْفَارِنا.. ﴿١٩﴾ >> [4]. مرادفها لفظة سفر الّتي تعني قطع الأسفار منها: مسافر، القوّة على السّفر واتّخاذ أسبابه [5]، أمّا << المِسْفِرُ: كثير الأسفار والقويّ على السّفر >>[6].

والهجرة من بلاد الشرك أو الهجرة من بلد إلى آخر بحثا عن واقع أفضل، هو أيضا نوع من الانتقال، فاللّفظتان تختلفان في الكتابة إلا أنّ المعنى واحد.

2- اصطلاحـــا:

لازمت هذه الكلمة الإنسان مذ خلقنا الله سبحانه وتعالى بعد أن أمر آدم عليه السلام بأن يهبط إلى الأرض، << وفي مجمل الرّوايات هبط عليه السلام إلى الأرض ونزل في الهند "جزيرة سرنديب" على جبل يقال له بُوذ وحواء نزلت بجدة، وكانت هذه الرحلة أول رحلة

---

[1]- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مج 1، نشر توزيع وطباعة عالم الكتب، ط1، 1429 م- 2008 م، ص871.

[2]- من سورة طه (20) /الآية: 5.

[3]- عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام " أنواعها وآدابها "، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، 1416 هـ- 1996م، ص 15 .

[4]- من سورة سبأ (34) /الآية: 19.

[5]- ينظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، مج 4، دار صادر، بيروت، ط1 ،1990م، ص ص 368- 369 .

[6]- مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مج 2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د. ط، د. ت، ص49 .

عرفها الإنسان. يقول ابن بطوطة في رحلته أنّ مراده منذ وصل هذه الجزيرة زيارة القدم الكريمة، قدم آدم عليه السلام >> [1].

ونجد الإمام الغزالي يعرف السّفر والرحلة بأنّهما: نوع حركة ومخالطة، فيه تعب ومشقّة وأخطار، وهو وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه[2]. فهي << تعبر عن رغبة في التغيير الداخلي، تنشأ موازية مع الحاجة إلى تجارب ذاتية أكثر من تعبيرها في الواقع عن تغيير مكاني >>[3]. فالرحّالة في هذه الحالة تكون لديه رغبة في التّغيير نتيجة الحالة النفسية التي يعيشها، والخروج هنا يكون بحثا عن الأفضل، تحمل وراءها غاية تقع في زمان ومكان محدّدين، ثريّة بمختلف مظاهر الحياة تجتمع فيها المتعة والشّقاء.

فكما هو معروف حياة العربيّ كانت قاسية قائمة على الرّحلة و التّرحال، وتلك الظروف التي كان يعيشها جعلته يتنقل من مكان إلى آخر، إلى أن أصبحت جبلة وظاهرة طبيعية في حياته اليومية، صارع الطبيعة وتحدّاها لأجل البقاء فعيشته كانت مضطربة لا قرار ولا هدوء فيها نتيجة عدم استقراره وضربه في أطراف الأرض حاملا على كتفه عصا التّرحال، حيث توفّرت فيه القوّة والقدرة على تحمّل المشاقّ والصّعاب الجسام، وكذا القدرة على مواجهة المجهول المليء بالمخاطر والأهوال من بيداء مقفرة وحيوانات ضارية. أمّا الطبيعة فكانت بالنسبة له المموّن الرّئيسي في تلك الفترة، روّض بعض الحيوانات واستعملها كوسيلة من وسائل السّفر عوض سيره على الأقدام، وبذلك سهّل على نفسه عملية الانتقال وكفلت له هذه الأخيرة التحرّك الأسرع، وبفضل هذه المجهودات تحوّل من مستهلك إلى منتج وبذلك يكون قد حقق هدفه ولبّى حاجته، إلّا أنّه لم يتوقف يوما عن الرحلة قال جلّ وعلا:

---

[1]– شوقي أبو خليل: أطلس القرآن " أماكن، أقوام، أعلام"، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2000م، ص12 .

[2]– ينظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 2، دار الكتب العربية، د. ط، د. ت، ص217 .

[3]– نادية محمد عبد الله: الرحلة بين الواقع والخيال عند أندريه جيد، عالم الفكر، ع4، وزارة الإعلام، الكويت، مارس 1983م، ص97 .

<< هُو الَّذي جَعَل لَكُم الأرْضَ ذَلُولاً فامْشُوا فِي مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِن رِزْقِه وإلَيْه النُّشُور﴿١٥﴾ >>[1].

و مثالنا عن ذلك ما حدث في عهد سيّدنا يوسف عليه السّلام حيث أصبحت مصر في تلك السّنوات المجدبة – سنوات القحط– محطّ الرحالة الوافدين والمحتاجين يطلبون الزّاد والغذاء، فلولا سعيهم وبحثهم عن رزقهم لهلكوا من شدّة الجوع، ليتحول الرحالة من مجرد باحث عن الرزق إلى تاجر ومكتشف وحاج ومعتمر وعميل وطالب للعلم. وبذلك أكسبت الرّحلة الإنسان تجارب مكنته من رؤية العجيب والغريب في هذه الدنيا كالرّحّالة ابن بطوطة، فبفضل انتقاله استطاع أن يكتسب تجارب وكذا خبرة جعلته يخوض هذا المضمار رافضا السكون في بلده ليرحل مرة ثانية وثالثة، وسبب عودته للرّحلة من جديد تلك المتعة واللّذة والفوائد التي لمسها فيها. إذ اعتبرت الرحلة بذلك من أكبر وأهم المدارس التي تثقف الإنسان وتزوده بمعارف جديدة لربما يصادفها أو يكتشفها لأول مرّة، يقول الشيخ حسين العطار معلّقا على رحلة رفاعة الطهطاوي إلى باريس:<< السفر مرآة الأعاجيب وقسطاس التجارب>> [2].

كما نجد عبد الله المقدسي[3] صاحب كتاب التقاسيم في معرفة الأقاليم يرسم ويوضّح لنا الطريقة التي انتهجها في جمعه للمعلومات، مبينا من خلالها ضرورة النزول إلى الميدان لتقصي الأخبار وجمع المادة، وذلك بمخالطة العباد من علماء وفقهاء ورجال دين، فهو لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد معاناة وجهد وشقاء بحثا عن المعلومة من مصدرها الأصلي بعد تحقيق وفحص وتمحيص إذ نجده يقول : <<وتمّ لي جمعه إلا بعد جولاني في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقرّاء وكتبة الحديث ومخالطتي الزهاد والمتصوفين،

---

[1]– من سورة الملك (67) /الآية: 15.

[2]– حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة رقم: 138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م، ص15 .

[3]– << هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، المعروف بالبنّاء وبالبشاري والشّامي وبالمقدسي أو المقدّسي ، ولد عام 335هـ /946م –947م، في بيت المقدس>> (أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"..، ص255) .

وحضوري مجالس القصاص والذاكرين مع لزوم التجارة في كل بلد. ولكل أحد التفطن إلى هذه الأسباب بفهم قويّ حتى عرفتها..، ودوراني على التخوم حتّى مررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتّى عرفتها، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبري في الكور حتى فصلتها، وبحثي عن الأخرجة حتى أحصيتها >>[1].

وخلال تلك الرّحلات تأثّر الإنسان بالطّبيعة وبدأ يصف ما تقع عليه عينه من صحار وجبال ووديان، وأصبحت الرّحلة بذلك ظاهرة سلوكية بالنّسبة له، وقد انعكس ذلك على الأدب بصفة عامّة والشّعر بصفة خاصّة فشعرهم ونثرهم يشهدان على ذلك، إذ اعتبر وصف الرحلة من العناصر الأساسية في القصيدة الجاهلية، من خلالها عبر عن حياته وعن صدق شعوره بعد وقوفه على الأطلال وبكائه على الدّمن .

ثانيا: أدب الرحلة تعريفه و أهمّيته:

لم يقتصر الإنسان رحلاته على الأرض بل تعدّاها إلى القمر، حيث أصبحت هذه الرّحلات سجلّا لمختلف مظاهر الحياة، كما كان لها بالغ الأثر في تطوّر العلوم والمعارف الإسلاميّة خاصّة في علم الحديث، ومن أقدم نماذجه الذّاتية: "رحلة ابن بطوطة" الّتي نجدها تحمل مشاهد وذكريات وعادات وتقاليد المجتمعات وسلوكياتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية بمختلف طبقاتها وفئاتها في كتابه الموسوم بـ: "رحلة ابن بطوطة المسمّاة: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، حيث استطاع أن ينقلنا عبر سطوره إلى أماكن ترحاله وجعلنا نعيش أحداث عصره بأدقّ تفاصيله.

فهذه الرحلة تعتبر صورة شاملة دقيقة للعالم الإسلامي خلال القرن الثّامن الهجري، لها اتساع مكاني وزماني ما جعلها تحمل تلك الدلالات والإيحاءات والمعاني، وهذا لا يمنع من عدم خلوّها من الغرائبيّة الرّوائية أي وجود العجائبي وذلك لامتزاج الخيال بالواقعي فيها. وقبل أن نتطرّق إلى الخيال أو العجائبي في أدب الرّحلات لا بدّ أن نقف أوّلا على مفهوم أدب الرّحلة، إذ نستطيع أن نقول أنّ أدب الرحلة مزيج أو خليط من الجغرافيا

[1]– عبد المنعم الفلاني: مآثر العرب والإسلام في القرون الوسطى1359–1940م، مطبعة أم الربيين الموصل، د. ط، د. ت، ص 146 .

و الاثنوغرافية*‘ كونه الأقرب إلى الجغرافيا في وصفها للطّرق وتحديد مواقع البلدان وعادات المجتمعات، فالرحالة ينقل لنا فيه طبائع الناس وعاداتهم من المشاهدة الحية من ناحية، ويصف طرق و مناخ وتضاريس تلك المناطق التي زارها من ناحية أخرى ، كما يقوم بتصوير الحياة بمختلف مجالاتها فيرسم لنا صورة عن الأمصار ناقلا أهمّ الوقائع الأحداث فيها.

فهو ذلك النّثر الأدبي الّذي اتّخذ من الرّحلة موضوعا له، تكتب في شكل أدبي نثري مميز وفي لغة خاصة من خلال تصوّر بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة [1]، ارتبط بحياة التّنقّل والتّرحال عرفه العرب منذ القدم، نقل فيه الرّحالة ما شاهده بدقّة مصوّرا المواقف والمواقع وكلّ ما يستحقّ التّسجيل بعبارات واضحة ولا يقوى على ذلك إلّا عالم بأوضاع البلاد الجغرافية من خلال تحديده للمواقع ووصفه للمسالك.

و<< في كثير من الأحيان، جعلوا كتبهم تأخذ طابعا فنيا أدبيا تاريخيا جغرافيا حتى غدت أشبه بالموسوعة الثقافية >> [2]. لتطرّق أصحابها لمختلف مجالات الحياة السّياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتّى العقائدية، فأصبح يشكّل << مجموعة الآثار الأدبية الّتي تتناول انطباعات المؤلّف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرّض فيها لوصف ما يراه من

---

* الاثنوغرافيا Ethnographie علم اجتماعي يصف أحوال الشعوب، ويدرس أنماط حياتهم ومختلف المظاهر المادية لنشاطهم في مؤسّساتهم وتقاليدهم وعاداتهم كالمأكل والمشرب والملبس وغيرها.

والاثنولوجيا Ethnologie علم اجتماعي يفسّر الظواهر التي يصفها علم الاثنوغرافيا، ويدرسها دراسة نظرية تسمح بتصنيفها وتعليلها (ينظر: جميل صليبا: المعجم الفلسفي " بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاّتينية "، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982م، ص ص32-37) .

[1]- ينظر: سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، الفجالة، د. ط، د.ت، ص5.

[2]- محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1419هـ - 1999م، ص55.

عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية الّتي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كلّ هذا في آن واحد >> [1] .

فهذا الخروج يكون ذا دافع وجدانيّ، وقد يكون نابعا من رغبة في التّغيير وحبّا لاكتشاف المجهول وإشباع حاجة في نفس الإنسان، خلالها يرصد المشاهد المختلفة بعد تأمّل دقيق، لينقل لنا بعد ذلك كلّ ما شاهده معبّرا عن عواطفه ومشاعره وأحاسيسه عند امتثاله أمام تلك المناظر الّتي مرّ بها، واصفا البلدان الّتي زارها ناقلا عوائدهم أخلاقهم وأفكارهم مبديا رأيه في تلك المسائل الّتي صادفها أثناء رحلته. فيقف أمامها وقفة المندهش المنبهر والمستغرب المتعجّب، فبالنّسبة إليه تعتبر اكتشافا جديدا نتيجة اصطدامه بنمط حياة جديد يختلف عن واقعه الّذي تعوّد عليه. في حين يراها المنتمي للمكان عادية ذلك أنّ الألفة قد تحجب مظاهر الغربة كما تحجب مظاهر الجمال، <<وهذا ما يفسّر عدم اهتمام الرّحّالين بما يحدث في موطنهم الأصلي، كالعبدري[1] الّذي لم يسجّل عن المغرب الأقصى إلّا القليل بالقياس إلى ما سجّله عن البلدان الأخرى الواقعة على خطّ سيره، الممتدّ من جنوب المغرب الأقصى إلى الحجاز فالشّام فالعودة إلى بلاده برّا >> [2].

<< تستمدّ منه الجغرافية واقعيّتها، وبغير الرّحلة لا تعبّر الجغرافية عن الحقيقة، بيد أنّه ينبغي أن نفرّق بين الأدب الجغرافي الّذي تركه لنا الجغرافيون المحترفون، وتلك المعارف الجغرافية التي خلّفها لنا الرّحالون. فبينما يقوم الجغرافي المحترف برسم صورة كاملة عن المنطقة موضع الدّراسة بعد أن يسأل و يستقصي ويحقّق يكتفي الرحالة بنقل ما يشاهده، فتأتي الصورة الّتي يرسمها جزئية لكنّها ثمينة وموحية وكثيرا ما يزيد من ثرائها إضافة شيء

---

[1]– مجدي وهبه، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م ، ص17.

[1] – << هو محمد بن محمد علي العبدري – القرن السّابع الهجري– الثالث عشر الميلادي، وهو ينحدر من صلب عبد الدار بن قصيّ القرشي ..، بدأ بتدوين رحلته وهو في تلمسان >> (أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"..، ص496) .

[2] – إسماعيل زردومي: فن الرّحلة في الأدب المغربي القديم، مخطوط رسالة دكتوراه، جامعة الحاج الأخضر، باتنة، 1424هـ–1425هـ/2004 م–2005 م، ص 15.

من التاريخ أو من السياسة أومن عادات الشعوب، تعرض في أسلوب قصصي بديع، وهذا ما اتّصفت به مشاهد رحلات هذا العالم الأديب>>[1]. لذلك اعتبرناه من أهمّ المصادر الحضارية والعلمية والاجتماعية والثّقافية، فهو بذلك يحمل قيما كونه يعدّ من أكثر المدارس تثقيفا للإنسان لنقله مختلف العلوم، ونقل تلك المعلومات كان لا يتمّ إلّا بعد معاينة تلك المناطق ومعاشرة الرّحّالة لسكّانها.

انطلاقا من تلك الرّحلات << نشأت لدى البدو عموما ثقافة فلكية طيبة انبثقت من طبيعة حياتهم الدائمة الترحال في الليل والنهار وفي الصيف والشتاء..، وقد قيل أنّ براعة العرب في علم الفلك ترجع قبل كلّ شيء إلى صلاحية بيئتهم الطبيعية لتطور هذا العلم..، إذ كانوا يهتدون بالقمر وببقية النجوم في مسارهم اللّيلي >> [2]. وبذلك كان للعربيّ تصوّر وحسّ جغرافيّ صادق، فالحياة الّتي كان يعيشها ولّدت فيه القدرة على تحديد مواقع الأشياء في بيئته، وكانت له القدرة على تحديد مواضع الخطر ومعرفة موارد الماء ومنابت العشب، كذا معرفة بالأنواء* والكواكب والنّجوم، وهذه الأخيرة كانت تساعده على الاهتداء أثناء انتقاله من مكان إلى آخر، لتتحوّل هذه الرّحلات من مجرّد بحث عن الرّزق وتحسين للأحوال إلى متعة التّجوال والبحث عن المزيد للتّعرّف على الآفاق البعيدة تلبية لنزوعه الإنسانيّ الأصيل . كما كان لكتب الرحلات الفضل في اغتناء المعرفة العربية بالجغرافيا الإقليمية والوصفية إلى حد كبير[3]، حيث<< أدّت مجموعات كتب الرحلات وغيرها من المعلومات الجغرافية إلى ظهور

---

[1]– عبد الفتاح محمد وهيبه: جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، 1995م، ص9.

[2]– شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1986م، بيروت، ص6.

* الأنواء هي منازل القمر الّتي ربط بها العرب حياتهم من كافّة نواحيها، وبالأنواء عرفوا السّحب الممطرة من غير الممطرة و الأمطار الكثيرة من الخفيفة، والنّجوم والبرق الخُلَّب – الخادع الذي لا يتبعه المطر– من غيره والرياح المبشّرة من العميقة، وأوقات زراعة النّباتات (ينظر: أبو علي المرزوقي الأصفهاني : الأزمنة والأمكنة، ج1 ، دائرة المعارف، الهند ط1، 1332هـ، ص ص 178–181) .

[3]– ينظر: جمال الفندي: الجغرافيا عند المسلمين، ترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1982م، ص156.

كتب مختلفة في المسالك والممالك، وأقدم الكتب التي تسمى بهذا الاسم ما ألفه أبو العباس جعفر بن أحمد المرْوزي[1] وابن خرداذبه[2] >>[3].

ضمّ هذا الأدب معارف وعلوما مختلفة، فمن التاريخ نقل لنا حقبة من الحقب الّتي عاشها الإنسان فوصف المماليك والحالة السّياسية في تلك الفترة وطريقة تسيير الحكم فيها، وجغرافيّا وصف المسالك كما نعرف الحاجة كانت لها أشدّ، كما وصف الأقاليم ورسم الحدود وحدّد المناخ في تلك الدّول وما فيها من سهول وجبال ووديان، كما اهتمّ بالجانب الاقتصادي والدّيني والاجتماعي، ووضع كلّ ما نقله بين أيدي الجغرافيين والمؤرّخين وعلماء الاجتماع والاقتصاديين ودارسي الأدب، وبذلك كان خادما لكّل المجالات فقد كانوا أهل علم وثقافة وعزم وثبات، وكلّ ذلك لم يتحقق إلّا بالتّضحية وركوب الصّعاب.

حيث نجد أبو بكر المقدسي يشير إلى ذلك في كتابه: " أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم" مفاده أنّه كان يعتمد في سفره على المعاينة، فذكر لنا ما رآه و حكا لنا ما سمعه، ولم ينقل لنا تلك المعلومات إلا عند بلوغه الأربعين، وبعد أن وطئت قدماه جميع الأقاليم وبعد أن خدم أهل العلم والدّين وملازمته التّجارة في كلّ بلد، ومعاشرته كلّ أحد [4].<< قال ابن المديني قيل للشعبي: من أين لك هذا العلم كلّهُ ؟. قال: بنفي الاعتماد، والسّير في البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبُكور كبكور الغُراب >>[5]. وعن أبي عبد الله الحافظ بن منده أنّ عدد شيوخه الّذين سمع وأخذ عنهم: ألف وسبعمائة شيخ، ولمّا رجع من رحلته الطويلة كانت كتبه عدّة أحمال حتّى قيل أنّها كانت أربعين حملا، وقيل أنّه لم يسمع أحد من هذه الأمّة ما سمع هذا المتجوّل ولا جمع ما جمع وكان ختام الرّحّالين وفرد المكثرين مع الحفظ والمعرفة

---

[1]– << هو جعفر بن أحمد، توفي سنة 274هـ – 887 م>> (أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"..، ص702) .

[2]– << هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المشهور بابن خرداذبه، ينتسب إلى أسرة فارسية اعتنقت الإسلام..، توفي حوالي 272هـ – 885 م>> (نفسه..، ص106) .

[3]– جمال الفندي: الجغرافيا عند المسلمين..، ص28.

[4]– ينظر: محمد بن أحمد أبو بكر المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، 1408هـ–1987م، ص9.

[5]– صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم و التّحصيل..، ص23.

وكثرة التّصانيف [1]. وهذا يعكس طول صبرهم، كما يعكس لنا ما كان يلقاه الرّحّالة من متاعب و مخاطر ومفارقة للأحبّة والأوطان في سبيل التحصيل العلمي واكتساب معارف جديدة.

تنوّعت الرّحلة بتنوّع الأهداف والحاجات و المقاصد، وتعدّدت بتعدّد الأسباب، ومن أهمّ الدوافع التي جعلتهم يقدمون على الخروج تلك الرغبة الجامحة في زيارة البقاع المقدّسة. فالعامل الديني أدّى دورا كبيرا في تشجيع هذا النّمط من الكتابة الجغرافية، فتهيّأت لهم بذلك فرصة زيارة بلدان عديدة من ديار الإسلام فدوّنوا عنها مشاهداتهم. وقد ركّز هؤلاء الرّحّالة عموما على ذكر المزارات والمساجد، كما اهتمّوا بلقاء علماء الدين والزهاد والمتصوفين، وقد وردت في كتاباتهم المعلومات البشرية والاقتصادية وكذلك المعالم الطوبوغرافية للمدن والبلدان التي زاروها بصفة عرضية [2].

فكانت بذلك هذه الرّحلات نورا يضيء درب من يأتى بعدهم ودليلا لهم. فمنها ماهو سياحي ترفيهيّ ومنها ماهو تعليميّ ومنها ماهو اقتصاديّ، وهذه الأنواع عرفت منذ فجر التّاريخ وعلى سبيل الذّكر لا الحصر نذكر أشهر رحلة عرفها التّاريخ: "رحلة ابن بطوطة المسمّاة: تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وصف فيه الرّحالة مختلف البلدان الّتي قصدها، مضمّنا إيّاها الكثير من الأحداث الّتي شارك فيها، مستحسنا بعض الأمور منتقدا أخرى محاولا تغييرها ،<< حيث امتزجت المرئيات المحسوسة بالانطباعات الشّخصية الوجدانية، والوصف الدّقيق لليوميات مع مشاق الطّريق وأحوال السّفر، وهي الّتي تمثّل أدب الرّحلات لدى العرب أصدق تمثيل وتجسّد الكثير من خصائص هذا الأدب >>[3].

كما نجد البعض منها يعتمد ويرتكز على الوصف الجغرافي العلمي وهدفه من ذلك توصيل المعلومات بطريقة مباشرة لذلك نجده لا يراعي الجانب الجمالي والأدبي فيها، من

---

[1]– ينظر: الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذّهبي: تذكرة الحفاظ، ج 4، مطبعة دائرة المعارف النّظامية بمحروسة حيدر آباد الدكن، الهند، ط3 ، 1377 هـ–1958م، ص ص1031–1032.

[2]– ينظر: الجغرافية عند العرب..، ص14 .

[3]– محمد دواوي: الرّحلات المغربية والإسلامية وأعلامها في الأدب العربي القديم والمعاصر(دراسة نصوص)، مكتبة الملك فهد، مطابع الفرزدق، الرياض، د. ط، 1995 م، ص ص 19– 20 .

أشهر هذه الكتب: "**المسالك والممالك**" لابن الحوقل[1]، "**البلدان**" و" **مروج الذّهـــــــب**" لليعقوبي[2]، "**أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم**" لياقوت الحموي[3]، و"**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**" للإدريسي[4] وغيرها.

وقد اعتبرت هذه الرّحلات مرجعا من مراجع البحث الأساسية، كان لأصحابها غايات يسعون لتحقيقها بشتّى الوسائل، متكبّدين عناء السّفر مزوّدين بقوّة جسديّة ونفسية، تمكّنهم من تحدّي كلّ الصّعاب والعقبات والمهالك، مخترقين تلك الأقاليم وفق خطّة معيّنة، ليعودوا محمّلين بمختلف المعارف والعلوم والثقافات المختلفة التي أثروا بها كتب الرحلات بصفة عامة والجغرافيا بصفة خاصة.

1- الرّحلة في الإسلام:

إنّ الإنسان في حياته دائم الترحال وإلى يومنا هذا لم يتوقّف عن الارتحال، إلّا أنّه لكلّ رحلة من هذه الرّحلات بداية ونهاية. فرحلته تبدأ وهو في بطن أمّه لينتقل إلى مرحلة ما بعد

---

[1]-<< هو أبو القاسم محمد بن علي الموصلي المشهور بابن الحوقل، ولد ونشأ ببغداد – القرن الرّابع الهجري/العاشر ميلادي-..، ويذكر كراتشوفسكي أنّ أصله من نصيبين بالجزيرة ، كان مولعا بقراءة كتب تقويم البلدان ..، استهواه منذ حداثة سنّه حبّ التعرّف على المجهول مثلما فتن بأحاديث الرّحالة والسُّفّار>> (أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"..، ص210) .

[2]-<< هو أبو العبّاس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي اليعقوبي ..، على الرّغم من أنّ بغداد كانت مسقط رأسه، إلّا أنّه ارتحل في سنّ مبكرة، عاش طويلا بأرمينيا وخراسان كما زار الهند وفلسطين، كان المعتصم يوجهه في أيّام المأمون إلى سمرقند كلّ سنة في شراء الرّقيق الأتراك..، توفي عام 284هـ – 897 م>> (المرجع السابق..، ص173) .

[3]-<< هو الشّيخ الإمام شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، ولد سنة 575هـ – 1179م/627هـ –1229م..، يقال أنّه ولد في بلاد الرّوم (آسيا الصّغرى)، أسر وهو صغير وبيع لتاجر حموي المولد، استوطن ببغداد فنسب ياقوت إليه..، عاش كرقيق حتّى سنّ العشرين >> (نفسه..، ص 447).

[4]-<< هو أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي بن عبد الله الشّهير بالإدريسي ولد عام 493هـ – 1100م/560هـ –1166 م، في مدينة سبتة ..، بدأ أسفاره في سنّ مبكرة، استطاع أن يزور مناطق قلّ من عرفها في ذلك العصر>> (نفسه..، ص 388) .

الولادة ومن هنا تبدأ رحلته الحقيقية والعمليّة، إلى أن يفارق الحياة ليواري التراب، وتدعى تلك المرحلة التي يقضيها في القبر إلى يوم البعث بالبرزخ.

<< والبرزخ في كلام العرب الحاجز بين الشيئين أمّا في الشّرع: الدّار الّتي تعقب الموت إلى يوم البعث >> [1].

وورد في المعجم الصّافي في اللّغة العربية: << البرزخ ما بين كلّ شيئين، والبرزخ ما بين الدّنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث فمن مات فقد دخل البرزخ >> [2] مصداقا لقوله **عزّ وجلّ**: << حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ >> [3]. فإذا جاء الموت المشركين والضّالين السّبيل طلبوا من الله أن يردّهم إلى الدّنيا ليعملوا صالحا ويكفّروا عن سيّئاتهم، لكن حينها يكون قد فات الأوان لأنّ الله وضع من أمامهم حاجزا يحول بينهم وبين الرّجوع إلى الدّنيا إلى أن يحين وقت الحساب. و هكذا يكون الإنسان قد قام بدورة كاملة، فمن الأرض خلقه وإلى الأرض يعيده بعد مماته ليخرجه مرّة أخرى حيا لينقله إلى دار البقاء، وبذلك يعتبر صعوده إلى السّماء آخر رحلة له ليلقى عقابه إذا كان من المقصّرين-جهنّم- أو ينال جزاءه إذا كان من المحسنين – الجنّة-، وتلك هي رحلة الإنسان الّتي سطّرها له الخالق **جلّ وعلا** مصداقا لقوله **تعالى**: << مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ >> [4].

---

[1]- أبو خالد ناصر بن سعيد بن سيف السّيف: الرّحلة إلى الدّار الآخرة، دار بن حزيمة ، د. ط ، 1429هـ، ص16.

[2]- المعجم الصافي في اللغة العربية..، ص36.

[3]- من سورة المؤمنين(23) /الآيتان:99-100.

[4]- من سورة طه(20)/ الآية:55.

2- دعوة الإسلام إلى الرحلة:

ازداد شغف ورغبة الإنسان إلى الرّحلة بعد ظهور الإسلام وانتشاره، وهذا الأخير لم يدع وسيلة من الوسائل الّتي تفيد الإنسان إلاّ وحثّه على فعلها، ومن ذلك الرّحلة سواء أكانت لطلب للعلم أو الهجرة بالدّين من أرض الشّرك إلى أرض الإسلام أو الحجّ أو التّجارة.

وفي بداية الحديث عن الرّحلة، لا بدّ من التّطرق إلى أولى الرّحلات الثّابتة لدينا و المستقاة من أوثق وأصدق مصادرنا الإسلامية وهو القرآن الكريم، الّذي حفل بالعديد من الأمثلة لكلّ نوع منها على الرّغم من عدم ورود هذه اللّفظة إلا مرّة واحدة فقط، وذلك في سورة قريش[1]. قال سبحانه وتعالى: << لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ >> [2]، ويُقصد بإيلافهم: << إلْفُهُم الخروج إلى الشّام في تجارتهم >> [3].

وقد أُفردت هذه السّورة بكاملها للحديث عن الرّحلة، وهي تعرف أيضا برحلة قريش التّجارية، فكما هو معلوم أنّ أهل مكّة المكرّمة اتّجهت أنظارهم إلى التّجارة بحكم موقع مكّة (بواد غير ذي زرع) كما قال **تعالى** على لسان خليله إبراهيم عليه السّلام: << رَّبَّنَا إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ >>[4].
كانوا يرحلون رحلتين في السّنة، رحلة في الشّتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام، وهما رحلتان تجاريتان تشتري فيهما وتبيع، إلى أن أصبحت مكّة في ذلك العهد مركزا ماليّا خطيرا في الحجاز وسوقا لتبادل السّلع، كانت تصدّر الفائض الّذي كانت تستورده من

---

[1]- ينظر: عواطف محمد يوسف نواب: الرّحلات المغربية والأندلسية: مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية ، د. ط، 1996م، ص ص 29-30.

[2]- من سورة قريش(106) /الآيتان:1-2.

[3]- أبو محمد عبد الملك بن هشام: سيرة النّبي صلّى الله عليه وسلّم، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ج1، مطبعة حجازي، القاهرة، د. ط،1937م، ص57 .

[4]- من سورة إبراهيم(14) /الآية 37.

الشّام إلى اليمن وكذا إلى شبه الجزيرة العربية الجنوبية والسّواحل الإفريقية المقابلة. وكانت القافلة الواحدة تضمّ أكثر من ألف بعير، يشارك فيها كل من شاء ممّن له المال من أهل مكة لأجل الرّبح والكسب[1]. << وكانت قوافل قريش آمنة مطمئنّة لا يتعرّض لهم أحد بسوء، لأنّهم جيران بيت الله وسكّان حرمه >> [2]. << فكانوا يرجعون آمنين في أسفارهم لعظمتهم عند النّاس، فمن عرفهم احترمهم، ومن سافر معهم أمن بهم >> [3].

[1]- ينظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 7، ساعدت على طبعه جامعة بغداد، ط2، 1993م، ص ص 290- 291 .

[2]- أطلس القرآن، أماكن، أقوام، أعلام..، ص157.

[3]- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدّمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السّلامة، ج8، دار طيبة للنّشر والتوزيع، ط1، 1418 هـ-1997م، ص 491 .

[1]

[1]– أطلس القرآن " أماكن ، أقوام، أعلام"..، ص158.

ثالثا: أنواع الرّحلات العربية من حيث التقسيم:

نجد محمد الفاسي في مقدمة تحقيقه لكتاب الإكسير في فكاك الأسير نقلا عن ناصر الموافي في كتابه الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري يقسم الرحلة إلى خمسة عشر نوعا هي :

الرحلات الحجازية، الرسمية، الأثرية، الزيارية، العلمية، السياحية، الدراسية، الاستكتشافية، السياسية، المقامية، البلدانية، الخيالية، الفهرسية، العامة والسفارية [1].

لوعدنا إلى هذا التصنيف لوجدنا بعض الرحلات لا تختلف عن الأخرى، كالرحلات كالرسمية والسياسية والسفارية، ولوعدنا إلى الرحلات الدراسية والاستكشافية و الفهرسية والعلمية لوجدنا أنّ الهدف المشترك وهو اكتساب المعرفة، أمّا في كتاب الرحلة عين الجغرافية المبصرة لصلاح الدين الشامي نجده يقسم الرحلة إلى ستة أنواع لخّصناها في الجدول التالي على الشكل الآتي:

رحلات كانت قبل الإســـــــلام	رحلات ظهرت بمجـــــيء الإسلام
رحلة الحج: هذه الرحلة تختلف عن طبيعة رحلة الحج الإسلامية	رحلة الحج
رحلة الحرب	رحلة طلب العلم
رحلة السفارة	رحلة التجوال والطواف

كما نجد عبد الحكم الصعيدي في كتابه الرحلة في الإسلام يقسم هذا النّوع من الرّحلات إلى أربعة أنواع ليتفرع من هذه الأنواع أنواعا أخرى، حاولنا اختصارها في المخطط التالي :

[1]– ينظر: ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، مصر، ط 1، 1415هـ –1995م، ص32.

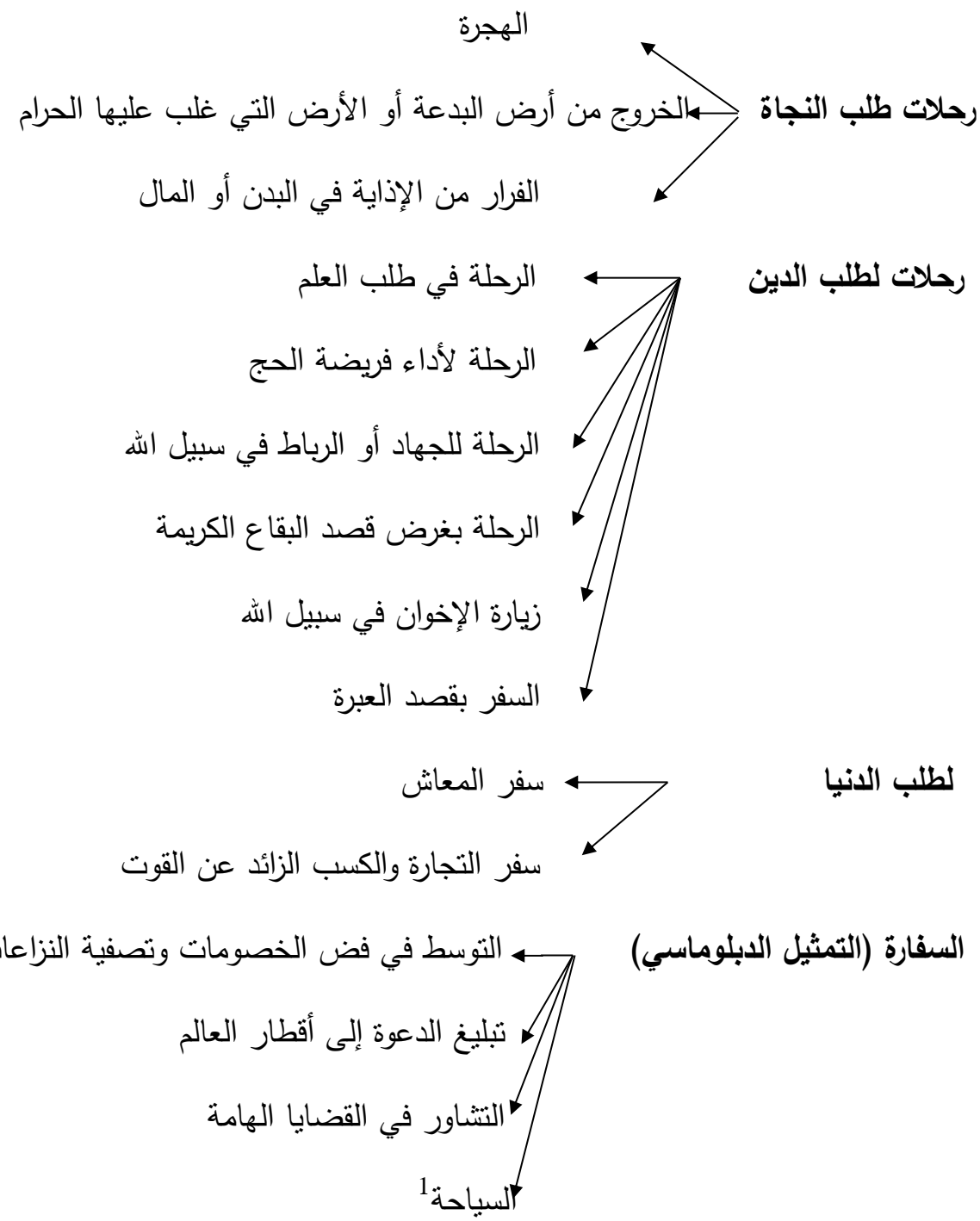

وانطلاقا ممّا سبق ذكرة يمكننا تقسيم الرّحلات كالتالي:

[1]- ينظر: الرحلة في الإسلام: أنواعها وآدابها..، ص ص 23- 40.

1-الرحلة الدينية:

1-1 الإسراء والمعراج:

تعتبر هاتان الرّحلتان من معجزات الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الّتي أذهلت العقول، وفيها توج الرسول علية الصلاة والسلام إماما للأنبياء، فهي رحلة ليست كباقي الرّحلات لما فيها من خوارق خالدة مليئة بالعبر، أرادها سبحانه وتعالى لرسوله واجتباه بها فكانت هذه الرّحلة منحة لسيّد الخلق بعد محنة مرّ بها، لأنّ هذه الرّحلة سبقتها مجموعة من الأحداث الّتي تخرّ لها الجبال، إلاّ أنّ الرسول استطاع تجاوزها بفضل إيمانه القوي برسالته الّتي كلّفه الله بتبليغها إلى البشريّة ونذكر من هذه الأحداث:

- ❖ مقاطعة وحصار قريش للرّسول وللمسلمين، ومنع الطّعام والشّراب عليهم مدّة ثلاث سنوات، ولولا وجود أصحاب القلوب الرّحيمة لهلكوا.
- ❖ كثرة المحن والأحزان: ففي نفس السّنة ونفس الشّهر توفّي أحبّ وأعزّ النّاس، عمّه الّذي كان يحميه ويناصره وزوجته خديجة ملجأه والمهوّن عليه عند المحن والشّدائد، وسمّي ذاك العام بعام الحزن، قال ابن إسحاق: << ثمّ إنّ خديجة بنت خُويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المصائبُ بهُلك خديجة، وكانت له وَزير صدق على الإسلام، يشكو إليها، وَبِهُلْكِ عمّه أبي طالب، وكان له عضدا وحِرْزاً في أمره، ومنعة وناصرا على قومه>> [1].

والإسراء << رحلة أرضية مبدؤها المسجد الحرام بمكّة المكرّمة ومنتهاها المسجد الأقصى بالقدس الشّريف>> [2]. ويتجلّى ذلك في قوله **جلّ وعلا:** << سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ >>[3].

---

[1]- ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الأول، ج1 و2 حقّقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السّقّا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، د. ط، د.ت، ص416 .

[2]- محمد محمود صلاح(أبو الدرداء): الفيوض الرّبانية في الرّحلة النّورانية "معجزة الإسراء والمعراج"، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1،1990هـ-1410م ، ص21 .

[3]- من سورة الإسراء(17) /الآية:1.

وسريت اللّيل وسريت به سريا والاسم السّراية إذا قطعته بالسّير، قال أبو زيد ويكون السّرى أوّل اللّيل وأوسطه وآخره [1]. ويقال أنّ الإسراء وقع بعد شقّ الصّحيفة الّتي نصّت على مقاطعة الرّسول والمسلمين، وقبل بيْعة العقبة وقبل هجرته إلى المدينة، وقد ورد أنّه كان يوم الاثنين ليلة السّابع والعشرين من شهر رجب. ويؤيّد هذا ما رواه ابن أبي شيبة عن جابر وابن عبّاس رضي الله عنهما قالا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وُلد يوم الاثنين وفيه بُعث وفيه عرّج إلى السّماء وفيه مات[2].

والإسراء هو من السّير برسول الله من المسجد الحرام بمكّة إلى المسجد الأقصى ليلا ببيت المقدس كما سبق وأن ذكرنا، وهنا تكمن قدرة الله سبحانه وتعالى، لأنّ الغير كان يقطع تلك المسافة في شهرين ذهابا وإيابا.

وفي تلك اللّيلة أتاه جبريل الأمين ليلا فحمله إلى المسجد الحرام ومنه إلى باب المسجد فأركبه البُراق وبدأت الرّحلة، وقيل أنّ النّبيّ كان في المسجد الحرام بين النّائم واليقظان، وجاء جبريل وميكائيل فأيقظاه وشقّا صدره وملآه بالعلم والمعرفة. وقد روى التّرميذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ الرّسول أتى بالبراق ليلة أسرى به مسرّجا ملجّما. وجاء في وصف البراق، أنّه دابّة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، مضطرب الأذنين إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه وإذا هبط ارتفعت يداه، وكان يرجع إلى حاله من استواء قوائمه إذا وصل إلى الأرض المستوية رفقا براكبه وتعظيما وتكريما له [3]، كان يركبها الأنبياء صلوات الله عليهم . أمّا المعراج فهو الارتقاء بالرّسول من المسجد الأقصى إلى السّماوات العلا وإلى سدرة المنتهى* عند جنّة المأوى. << قال ابن عبّاس والمفسّرون وغيرهم،

---

[1]– ينظر: من كتاب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرّافعي، ج 1..، ص132.

[2]– ينظر: الفيوض الرّبّانية في الرحلة النورانية"معجزة الإسراء و المعراج"..، ص56.

[3]– ينظر: نفسه..، ص– ص56–57.

*سدرة المنتهى: << السّدر النّبق وهي شجرة في أقصى الجنّة إليها ينتهي علم الأولين والآخرين، ولا يتعدّاها ولم يتجاوزها أحد سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في السّماء السّادسة. وفي حديث آخر في السّابعة، وهي عن يمين العرش>>(ينظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدّمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ج7، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ – 1997م، ص454) .

سمّيت سدرة المنتهى لأنّ علم الملائكة ينتهي إليها ولا يجاوزها أحد إلاّ رسول الله، و حكا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّها سمّيت بذلك لكونها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله تعالى>> [1]، حيث رأى النّبيّ من آيات ربّه الكبرى وبلغ المستوى الّذي سمع فيه صرير الأقلام.

والمعراج في اللّغة : اسم آلة بمعنى السّلّم أو المصعد مشتقّ من العروج ، وهو ذهاب في صعود، وسمّيت ليلة المعراج لصعود الدّعاء فيها [2]. قال **جلّ وعلا:** << وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ >> [3]. ويضيف الحافظ رجب البرسي: << ركب البراق واخترق السّبع الطّباق في أقلّ من لمح البصر >> [4].

---

[1]– الإمام مسلم: صحيح مسلم بشرح النّووي، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ط،1407هـ – 1987م، ص214 .

[2]– ينظر: الرّاغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، د. ط، 1972م، ص 341 .

[3]– من سورة النّجم(53)/ الآيات: 1–18.

[4]– علي العسيلي العاملي: الإسراء والمعراج: نظرة عامة دراسة وتحليل، الدار الإسلامية، ط2، 1988م، ص37.

1

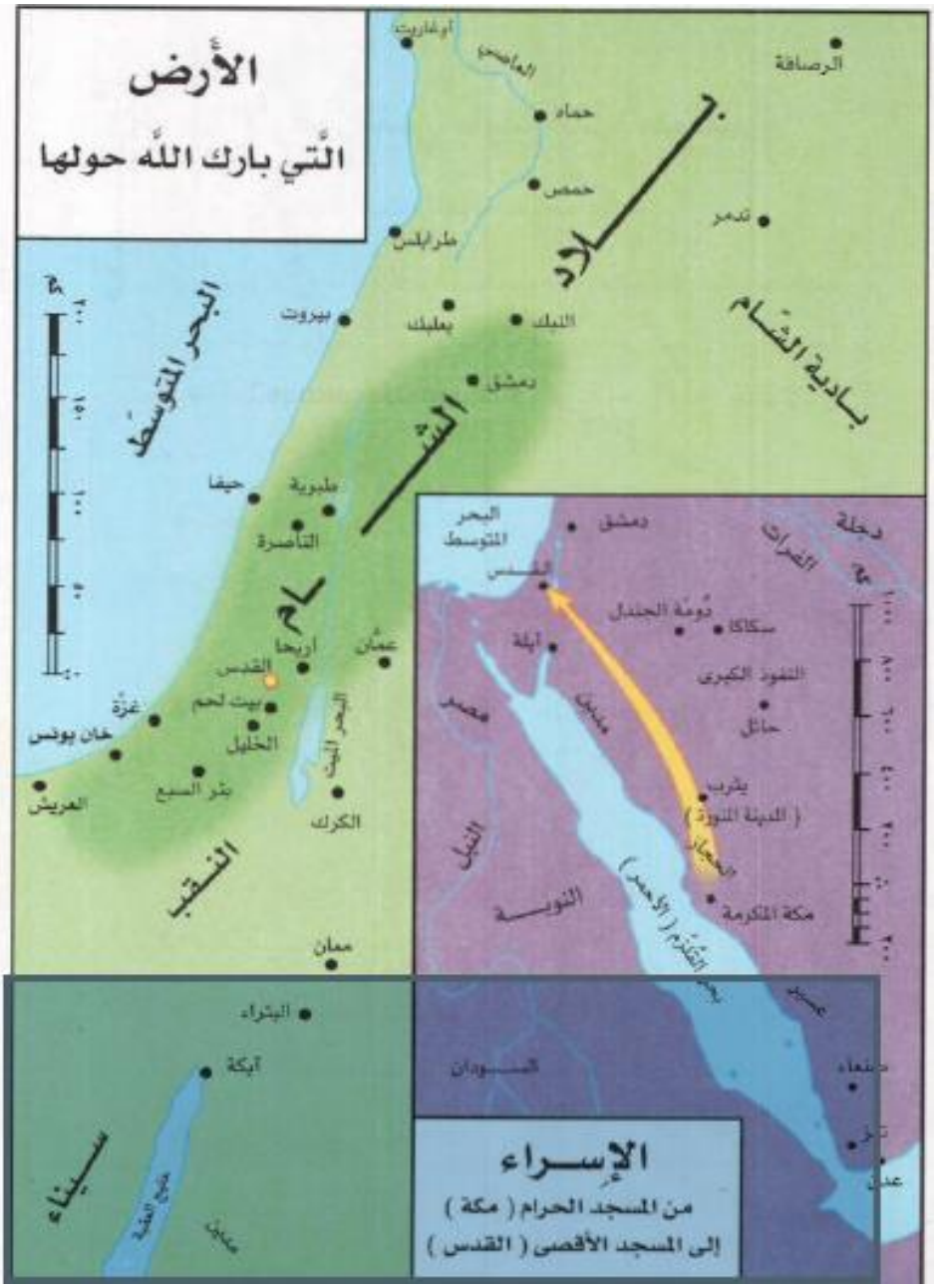

[1]– أطلس القرآن " أماكن، أقوام، أعلام "..، ص183.

2-1 الرّحلة بغرض قصد البقاع الكريمة:

تعرف بالرّحلة الحجازية وهي رحلة تعبدية مبنية على الاستطاعة المادية و الصّحيّة، تلزم بمواقيت وأيام معدودات من شهر ذي الحجة من كل عام طلبا للمغفرة وتطهيرا للنّفس من الذّنوب.

و رحلات الحجّ إلى البيت العتيق لم تنقطع منذ آدم عليه السّلام، فقد أكّدت الرّوايات التاريخية أنّ آدم حجّ البيت وحجّته الملائكة قبله، كما رحل إليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام، ورفعا قواعد الكعبة الشّريفة، يقول ابن هشام: لم يبعث الله تعالى نبيّا بعد إبراهيم إلّا وقد حجّ هذا البيت، فموسى حجّ راكبا على جمل أحمر، فطاف بالبيت وبين الصّفا والمروة[1]. وهناك دعا إبراهيم دعوته المشهورة وذلك في قوله **جلّ وعلا:** << رَّبَّنَا إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ >> [2]. واستجاب الله لدعاء نبيّه، وأصبحت مكّة المكرّمة تستهوي أفئدة الحجيج على مرّ العصور ومحلّ تجمّعهم لتأدية هذه الفريضة التي جعلها الله سبحانه وتعالى ركنا من أركان الإسلام، قال **رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:** << لا تشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام و المسجد الأقصى و مسجدي هذا >> [3]. وقد اعتبره عمر بن الخطّاب رضي الله عنه جهادا ويظهر ذلك في قوله: << شُدُّوا الرِّحال في الحجّ فإنّهُ أحَدُ الجِهاديْنِ >> [4].

---

[1]- ينظر: أحمد محمود أبو زيد : الرحلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة: " أدباء ورحالة ومؤرّخون وعلماء في الحجاز"، إصدار المجلة العربية 216، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1435هـ، ص 11.

[2]- من سورة إبراهيم(14)/الآية: 37.

[3]- الرّحلة في الإسلام: أنواعها وآدابها..، ص25.

[4]- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسننه وأيّامه، ج1، المطبعة السّلفيّة ومكتبتها، مصر، ط1، 1400هـ، ص 470.

ويقول الإمام أبو عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائي في كتابه: سنن النّسائي المجتبي: << أخبرني محمّد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن شعيب عن اللّيث قال: حدّثنا خالد عن أبي هلال، عن يزيد بن عبد الله، عن محمّد بن إبراهيم، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: جهادُ الكبيرِ والصّغيرِ والضّعيفِ والمرأةِ: الحجُّ و العُمْرَةُ >> [1]. ويقول أيضا: << أخبرنا إسحاق بن إبراهيم، قال أخبرنا جرير عن حبيبر، وهو ابن أبي عَمْرَةَ عن عائشة بنت طلحة قالت: أخْبرتْني أم المؤمنين عائشة قالت: قُلت: يا رسول الله ألا نخرُجُ فنُجاهدَ معك، فإنّي لا أرى عملاً في القرآن أفضلَ من الجهاد؟. قال: لا، ولكن أحسن الجهاد وأجْملُهُ: حجُّ البيتِ حجٌّ مَبْرورٌ >> [2].

فهذه الأحاديث تظهر لنا فضل الحجّ المبرور وماله من أجر وثواب، إذ اعتبر أحد الجهادين فهو ثاني جهاد بعد الجهاد الأكبر، لأنه فيه امتثال لأمر الله تعالى، << كما أنّ له فوائد اجتماعية وسياسية واقتصادية ناشئة عن اجتماع العدد الكبير من رجال العالم الإسلامي، حيث يتمّ التعارف ويروى العلم وتكتسب المعارف وتتبادل الآراء، وتعرض السّلع ويطعم الفقراء والمساكين بلحوم الهدايا الكثيرة >> [3] . وقصد البقاع المقدّسة هو أسمى هدف وأشرف غاية ينشدها الرّحالة على مرّ العصور فكانت ولازالت تستهوي أفئدة النّاس إلى يومنا هذا، ويظهر ذلك في **قوله تعالى:** << وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ >> [4]. ففي هاتين الآيتين بيّن الله سبب توافد قوافل الرّحالين على البقاع

---

[1]- أبو عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائي: سنن النّسائي المجتبي، ج5، مركز البحوث وتقنية المعلومات دار التأصيل، د. ط، د. ت، ص ص11- 12 .

[2]- نفسه..، ص14.

[3]- أبوبكر جابر الجزائري: العلم والعلماء، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، د. ط، 1985 م ، ص 49 .

[4]- من سورة الحجّ(22) / الآيتان:27-28 .

المقدّسة ليشهدوا منافع لهم أهمّها: طلب العلم، التّجارة، حيث كانت ولازالت قبلة للتّاجر والحاجّ وحتّى طالب العلم، وهذا الأخير كان يقطع المسافات بحثا عمّن يأخذ منهم صنوف المعرفة، فعلى الرّغم من إدراكه لما سيواجهه من مخاطر و مصاعب إلّا أنّه لم يكفّ يوما عن المضيّ قدما نظرا لتمسّكه بمبادئ جعلته يسخّر حياته لخدمة الدّين والعلم، وتيقّنه بأنّه بسفره هذا قد أصبح في رعاية الله وحفظه. ومن شدّة ولوعه بها دوّن الكثير منها من ذلك: الرّحلة الحجازية والرّياض الأنسية في الحوادث والمسائل العلمية لعلي عبد الله القدومي، الرحلة الحجازية للحاج حلمي باشا الثّاني خديوي مصر بقلم محمّد لبيب البتنوني، والرّحلة الحجازية النّجدية لمحمد سعود العوزي وغيرها.

يظهر فيها صاحبها الحنين والشّوق لزيارة الحرمين من ذلك قول ابن عمّار في كتابه: نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب: << وبعد فيقول العبد الفقير، المضطرّ لرحمة ربّه المولى القدير، مثقل الظّهر بالأوزار، الرّاجي عفوه سبحانه أحمد بن عمّار ألحفه الله رضاه، وأتحفه القرب من مرتضاه، لمّا دعتني الأشواق، النّافقة الأسواق، إلى مشاهدة الآثار و الأخذ من الرّاحة بالثّار، وأن اهجر الأهل والوطن، واضرب في عراض البيد بعطن، وأن اخلع على السالين السّاكنين الكرى، وامتطي ظهر السّهر و السّرى لبّيت داعيها وأعطيت كريمة النّفس ساعيها، علما منّي أن ليس يظفر بمراد، من لم يتابع الأصدار للإيراد، وليس يحظى بمأمول من لم يصاحب الحمول، وليس يجني ثمر الوصل، من لم يتجرّع كؤوس الفصل، ولمّا انبرى هذا العزم وانبرم، والتظى لاعج الشّوق وانصرم وباح الوجد بالسّر المكتوم، وصاح حيّ الوصل الفضاء المحتوم، شرعت إذن ذاك في المقصود>>[1].

[1]– أبو العبّاس سيد أحمد بن عمّار: نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، د. ط، 1320هـ–1902م، ص3 .

وبذلك أصبحت مكّة المكرّمة من أهمّ المراكز العلمية والعالمية وُفودا نظرا لمكانتها الدّينيّة ولدورها الثّقافي، كما اعتبرت همزة وصل بين علماء الأقطار الإسلامية ولازالت لأنّها استغلّت لطلب العلم ولقاء العلماء والأخذ عنهم[1].

فكانوا يتجمّعون في قوافل صغيرة، وخلال مسيرتهم كان ينظمّ إليها الوفود من الحجيج كلّما تقدّم بها الطّريق، << حتّى يصبح في النّهاية للعراق حجيجه وللشّام حجيجه ولإفريقية حجيجها، وتسير القافلة في ألفة ونظام وتعاطف شامل تحميها جنود الحكام ويرحّب بها سكّان المدن والقرى في معظم الأحيان، ويزداد التّرحيب كلّما زاد في القافلة عدد العلماء ورجال الدّين>> [2]. وكان العالم النبيه من بين هؤلاء الحجيج يدوّن مشاهداته فيصف تجواله في مختلف الأقطار وما اجتازه من آفاق من وقت مفارقته لوطنه إلى حين عودته، ويسجّل كلّ الأحداث الّتي مرّت عليه أثناء رحلته تخليدا لذكراه وهداية لإخوانه، وتعريفا بالمسالك الّتي يجب سلوكها أو المهالك الّتي ينبغي اتّقاؤها. كما كان يذكر أسماء من التقى بهم من رجال العلم الدّيني لاسيما أهل الحديث وأئمّة الفقه مسجّلا ما أخذه عنهم، وخلالها كان يحاول الحصول على أكبر قدر من الإجازات، ومنهم من كان يهتمّ بالأدب ومنهم من كان يهتمّ بالجغرافية والتاريخ والاقتصاد [3].

بالإضافة إلى وظيفتها الدّينية والعلمية فقد اعتبرت أكبر فضاء علميّ للاستفادة والإفادة، اجتمع فيها ولازال يجتمع فيها علماء الدّين من كلّ مكان ومن كلّ صوب وحدب، وكان كلّما زاد عدد العلماء ورجال الدّين في القافلة زاد التّرحيب بهم. وعند عودتهم كانوا يخبرون عن معالم الطّريق الّتي سلكوها والأحداث الّتي صادفوها والمواقف الّتي عاشوها والعقبات الّتى اعترضت سبيلهم، والبعض الآخر كان يدوّن ما شاهده بعد عودته من تلك

---

[1]– ينظر: الجوهرة بنت عبد الرحمن المنيع: الرحلات العربية مصدر من مصادر تاريخ المملكة العربية السعودية(1338هـ–1373هـ/1920م–1953م)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، د.ط،1431هـ، ص46 .

[2]– محمد محمود الصّبان: رحلة ابن بطوطة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1994م، ص7.

[3]– ينظر: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني: رحلة التيجاني، قدّم لها: حسن حسني عبد الوهّاب، الدار العربية للكتاب، تونس، د. ط،1981م، ص ص: ج– ح.

الرّحلة، وبذلك كانوا يفيدون غيرهم من المؤمنين بتجاربهم. قال عبد الهادي التازي: لا يوجد رحّالة من الّذين قصدوا الحجاز استطاع أن يكتب مثل ما كتبه ابن بطّوطة عن مكّة المكرّمة كمّا وكيفا شكلا ومضمونا، فقد ظلّت مكّة المكرّمة شاخصة في مذكّراته عند كلّ معرج تحرّكاته، فقد قصدها أربع مرّات حجّ سبع حجّات. وهذا ما لم يتيسّر لغيره وقد نعتها بأوصاف ثلاثة: فهي حرم الله، ومبدأ انطلاقة خليله إبراهيم، ومبعث صفيّه عليه الصّلاة والسّلام[1].

1-3 تدبر آيات الله ونواميسه في الكون:

قال جلّ وعلا: << إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ >>[2].

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة عجائب الله في مخلوقات وهي ثمانية أنواع تنبيها على ما فيها من الآيات والعبر:

- خلق السموات البديعة وما فيها من الكواكب المضيئة و الشمس والقمر والنجوم، التي يهتدي بها السالك في ظلمات الليل وإجراؤها على نظام ثابت.
- تكوين الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وما فيها من المعادن والجواهر، كلّها سخّرت لخدمة الإنسان.
- اختلاف الليل والنهار بالطول و القصر والنور والظلمة والزيادة النقصان.
- السفن العظيمة كأنها الجبال في الضخامة، وهي مملوءة بالأثقال والرجال، تجري بها الريح مقبلة ومدبرة، كما أنّ لهذه البحار منافع للناس يأكلون منها السمك ويستخرجون منها الجواهر النفيسة من لؤلؤ و مرجان .

---

[1]- ينظر: عبد الهادي التازي: رحلة الرّحلات "مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة: ج 1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، د. ط، 1425 هـ - 2005 م، ص ص138- 139 .

[2]- من سورة البقرة (2) /الآية: 164 .

- المطر الذي جعله الله سببا لحياة الموجودات من إنسان وحيوان ونبات وإنزاله بمقدار.
- ما بث تعالى ونشر في هذه الأرض من أنواع المخلوقات من بشر وأنعام وطير، مع اختلاف الأشكال والصور.
- تصريف الرياح شمالا و جنوبا حارة وباردة، وما فيها من القوة حيث تقتلع الصخر والشجر.
- السحاب الذي يسيره الله بقدرته بين السماء و الأرض وهو يحمل المياه العذبة[1].

كل هذه النقاط هي عبارة عن صور حية يدركها الإنسان بسمعه وبصره، وهي تدلّ على عظمة ووحدانية الله عز وجل، ناطقة بآثار قدرته لمن يتفكر فيها أو يتدبرها فسبحان الخالق القهار. وقال أيضا: << قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ >>[2]. وقال أيضا: <<سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.. ﴿٥٣﴾ >>[3].

1-4 الرحلة للجهاد في سبيل الله ولنصرة الدّين الإسلامي:

كانت تسمّى في القديم رحلة قتال من أجل السّلب والنّهب والتوسّع في الأرض و استغلال ثرواتها، ليتغيّر اسمها وهدفها بعد مجيء الإسلام وأصبحت تسمّى برحلة الجهاد. و الجهاد ملزم به كلّ فرد قادر توفّرت فيه الشروط، فهي تعدّ رحلة دينية عسكريّة للدّفاع عن الدّين الإسلامي في سبيل إعلاء كلمة الحقّ وصدّ العدوان، مع تأمين الاستقرار ونشر السلم والسلام. وكان لهذا النوع من الرّحلات الدّور الكبير في الفتوحات الإسلامية، والدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الإسلام للمجتمعات القريبة والبعيدة، في حالة كان العكس اعتبر عدوانا.

---

[1]- ينظر: محمد علي الصابوني: قبس من نور القرآن الكريم: من سورة الفاتحة البقرة وآل عمران "دراسة موسعة تحليلية لأهداف ومقاصد السور الثلاث "، ج1، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 1407هـ-1988 م ، ص ص 45-46 .

[2]- من سورة العنكبوت (29) /الآية: 20 .

[3]- من سورة فصّلت(41) /الآية:53 .

وهذا ما رفضه وتبرأ منه ديننا وعقيدتنا الإسلامية، بعد أن حرّرت الناس من الكفر بتصديها لعدوانه و عناده، وأشاعت الهيبة والأمن والأمان لحساب الإسلام والمسلمين في العالم الإسلامي وفيما وراء العالم الإسلامي[1]. ومثالنا هجرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة .

❖ **الهجرة إلى الله و رسوله:**

✓ **هجرة خالد بن حِزام بن خويلد الأسدي:**

هو << ابن أخ خديجة بنت خويلد رضي الله عنه أسلم قديما، هاجر إلى أرض الحبشة – الهجرة الثانية– إثرها نهشته حيّة فمات في الطّريق قبل أن يدخل إلى الحبشة >> [2] ، فنزل فيه قوله سبحانه و تعالى: << وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾>>[3].

وقيل<< خرج ضمرة بن جندع من بيته مهاجرا، فقال لأهله: احملوني وأخرجوني من أرض المشركين إلى رسول الله، فمات في الطّريق قبل أن يصل إلى الرّسول وقيل أيضا: كان جُنْدَع بن ضمرة اللّيثي من المستضعفين بمكّة وكان مريضا، فلمّا سمع ما أنزل الله في الهجرة قال: أخرجوني، فهيّئ له الفراش ثمّ وضع عليه وخرج به، فمات في الطّريق>>[4].

2-الرحلة العلمية:

2-1 الرّحلة الاستكشافية:

تحمل أهدافا علميّة كالبعثة التي أوفدها هارون الرشيد 170-193هـ/789-809م إلى بلاد اليمن بهدف معرفة من أين يأتي العنبر الذي كان سلعة ترفيه في ذلك الزّمان. كما

---

[1]- ينظر: صلاح الدين علي السّامي: الرّحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدّراسة الميدانية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط2، 1999م، ص114 .

[2]- أطلس القرآن: " أماكن، أقوام، أعلام "..، ص117 .

[3]- من سورة النساء (4) /الآية: 100.

[4]- أطلس القرآن: " أماكن، أقوام، أعلام "..، ص178 .

اقترنت بحفيد هارون الرشيد وهو الخليفة الواثق، وهما رحلتان استكشافيتان باعثهما خيالي اشترك فيهما رياضي شهير هو محمد بن موسى. تهدف الأولى إلى فحص كهف الرّقيم وخبر أهل الكهف، وتهدف الثانية إلى استكشاف سدّ ياجوج وماجوج ومعرفة ما حدث له بعد أن تراءى للخليفة في المنام كأنّما انفتح ليتسرّب منه ياجوج ومأجوج ليفسدوا في الأرض، وكانت هذه الرحلة لسلام الترجمان [1] إذ نجده يصرّح بذلك قائلا: << إنّ الواثق بالله رأى في المنام أنّ السّدّ الّذي بناه ذو القرنين بيننا وبين مأجوج مفتوح، فأرعبه هذا المنام فأحضرني وأمرني بقصده والنّظر إليه والرّجوع إليه بالخبر>> [2] .

وفي هذا الصّدد تجدر الإشارة إلى وجود فارق أساسي بين دوافع وأسباب الرحالة القدماء، ودوافع وأسباب الرّحالة المحدثين، ويتمثّل هذا الفارق << في انبهار القدماء بكلّ ما هو من عمل الإنسان وإغفالهم في الأغلب للطّبيعة البكر، بينما يغفل الرّحالة المحدثون كلّ ما قد تدخّلت فيه يد الإنسان بالتّعديل أو التّحريف، إنّهم يبحثون عن كلّ ماهو بكر وفطري و بدائيّ >> [3].

2-2 الرحلة في طلب العلم:

إنّ فضل العلم عظيم، وإنّ شرفه لعال فبالعلم يرتفع قدر المرء ويعلو شأنه ليصل إلى مرتبة الشّرفاء و العظماء، به شرّف آدم في الملإ الأعلى، و به فاز أهله بالدّرجات العلى ويتجلّى ذلك في قوله **سبحانه وتعالى:** << يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾>> [4] . فلو لم يكن أسمى وأشرف شيء في الوجود لما طلب من رسوله أن يسأل المزيد والاستكثار منه

---

[1]- ينظر: جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع..، ص18 .

[2]- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، مج 3، دار صادر، بيروت، د. ط، د.ت، ص 199.

[3]- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري..، ص30 .

[4]- من سورة المجادلة(58) /الآية:11 .

قال جلّ وعلا:" وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ >> [1]. ولما حثّنا على اكتسابه فطلبه مرغوب فيه، أمّا طالبه فينال أجرا وثوابا وقد حثّنا الله سبحانه وتعالى ورسوله على طلبه، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم<< ثمانين مرّة >> [2]، شرط أن يكون هذا العلم جامعا بين العلم والعمل الصّالح. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: << إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له >>. ففي هذا الحديث جعل كلّا من العلم والولد في مرتبة واحدة، فالعلم بدوره يعتبر وقفا تنتفع به الأمم حتى بعد موت صاحبه من خلال ما خلّفه من كتب و تصانيف، وما دام النّاس ينتفعون به فهو في هذه الحالة صدقة يجري أجره عليها وقتا غير محدود بعد وفاته، أي أنّ ثوابه غير منقطع وبذلك يكون قد أوصل صاحبه بأهل الأجر والفضل. عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: << تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لأَهْلِهِ قُرْبَةٌ، لأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَالأُنْسُ فِي الْوَحْدَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْعُزْلَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلاحُ عَلَى الأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الأَخِلَّاءِ، وَالْقَرِيبُ عِنْدَ الْغُرَبَاءِ، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَامًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً، وَهُدَاةً يُهْتَدَى بِهِمْ، وَأَئِمَّةً فِي الْخَيْرِ تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ، وَتُرْمَقُ أَعْمَالُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلائِكَةُ فِي خِلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، وَفِي صَلاتِهَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، حَتَّى حِيتَانِ الْبَحْرِ وَهَوَامِّهِ، وَسِبَاعِ الْبَرِّ وَأَنْعَامِهِ، وَالسَّمَاءِ وَنُجُومِهَا، لأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْعَمَى، وَنُورُ الأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، وَقُوَّةُ الأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ مَنَازِلَ الأَبْرَارِ، وَمَجَالِسَ الْمُلُوكِ، وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالْفِكْرَةُ فِيهِ تُعْدَلُ بِالصِّيَامِ، وَمُدَارَسَتُهُ بِالْقِيَامِ، وَبِهِ يُطَاعُ وَيُعْبَدُ، وَبِهِ يُعْمَلُ وَيُحْفَدُ، وَبِهِ يُتَوَرَّعُ وَيُؤْجَرُ، وَبِهِ تُوصَلُ الأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلالُ مِنَ الْحَرَامِ، إِمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ، قَالَ: تَابِعُهُ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ، وَيُحْرَمُهُ الأَشْقِيَاءُ >> [3]. فابن معاذ رضي الله عنه يبيّن

---

[1]– من سورة طه(20) /الآية: 114 .

[2]– محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار ومطابع الشعب، د. ط، د. ت، ص 478 .

[3]– العلم و العلماء ..، ص23 .

لنا فضل العلم وفضل طلابه حيث اعتبره من أفضل الأعمال وأشرفها، فطالبه عند الله عزّ و جلّ بمنزلة المجاهد في سبيل الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :<< سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: من جاء مسجدي هذا لم يأته إلّا الخير يتعلّمه أو يعلّمه فهو بمثابة المجاهدين في سبيل الله >> [1].

<< وكان من معايير الحكم على صاحب العلم عدد من لقي من العلماء وتتلمذ على يدهم >> [2] ، أي أنّ قيمة طالبه كانت تقدّر بما قام به من رحلات في سبيل تحصيله << ومردّ هذا أنّ كثيرا من طلاب العلم وحفاظه كانوا يعتقدون أنّ المعرفة العلمية الصحيحة لا تتأتّى إلّا باللقاء والاتصال المباشر بين طالب العلم والعالم >> [3]، << والرّسول صلّى الله عليه وسلّم بدوره حضّ على ذلك، فهو يعتبر أوّل من حمل لواء التّحرير من الجهالة والضّلال >> [4]، فجعل طلبه فريضة على كلّ مسلم فقال: "طلب العلم فريضة على كلّ مسلم". كما حثّ على السّعي لاكتسابه، يقول أبو الحسن المسعودي : << ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسّم عمره على قطع الأقطار، ووزّع بين أيّامه تقاذف الأسفار، واستخراج كلّ دقيق من معدنه، وإثارة كلّ نفيس مكمنه >> [5].

وعن أبي الدّرداء رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: << مَنْ سَلكَ طريقاً يبتَغِي فيه علماً سهَّل اللهُ لهُ طَريقاً إلى الجنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتَضَعُ أجنِحتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضىً بِما يَصْنعُ، وإنّ العالِمَ ليستغفر له منْ في السّماواتِ ومنْ في الأَرْضِ حتّى الحيتَانُ في الماءِ، وفضْلُ العالمِ على العَابِدِ كفضِلِ القمرِ على سائِرِ الكواكب وإنّ العُلَمَاءَ ورثةُ

---

[1]– المرجع السابق ..، ص26 .

[2]– رحلة ابن بطوطة..، ص8 .

[3]–عثمان موافي: لون من أدب الرحلات : دراسة نقدية، دار الكتب الوطنية، بغداد، د. ط، د. ت، ص7.

[4]– محمد عجاج الخطيب: السّنة قبل التّدوين، أمّ القرى للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1407هـ– 1988م، ص 42 .

[5]– أدب الرحلة في التراث العربي ..، ص21 .

الأنبياءِ، وإنّ الأنْبيَاء لمْ يُورِّثوا ديناراً ولا دِرْهما وإنّما ورّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحظٍّ وافرٍ. رواه أبو داود التّرميذيّ >> [1].

ففي هذا الحديث ترغيب شديد في طلب العلم والسّعي لاكتسابه وتبيين جليّ لمنزلة العلماء، حيث نجد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يرغّب في العلم النّافع – و ذلك في قوله: " اللّهمّ إنّي أعُوذُ بك من علمٍ لا ينفعْ، ومن قَلْبٍ لا يخشعْ ومن نفْسٍ لا تشْبعْ ومن دعوةٍ لا يُستَجابُ لها" –. لأنّه يعود على صاحبه وعلى كافّة النّاس بالخير الوفير في الدّنيا والآخرة، ويوصل طالبه إلى الجنّة. فطالب العلم ينال استغفار المخلوقات في السّموات الفسيحة وفي الأراضين الواسعة، حتّى الأسماك والحيتان تستغفر له، كما أنّه يحظى بتوقير الملائكة وتواضعهم ورضاهم، فللعالم فضل يتجاوز فضل العابد قدرا ومنزلة فهو يتجاوز أنوار سائر الكواكب إشراقا، وهنا يكمن سموّ قدر العلماء .

واعتبر الإمام بن صلاح الرّحلة << منهجا من مناهج التحصيل العلمي فنجده يقول: وإذا فرغ من سماع العوالي والمهمّات الّتي ببلده فليرحل إلى غيره. ويضيف يحيى بن معين: أربعة لا تأنسُ منهم رُشدا: حارس الدّرب ومنادي القاضي، وابن المحدّث، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث>> [2]. ويضيف المسعودي قائلا:<< فليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نُمِيَ إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسّم عمره على قطع الأقطار، ووزّع أيّامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كلّ دقيق من معدنه، وإثارة كلّ نفيس من مكْمنه>> [3].

وبذلك على طالب العلم ألاّ يكتفي بما يصله من معارف بل عليه الانتقال بين الأمصار للقاء المشايخ وأهل العلم، لأنّ الملكة تقوى بتعدّدهم وباختلاف طرق اكتساب هذا

---

[1]– الإمام النّووي الدّمشقي: رياض الصّالحين، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د. ط، 1988م، ص 526 .

[2]– أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث تحقيق وتعلق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ط1، 1395 هـ–1975م، ص17 .

[3]– أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب، ج1 ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط5 ، 1393هـ–1973م، ص12 .

العلم، سواء عن طريق المحاكاة أو الإلقاء أو التلقين المباشر. وهو ما عبّر عنه ابن خلدون بقوله: << فالرّحلة لابدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرّجال>> [1]. أمّا الفقيه أحمد بن حمدان الحنبلي فنجده يقول في كتابه صفة الفتوى والمفتي والمستفتي: << قال الإمام أحمد: رحلتُ في طلب العِلمِ والسُّنّةِ إلى الثُّغورِ والشّامات والسّواحل والمغرب والجزائر ومكّة والمدينة والحجاز واليمن والعراقيّين جميعا وفارس و خرسان والجبال والأطراف ، ثمّ عدت إلى بغداد، وقال: استفاد منّا الشّافعي أكثر ممّا استفدنا منه >> [2]. فكان على الطالب العلم أن يتّبع الخطوات التالية: الملاحظة، المعاينة، التجربة والاستقراء وإذا لم يكن منه ذلك اعتبر من المقصّرين.

ففي العصر العبّاسيّ كانت بغداد قبلة لطالبي العلم نظرا لتطوّر الحياة الفكرية فيها في تلك الفترة نظرا لتشجيع الخلفاء والمماليك للأدب والأدباء، فشيّدت أكبر المكتبات كمكتبة بيت الحكمة، وأحضر كبار المترجمين لترجمة الكتب الفارسية واليونانية والهندية، ويظهر ذلك في قول المسعودي: << إنّ بغداد وهي في أوج عظمتها قد اجتذبت إليها أشياء غير التّجارة المادّية، ذلك أنّها أصبحت ردحا من الزّمن مركز الثّقافة العربيّة، ولم تحدث في تاريخ المدينة حركة أكثر روعة من ذلك الشّغف الفجائيّ بالثّقافة الّذي حدث في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ، فكان كلّ مسلم من الخليفة إلى الصّانع، يبدو كأنّما اعتراه فجأة شوق إلى العلم وظمأ إلى السّفر >>[3].

فكانت تلك الرّحلات تقوم مقام المراجع والمؤلّفات نظرا لندرة الكتب في تلك العصور، لما كان يحمله العلماء من زاد معرفيّ في شتّى الميادين الفكرية من رياضيات وفقه وفلسفة. حتّى الشّعراء إذا تعذّر عليهم قول الشّعر، شدّوا الرّحال إلى البادية، لتعمل الصّحراء على تصفية أذهانهم وتجويد قرائحهم << سئل الشاعر الأموي نصيب بن رباح: أتطلب القريض

---

[1]– عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي: مقدّمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ص 481 .

[2]– أحمد بن حمدان الحرّاني الحنبلي: صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ط1 ،1380 هـ ، ص ص77–78 .

[3]– جغرافية المسعودي..، ص17 .

أحيانا فيعسر عليك؟. فقال: إي والله لربّما فعلت، فآمر براحلتي فيشد عليها رحلي، ثمّ أسير في الشّعاب الخالية، وأقف في الرّباع المقوية، فيطربني ذلك، ويفتح لي الشّعر >> [1].

❖ **رحلة سيّدنا موسى مع العبد الصّالح "الخضر":**

كانت هذه الرّحلة ذات هدف تربويّ تعليميّ في منهج ربّانيّ أراده الله جلّ جلاله لهذه الأمّة، ونجد تفاصيل هذه القصّة في كتاب الله وذلك في سورة "**الكهف**" وما كان بينه وبين العبد الصّالح من محاورات، فقد كان سيّدنا موسى شغوفا ومحبّا لطلب العلم ومعرفة المزيد بكلّ ما يتعلّق بأسرار الدّنيا.

وما يلفت نظرنا في هذه القصّة الأسلوب الوديع الّذي يعبّر عن روح التّواضع للعلم والعُلماء، فسيّدنا موسى عليه السّلام مع عُلُوّ شأنه في المعارف الإلهية، لم يمنعه ذلك من تحمُّل كلّ تلك المشاق الّتي واجهته في سبيل العلم دون النّظر إلى من يريد التّعلّم منه، وهذا يُرشد إلى أنّ العلم أسمى من المال، ولا ينبغي أن يُتّخذ فقر العلماء مانعا من السّعي إليهم وتزكية النّفس بعلمهم [2]. كما نجد في هذه القصّة الأدب الرّسالي لما فيه من تعطّش لاكتساب العلم والمعرفة، وبذلك كانت العلاقة بينهما تقوم على الصّحبة والهدف منها السّعي نحو المعرفة.

فبينما كان سيّدنا موسى عليه السّلام يتأهّب للرّحيل التقى بالعبد الصالح، وقد جعله الله سبحانه وتعالى في طريقه لينتفع من علمه، وكانت هذه الرّحلة طويلة وشاقّة [3]، وجد فيها نفسه أمام مفاجآت متوالية لم يعلم لها سرّا، و كان ذلك من مجالات صبر التّلميذ مع أستاذه والتزامه بما عقده له من شرط ، وإن حجز عنه بعض المعلومات والحقائق[4]. ويظهر ذلك في قوله **سبحانه وتعالى:** << وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ

---

[1]– ينظر: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري..، ص 28 .

[2]– ينظر: محمد شلتوت: إلى القرآن ، شركة الشّهاب: الجزائر، د. ط، د.ت، ص81 .

[3]– ينظر: فضل حسن عباس: القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته شركة شهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ط، 1989 م، ص317 .

[4]– ينظر: يوسف القرضاوي :الصبر في القرآن، مكتبة الشركة الجزائرية ، مرازقة بودواو، دار البعث، قسنطينة، د. ط، 1988م ، ص57 .

أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ >> قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ >>[1].

❖ الرّحلة في طلب الحديث:

ولمّا كان الحديث النّبويّ هو المصدر الثّاني للإسلام، فقد أعطاه العلماء غاية اهتمامهم، وبذلوا كلّ ما في وسعهم وتحمّلوا المشقّة للبحث عن أسانيده بل كانوا يرحلون ويقطعون المسافات البعيدة ويجتازون الفيافي والقفار من أجل إسناد حديث واحد أو التّحقّق من صحّته، امتثالا لأمر الله تعالى وتحقيقا لما حثّ عليه النّبي المسلمين [2].

وسبب حضّهم على الأسانيد – تقليد العلم بالأسانيد– كرههم لكلّ علم خال من السّند، نقل ابن خير الإشبيلي عن أحدهم أنّ كلّ علم خال من " حدّثنا أو أخبرنا " فهو خلٌّ وبقْلٌ. والإسناد ينقسم من حيث درجته إلى قسمين إسناد عال وإسناد نازل، والعلوّ في الإسناد هو قلّة عدد الوسائط في سند الحديث مع اتصال السّند ممّا يكسب الحديث قوّة، ولذلك كان

---

[1]– من سورة الكهف(18) / الآيات:60–86 .

[2]– ينظر: الرحلة في طلب الحديث..، ص89.

طلب العلوّ في الإسناد مرغوبا فيه، ولا يتحقّق الإسناد إلاّ بشدّ الرّحال إلى مختلف الأقطار ومن ثمّ استحبّت الرّحلة في طلبه [1].

قيل للإمام أحمد بن حنبل: << أيرحل الرّجل في طلب العلوّ؟. فقال: بلى والله شديدا، لقد كان علقمة والأسود يبلغهما الحديث عن عمر رضي الله عنه فلا يقنعان حتّى يخرجا إلى عمر فيسمعانه منه. وعن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنّه قال أنّ الله تعالى يدفع البلاء عن هذه الأمّة برحلة أصحاب الحديث >> [2]. والإسناد هو ذكر أسماء الّذين نقل عنهم الحديث مع التأكّد من نقلهم عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، من ذلك صحيح البخاري: الجامع المسند المختصر من أمور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسننه وأيّامه [3]. فأول ما يعتمد عليه جامع الحديث هو السماع من لفظ الشيخ، يقول السراج : << ولا ريب في اتفاق أئمة الحديث قديما على الرحلة إلى من عنده الإسناد العالي، وإن كان قد حصل لكم ذلك بنزول ممن سمعه من الشيخ الذي يرحل إليه . لذلك نجد الرحالين يعتزون ويفتخرون بما حصلوا عليه من أسانيد عالية، وبالنسبة لهم يعد ذلك أكبر مكسب حصلوا عليه في رحلتهم. و بالتالي أصبحت الرحلة ملازمة للعلم عامة وللحديث خاصة قال ابن مسعود: ما أُنزلت آيةٌ إلاّ وأنا أعلمُ فيما أُنزِلت، ولو أنّي أعلمُ أنّ أحدًا أعلمَ بكتابِ الله منّي تُبلِّغُه الإبل والمطايا لأتيتُه. وقال الشعبي: لو أنّ رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره رأيت أنّ سفره لا يضيع>>[4]. فالتّاريخ لم يعرف أمّة من الأمم رحلت في سبيل العلم مثل الأمّة الإسلامية، لا سيما علماء الحديث،

---

[1]– ينظر: مبارك بن الحسن لمين: رحلة العلماء الأندلسيين إلى مكة المكرمة خلال القرن الهجري الخامس بين الاستفادة الإفادة، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، جامعة: ابن زهر/أكادير المغرب 1426هـ، ص322 .

[2]– أبو عمرو عثمان بن عبد الرّحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر النصري الشهر زوري الشافعي: علوم الحديث، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1326هـ، ص105 .

[3]– ينظر: مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ –2000م، ص 220 .

[4]– الرحلة في طلب الحديث..، ص95.

قال تعالى: << وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ >>[1].

أمعن الصّحابة في الرّحلة إلى النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام للأخذ عنه والتّعلّم والتّلقّي المباشر منه، كما تبادلوا الرّحلات فيما بينهم للاستفادة من بعضهم البعض، والتّابعين بدورهم رحلوا إلى الصّحابة للأخذ عنهم والتّعلّم و التّفقّه في دينهم بالإضافة إلى رحلات الأئمّة والحفّاظ المتفرّقين في الأمصار، وكان ذلك منهجهم في التّحصيل العلمي عبر العصور المختلفة. والرحالة لم يكن هدفه الوحيد الحصول على علو الإسناد أو الالتقاء بكبار العلماء والمشايخ للأخذ عنهم، لأنّ الأهداف تختلف من رحالة إلى آخر،<< فهناك من كان يقطع المسافات الطويلة بحثا عن الكتب والمؤلّفات محاولا الحصول على نسخة منها من مختلف الأمصار كمصر ودمشق وبغداد، وخير مثال ابن رشيد محمد بن عمر بن محمد السبتي المتوفى بفاس 721رحلته المسماة : ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة >> [2]، فهذا الأخير كان مولعا بجمع الكتب حريصا على اقتناء أجودها قاصدا السوق الخاص ببيعها بدمشق، وهو من الرّحالة الّذين رجعوا محملين بها وهو أوّل من أدخل مؤلفات إلى المغرب، كما كان أوّل من جلب من الديار المصرية كتاب << البدر المنير في علم التعبير تسلمه من مؤلّفه أبي العباس أحمد بن سرور المقدسي الحنبلي>> [3].

---

[1]– من سورة التّوبة(9) / الآية: 122 .

[2]– عبد العزيز بن عبد الله :الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1، 2001 م، ص50.

[3]– الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، منشورات عكاظ، الرباط، د. ط، 1990 م، ص93 .

الرّحلة بقصد أخذ العبرة " قصّة ذو القرنين":

ذو القرنين أعظم رجل في تاريخ البشرية، قيل أنّه طاف الأرض ليرى عجائبها وقيل لينفّذ الحقّ والعدل فيها [1]. أخبرنا سبحانه وتعالى أنه أعطاه من كل شيء سبباً يحصل به قوة الملك، وعلم السياسة وحسن التدبير، والسلاح المُخْضِع للأمم، وكثرة الجنود، وتسهيل المواصلات..، ومع ذلك فقد اجتهد في الأخذ بالأسباب. كان يمتلك من العلم الكثير كما كان له قوّة عسكريّة وماليّة وروحيّة وإيمانيّة ودافعيّة لم تتوفّر في قائد ولا في أيّ شخص غيره، فلم تكن لديه خوارق، بل أعطاه سبحانه وتعالى مفاتيح العلوم. لم يكتف بالأسباب الّتي منحها له ولم يتواكل، بل وصل إلى ذلك بطموحه ويظهر ذلك في قوله **سبحانه و تعالى:** << وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا

[1]- ينظر: الرحلة في الإسلام..، ص26 .

جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ >> [1]. فمن هذه الآيات الكريمة نستشفّ الرّحلات الثّلاث الّتي قام بها ذو القرنين: – و**ما يفصل بين رحلاته عبارة – وأتبع سببا**– وهي كالآتي:

❖ **الرحلة الأولى " رحلة المغرب "[2]:**

هي قصّة اجتماعيّة كما أنّها تعتبر رحلة إصلاح، حيث استطاع أن يُقيم العدل في بلد كثر فيه الظّلم والفساد نتيجة انتهاك حقوق الغير وكان من أولئك القوم المسلم والكافر البرّ والفاجر، ولكي يكفّ أذى الفئة الأولى عن الثّانية وضع دستورا كان بمثابة الحكم الصّالح، ينُصّ فيه على محاسبة ومعاقبة كلّ من تسوّل له نفسه فعل المحرّمات أو الإفساد وممارسة الظّلم على الغير، وبذلك استطاع أن يحقّق العدل والمساواة حيث نال المحسن جزاء إحسانه ونال المعتدي عقابه جزاء إفساده وإيذائه .

❖ **الرحلة الثّانية "رحلة المشرق"[3]:**

حملت هذه الرّحلة شعار التنمية وعدم اليأس، قصد فيها بلدا عاش سكّانه مأساة طبيعيّة، كما كانوا يعيشون في فقر مدقع نتيجة استسلامهم لبيئة افتقرت لأدنى شروط الحياة، وبقدومه حلّ الخير على بلدهم بعد شقّه للآبار، وبذلك كان سببا في بعث الحياة بتلك البلدة ويظهر ذلك في قوله **سبحانه وتعالى:** << حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ >>[4]، << كانت أرضهم مكشوفة لا تحجبها عن الشّمس مرتفعات ولا أشجار، وأولئك القوم الّذين وجدهم بها هم قوم عراة

---

[1]– من سورة الكهف(18)/الآيات:83–98.

[2]– سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 4، الأجزاء 12– 18، دار الشروق، بيروت ، ط1، 1972 م، ص2291 .

[3]– نفسه..، ص2291.

[4]– من سورة الكهف(18) /الآية: 90 .

الأجسام لم يجعل لهم سترا من الشّمس>> [1]. لا ثياب ينسجونها ويلبسونها، ولا بيوت يبنونها ويأوون إليها، وهؤلاء القوم كانوا في أقصى المشرق، منقطعين عن الناس حالهم كحال الوحوش، لم يصل إليهم وإلى ذلك المكان البعيد عن المدنية والعمران إلّا ذو القرنين الّذي استطاع أن يغيّر مجرى حياتهم .

❖ **الرّحلة الثالثة "بين السّدين ":**

أمّا هؤلاء القوم استغاثوا به وطلبوا منه تقديم يد العون على قوم جاروا عليهم، بعدما توسّموا فيه القدرة والصّلاح كونه كان فاتحا قويّا مقابل خراج – ضريبة– تدفع له لحمايتهم . اشتكوا بأنهم شعب ضعيف، تُغير عليهم قبائل متوحشة تدعى يأجـوج ومأجوج*. يفسدون في أرضهم، وكانوا يعيشون في رعب وخوف كبير منها، وهم قوم عثوا في الأرض فسادا، فأقام لهم سدا يحميهم و يقيهم من بطشهم وجبروتهم. وفي هذه الرّحلة استطاع أن يحقق أكبر الإنجازات، وذلك الإنجاز كان له الفضل على البشريّة كلّها. وبذلك حقق أهدافه دون إراقتة للدّماء قال **جلّ وعلا** : << قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ >>[2]. فالإسلام لم يدع وسيلة من وسائل الرقيّ إلّا نبّه عليها، وندب إلى العمل بها، وكان ذلك شأنه في الرحلة. فقد دعا إليها راميا إلى أغراض من ورائها منها: طلب العلم، التفقه في الدين، الاعتبار بأحوال الأمم الماضية والحاضرة والتخلص من البغي والضلال، للإقامة في دار عدل و هداية [3].

---

[1]– في ظلال القرآن، مج4، الأجزاء 12– 18..، ص2292 .

*يأجوج: من تأجّجت النّار ، تفور وتحرق.

مأجوج: الطّوفان يأخذ كلّما أمامه والماء الأجاج هو الشديد الملوحة المحرق من ملوحته(ينظر: حسن زكريا فليفل : حقيقة أغرب من الخيال "يأجوج ومأجوج"، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د. ط، د. ت، ص ص 35–36) .

[2]– من سورة الكهف(18) /الآيتان: 94 – 95.

[3]– ينظر: محمد الخضر حسين: الرحلات، تحقيق: علي الرضا التونسي، مطبعة التعاونية، دمشق، د. ط، 1976م، ص ص 7–8 .

1

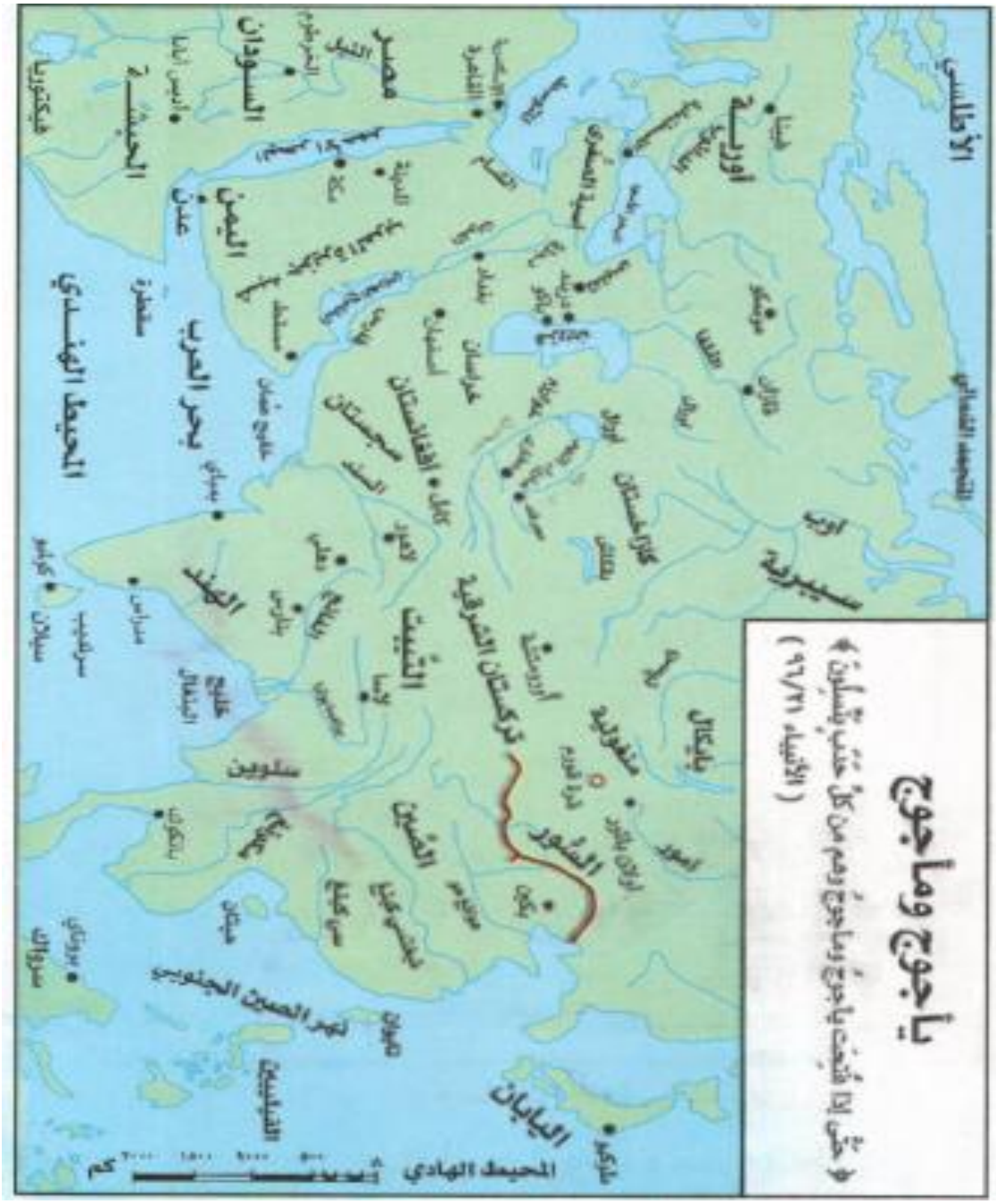

[1]– أطلس القرآن " أماكن ، أقوام، أعلام "..، ص 130.

3- الرحلة التجارية:

لم يكن الحجّ وحده الّذي يدفع المسلمين إلى التّجوال، بل كانت التّجارة من أهمّ بواعث الرّحلات، وهذا النّوع قديم قدم البشريّة تطوّر بتطوّر وسائلها، وهي رحلة بريّة أو بحرية أو جوّية، لها أهداف معينة و دور وظيفي حيوي لتأمين حاجات الإنسان كونها كانت تلعب دور الوسيط بين الدول. وبذلك أصبحت الرحلة قطاعا حيويّا فعّالا، كما كان ولازال لها الدّور الكبير في إنعاش الاقتصاد من خلال التعامل والتبادل التجاري.

4- الرحلة السياحية:

يكون فيها الخروج بدافع الرّغبة، فالإنسان ميّال بفطرته إلى حبّ الاستطلاع واكتشاف ذلك العالم المحيط به، فكان العربيّ يتجشّم الأخطار الشّديدة ويتكبّد النّفقات الطّائلة في هذا السّبيل خصوصا قبل اختراع وسائل النّقل. فكان السّفر يومئذ أمرا شاقّا لا يقدر عليه إلّا أهل الهمم العالية والثّروة الواسعة، وكان الرّجل إذا عاد من رحلته قصّ على أهله وأهل بلده ما شاهده من غرائب العادات والأخلاق، أو دوّن ذلك في كتاب.

فالحياة الرّتيبة الّتي يحياها الإنسان هي الّتي تجعله يفكّر في الرّحلة، رغبة منه في التجديد والتغيير والتّرويح عن النّفس. وهذا النّوع من الرّحلات يحقّق للإنسان الرّاحة النّفسية كما أنّه يساهم في تحقيق التّربية المتوازنة، وينمّي القدرات العقلية و روح الإحساس بالجمال، من خلال تأمّله للكون العظيم الّذي سخّره الله لعباده وتفكّرهم في مخلوقاته، وهنا تكمن قدرة الله سبحانه وتعالى. فرحلة الإسراء والمعراج تعتبر رحلة ترفيهية والهدف منها تخفيف حزن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بعد فقدانه لأقرب وأعزّ النّاس زوجته خديجة وعمّه، وفي الوقت نفسه تعتبر رحلة علمية فرض فيها الله الصّلاة على عباده. ففي الجاهلية كما سبق وأن ذكرنا إذا اشتدّ بالشّاعر الحزن والكرب وضاقت نفسه امتطى حصانه أو ناقته وضرب في الصّحراء بغية التخفيف من آلامه وأحزانه والخلاص إلى فرج ، وكان ذلك دأبه حتّى بعد مجيء الإسلام، بل إلى يومنا هذا لازال الإنسان يعتبر الرّحلة وسيلة يفرّج بها همّه ويخفّف بها عن نفسه متاعب الحياة و مشاقها.

5-الرحلة الرسمية:

5-1 السّفارة (التّمثيل الدّبلوماسي):

وتسمّى أيضا بالرّحلة الرّسمية ، وهي رحلةٌ تكليفيَّة تصدر بأمر من السُّلطة الحاكمة أو مَن يمثلها، تنقل فيها التّعليمات والرسائل(شفهية أو كتابية). وقد كان دور السّفير نقل الرّسالة فقط تنتهي مهمّته عند إبلاغ هذه الرّسالة إذا كانت شفهيّة أو توصيلها إذا كانت كتابية، ولا يُعتمد عليه في عقد صلح أو إبرام اتفاقيه، ولم تكن هذه الرِّحلة منتظمة، كونها كانت تبعث أو تبلّغ حسب رغبة السُّلطة. فقد كان الحكام يحرصون على حسن انتقاء من يمثلهم في مختلف الأمصار، إذ كان اختيارهم منصبّا على العلماء لما لهم من قدرة على المناقشة، كما أنّهم كانوا يمثلون نخبة الأدباء ومثقفين، وهاته النخبة كانت تستغل فرصة تنقلها بين البلدان لحضور المناظرات والبحث عن الكتب والمصنّفات.-

والإسلام بدوره حينما جاء << لم يغفل السّفارة بل اهتم بها، ووضع لها الضوابط المهنية والأخلاقية فقد سما الإسلام بها حيث نقلها من الأغراض المعاشية الدّنيوية إلى درجات الأعمال الدينية الهادفة >>[1]. ونلمس الرّحلة السفارية في قصّة سيّدنا سليمان عليه السّلام و الملكة بلقيس، حين بعثت إليه هذه الأخيرة بهدية قصد الاطلاع على قوة جنوده ويتجلّى ذلك في قوله سبحانه وتعالى:<< وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ >>[2] ،وقد أخذت السفارة في الإسلام الصور التالية [3] :

5-2 التوسط في فكّ الخصومات والنّزاعات:

وهي رحلة مسؤولية وتكليف ووضع التّعليمات موضع التّنفيذ من أجل ترسيخ مكانة دولة من الدّول كرحلة صلح الحديبية. تمثّلها مجموعة من السّفراء التّابعين لوزارة الشؤون الخارجية، توفدهم هذه الأخيرة ليكونوا همزة وصل أو يلعبوا دور الوسيط بين دولتهم والدول

---

[1]- الرّحلة في الإسلام "أنواعها وآدابها"..، ص30 .

[2]- من سورة النمل(27) /الآية:35 .

[3]- ينظر: الرّحلة في الإسلام "أنواعها وآدابها"..، ص 30 .

الأخرى لنقل وجهات نظر حول مختلف القضايا الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية، وهذا النظام– نظام السفارة – عرف منذ القدم وقد مثله أغرب سفير "الهدهد" ويتجلى ذلك في **قوله تعالى:** << وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ >> [1].

3-5 تبليغ الدعوة إلى أقطار العالم:

إذ يمكننا أن نعتبر الرّسل الّذين بعثهم رسول الله بالكتب إلى حكّام العالم في وقته سفراء أو مبعوثين مكلّفين بإنجاز مهمّة، ألا وهي تبليغ الدّعوة الإسلامية لتتأكّد بذلك عالمية الدّعوة الإسلامية ويتحقّق قوله تعالى: << وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ >> [2]. **وقال أيضا:** << قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

---

[1]– من سورة النّمل(27) / الآيات: 20-31 .

[2]– من سورة الأنبياء (21) /الآيتان :107-108 .

وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴿١٥٨﴾ >> [1].

أمّا بالنّسبة للأنبياء اعتبرت الرّحلة مطلبا دعويّا تقتضيه طبيعة النبوّة والرّسالة لينشر كلّ منهم دعوته، فالأنبياء كلّهم أُخرجوا من ديارهم وكل هذه الرحلات المقدسة وغيرها نجدها مسجلة في كتاب الله – القرآن الكريم – ، كهجرة خاتم الأنبياء المرسلين من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة فرارا من أذى قريش لنشر الدّين الإسلاميّ والدعوة إلى عبادة اللّه الواحد الأحد، كما هاجر أنبياء من قبله فسيّدنا موسى كليم الرّحمن– عليه السّلام– بدوره كانت له رحلات عديدة ومتعدّد، فقد أباح له جلّ وعلا الهجرة من مصر إلى مدين عند قتله للقبطيّ بالخطأ وخرج حينها خائفا مترقّبا. ويظهر ذلك في قوله **جلّ وعلا** : << وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا

[1]– من سورة الأعراف(7) /الآية:158 .

خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ >>[1]، لتكون بذلك هاته الرّحلة نجاة من عدوّ ظالم و سبيلا للخروج من محنة بعد توجّه منه إلى خالقه متطلّعا إلى حمايته ورعايته.

ومنهم من خرج خوفا من بطش الأعداء، << قال حدّثنا أبو محمّد عبد الملك بن هشام، قال: حدّثنا زياد بن عبد الله البكّائي ،عن محمّد بن إسحاق المُطّلبي قال: فلمّا رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله، ومن عمّه أبي طالب، وأنّه لا يقدر على أن يمنعهم ممّا هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها مَلِكا لا يُظلم عنده أحدٌ وهي أرض صدقٍ حتّى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلّى الله عبيه وسلّم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرار إلى الله بدينهم فكانت أوّل هجرة في الإسلام إلى الحبشة >> [2]. وقال **جلّ وعلا:** << إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ **قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾>> [3] . وقد أحسن النجاشي جوارهم حين نزلوا به فقال [4] : ص52

يَا راكِبًا بلِّغا عنّى مُغَلْغَلَـــــــةً مضن كانَ يَرْجو بَلاَغَ اللهِ والدّينِ

كُلَّ امرِئٍ مِنْ عِبادِ الله مضطهِدٍ بِبَطْنِ مَكَّةَ مَقْهورٍ ومَفْتُـــــونِ

أَنَّا وَجَدْنَا بِلاَدَ الله واسِعَـــــــةً تُنْجي منَ الذُّلِّ والمَخْزاةِ والهُـونِ

---

[1]– من سورة القصص(28) /الآيات:14-21.

[2]– سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم، ج1..، ص441 .

[3]– من سورة النساء(4) /الآية: 97 .

[4]– سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم..، ص 353 .

لقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم هدفه من الهجرة، وكان الأسلوب الذي اتبعه في رحلته كفيلاً بتحقيق هذا الهدف، فلم يكن الهدف من الهجرة فراراً ولا خوفاً ولا حباً لمال أو جاه ولا تطلعاً لمجد يتطاول به على خلق الله، بل كان الهدف تنفيذاً لخطة مرسومة وضعت وأخذت عليه البيعة والميثاق.

هجرة سيدنا إبراهيم إلى بابل حيث حاجّ ملكها نمرود في ربّه قال **تبارك وتعالى**: << أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ >>[1].

هذه الآية واضحة لمن يتأملها، كان إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– خليل الرحمن قد بعثه الله إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله، وينذرهم الشرك بالله، وكان في زمانه ملك يقال له: النمرود، كان جباراً عنيداً، وكان يدعي الملك و أنه رب العالمين هو من يحيي ويميت، وذكر المفسرون أنه كان يأتى بشخصين يستحقان القتل فيعفوا عن واحد ويقتل الآخر ويزعم أن هذا معنى إحيائه وإماتته. طلب منه سيّدنا إبراهيم أن يخرج من الحجر ومن النطفة ومن الأرض حياً بعد موت، مؤكّدا أنّ ذلك لن يكون إلّا بقدرة الله سبحانه وتعالى، إلّا أنّه كابر ولم يقتنع، فانتقل معه إبراهيم إلى حجة أوضح للناس وأبين ليبيّن له عجزه وعدم قدرته، فبين له –عليه الصلاة والسلام– أن الله يأتي بالشمس من المشرق، وطلب منه أن يأت بها من المغرب، فبهت حينئذ، واتضح للناس بطلان كيده، وأنه عاجز أمام قدرة الله سبحانه وتعالى. ليتابع بعد ذلك هجرته إلى حرّان ومعه زوجته سارة ولوط عليه السّلام، وكان ذلك بعد عدم تمكّنه من هداية قومه الّذين ظلّوا كفرهم ماعدا ابن أخيه لوط عليه السلام قال **جلّ وعلا**: << فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ

[1]– من سورة البقرة (2) /الآية: 258 .

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ >> [1].

والخروج في بعض الأحيان كان لأمر من الله سبحانه وتعالى من خلال حثّه على طلب العلم والسعي لاكتسابه، ودعوته إلى الحركة والتّنقّل للتأمّل في مخلوقاته وتدبّر آياته والاعتبار من حال السّابقين الّذين لم يحسنوا صنعا، ليتجنّب بذلك حال المسيء من خلال استعماله فعل الأمر ويتجلّى ذلك في قوله **جلّ وعلا:** << أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾>> [2]. **وقال أيضا:** " قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ >>[3].

رابعا: أنواع الرحلات من حيث التدوين و التسجيل:

1- رحلات كتبت أثناء الرحلة:

هذا النوع يخضع لتسلسل نظام الرحلة، يدون فيها الرحالة ما يلقاه من مفاجآت وما يصادفه من أحداث ومن يلقاه من أشخاص، ويمثل هذا الصنف: العبدري.

2- رحلات كتبت من المذكرات :

يسجل فيه الرحالة كل المعلومات في مذكرات حتى لا تفوته أدق التفاصيل وأهم المعارف، إلّا أنّ صاحبها لا يخرجها إلا بعد تدقيق وتنقيح يمثّلها التيجيني.

---

[1]- من سورة العنكبوت(29) /الآيات:24- 26 .

[2]- من سورة العنكبوت(29) /الآيتان:19-20 .

[3]- من سورة آل عمران(3) /الآيتان:137-138 .

3- رحلات كتبت من الذاكرة:

التدوين قد يكون بصفة كلية أو جزئية، يعود ذلك لضياع ما دونه الرحالة، يمثل هذا الصنف: ابن بطوطة.

انطلاقا مما سبق التطرق إليه يمكننا الاعتماد على أربعة منها وهي أكثر الرحلات ذيوعا وشيوعا: الرحلات العلمية، الدينية، الاقتصادية والرسمية [1].

خامسا: فوائد الرحلة وأهدافها:

من فوائد السّفر: رؤية الجديد الممتع، اكتساب الخبرة والعلم النّافع إلى جانب إسعاد النّفس وزوال الهمّ واكتساب الصداقات وآداب المعاملة واللّقاء والمعاشرة يقول الشّافعي [2]:

تغرّبْ عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائـــد:
تَفَرُّجُ هَمٍّ واكتسابُ معيشـــــةٍ وعلْمٌ وآدابٌ وصُحبةُ ماجـــــــدِ
فإن قيلَ: في الأسفار ذلٌّ ومحنَــةٌ وَقَطْعُ الفيافي وارتكابُ الشّدائـــــدِ
فموت الفتى خيرٌ له من قيامِـــه بدار الهوان بين واش وحاسِـــــدِ

وقال أيضا[3]:

ما في المقام لذي عقــلٍ وذي أدبٍ من راحةٍ فَدَع الأَوطانَ واغتـــــرِبِ
سافر تجِدْ عِوَضًا عمَّنْ تُفارِقُـــــه وانصبْ فإنّ لذيذَ العيْشِ في النّصَبِ
إنّي رأيتُ وُقُوف الماء يُفسِـــــدُهُ إن ساح طاب وإن لَمْ يَجْرِ لم يطِـــبِ
و الأُسْدُ لولا فراقُ الأرْضِ ما افتَرَسَتْ والسّهمُ لولا فِراقُ القَوْسِ لمْ يُصِـــبِ
والشّمسُ لوِ وَقَفَتْ في الفُلْكِ دائمــةً لملّها النّاسُ من عُجُمٍ ومن عـــربِ
والتِّبْرُ كالتُّرْبِ مُلْقى في أماكِنِـــــهِ والعودُ في أرْضِهِ نوْعٌ من الحــطَــبِ

---

[1]- ينظر: علي إبراهيم كردي: أدب الرّحل في المغرب والأندلس، منشورا الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د. ط، 2013م، ص ص14- 15.

[2]- محمد إبراهيم سليم: ديوان الإمام الشافعي المسمى: الجوهر النّفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر، د. ط، د. ت، ص ص 62-61 .

[3]-عبد الرحمن المصطاوي: ديوان الإمام الشافعي، دار المعرفة للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت، ط3، 2005م، ص ص27 – 28 .

فَإنْ تَغَرّبَ هذا عزّ مَطْلَبُـــــــــــهُ وإنْ تغرَّبَ ذاكَ عزَّ كالذّهَـــــــــــبِ

إنّ الشّاعر في هذه الأبيات يوجّه رسالة لأفراد المجتمع يحثّهم فيها على السفر بين الحين والآخر حتّى لا يحسّوا بالرّتابة والضّيق، فالحياة لو استمرت على نفس النّسق ونفس الوتيرة لملها العقلاء مشبّها إيّاها بالماء الراكد غير المتجدّد الممتلئ بالجراثيم، في حين إذا كان فيها تغيير فستصبح كالماء الجاري في تجدّده شفاء وعافية. كما نجده يضرب لنا مثلا آخر في السّكون والحركة والمتمثّل في الشّمس، فهذه الأخيرة فيها منافع إلّا أنها لو ظلت مشرقة ليلا ونهارا لكانت سلبياتها أكثر من إيجابيّاتها ولنفر منها البشر، وهنا تكمن قدرة الله سبحانه وتعالى في جعل بعض الأمور تأخذ صفة التّجدّد.

يضيف الشافعي قائلا[1]:

ارحل بنفسِك من أرضٍ تُضام بهـا ولاتكُنْ من فراق الأهل في حُـــــرُقِ
من ذلّ بين أهاليه ببلدتـــــــــه فاغتراب له مِن أحسن الخُلُـــــــــق
والعنبر الخام روْثٌ في مواطنـــــه وفي التغرّبِ محمولٌ على العنُـــــق
والكُحْلُ نوع من الأحجار تنظُـــرُهُ في أرضه وهو مرميّ على الطـــــرق
لمّا تغرَّبَ حاز الفضلَ أجمعـــــه فصار يُحمَلُ بين الجفن والحـــــــدق

في هذه الأبيات يحثّ الفرد على الخروج من الأرض الّتي لاقى فيها الذّل والهوان علّه بذلك يرتفع قدره ويعلو شأنه، ومن هذه الأبيات الشّعرية يمكننا استخلاص فوائد السّفر، وهي كالتالي:

- تفرّج الهمّ والغمّ فالإنسان إذا لازم مكانا واحدا أو طعاما واحدا يصاب بالملل والسّأم منهما، إلى جانب الرّتابة في حياته وضيق صدره و ازدياد همه، أما إذا تغيّرت الوجوه من حوله واختلفت الأجواء عليه فسيذهب همه وينشرح صدره .
- اكتساب الرزق فمن ضاق عليه رزقه في بلده فليشد الرحال إلى بلد آخر.
- تحصيل العلم وخير مثال قطع الصحابة لتلك المسافات الطويلة من أجل سماع حديث واحد، دون أن ننسى فضل طالبه وماله من أجر وثواب.

[1]– المرجع السابق ...، ص87.

- تحصيل الآداب من خلال لقاء الأدباء والعلماء والعقلاء، فباحتكاكه بهم تسموا طباعه وتستقيم أخلاقه، فصحبة الأمجاد في السفر تكسب الفرد كرام الرجال وأطيبهم.
- استجابة الدعوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ثلاثُ دعواتٍ مُسْتجاباتٌ لا شكَّ فيهنّ دعوةُ المظلومِ ودعوةُ المسافر ودعوة الوالدِ على ولَدِهِ" .
- زيارة الأحباب من أهل وأصحاب، فذلك يحافظ على صلة الأرحام.

- الرفع من شأن الإنسان والتخلّص من الذّل خاصّة إذا كان بين قوم يضمرون له الشر ويتصفون باللؤم، فهذا الأخير إذا تغرب حاز الفضل، ومثالنا عن ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم عند هجرته من مكة إلى المدينة ليعود إليها مرة أخرى فاتحا كما أنّ الرّحلات تعدّ << مصدرا هامّا للدّراسات التّاريخية المقارنة خاصّة بالنّسبة للعصور الوسطى، فعلماء الأدب المقارن اعتبروها قسما من أقسام هذا الأدب في تصنيفه الحديث>>[1]. فهي بذلك تحمل قيمة عليا كون أدب الرّحلات يعدّ من أكثر المدارس تثقيفا للإنسان كما سبق أن ذكرنا، يجمع مختلف العلوم فإلى جانب القيمتين السّابقتين- الترفيهية والتاريخية- نجده يحمل قيما أخرى وهي كالآتي:

سادسا: قيم تضمّنتها الرّحلة :

1- قيمة علمية:

تكمن قيمتها العلمية في احتواء معظمها على كثير من المعرفة التي تمت إلى علم الجغرافيا وعلم التاريخ بأوثق الصلات، ففي الرحلات وأدبها صور وافية ومعلومات دقيقة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والسياسية للعرب ومن جاورهم من شعوب إفريقيا وآسيا وشطر من أوروبا: كذكر المعالم الأثرية، والعلاقات الاقتصادية ووصف البلدان والمالك والأصقاع والأقطار والمسالك والطرق وغير ذلك، مما لازال يعتبر حتى يومنا هذا مرجعا أساسيا في دراسة جغرافية هذه المناطق وتاريخها [2] ولما يحمله من دقّة وتحديد

---

[1]- معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب..، ص17 .

[2]- ينظر: نفسه..، ص120.

وضبط. فكما هو معروف أنّ بعض الجغرافيّين والمؤرّخين العرب يعتبرون رحّالين، كونهم يجمعون موضوعاتهم عن طريق الرّحلة. وإلى يومنا هذا لازال العالم الجغرافي والباحث الاجتماعي ينزل إلى ميدان عمله ليرصد بعض الظّواهر الّتي تهمّه، وقد يضطرّ أحيانا إلى الرّحيل، وبذلك كان للرّحالة–خاصة في العصور الوسطى– الفضل الكبير لما قدّموه للبشريّة كجغرافيّين[1]. من خلال جمع أخبار الأمم، واتصال الرّحالة المباشر بالطّبيعة وبالنّاس وبالحياة، فهو يمثّل دور النّاقل للظّواهر وتفسيرها، من خلال وصفه للمسالك والممالك والبلدان والأصقاع وتحدّثه عن الطّبيعة والمناخ و توزيع السّكّان، وكلّ هذا يصبّ في صميم الدّراسات الجغرافية [2] .

2- قيمة دينية:

تتجلّى في التّفكّر في مخلوقات الله وعظمته وقدرته عل تسيير الكون بكلّ ما فيه من كواكب وأجرام ونجوم نستدلّ ونهتدي بها، و كذا خلقه للسّماء بدون عمدٍ، وظاهرة تعاقب اللّيل والنّهار...

3- قيمة أدبية :

تتجلّى قيمتها الأدبيّة في اعتبارها<< نموذجا أدبيّا له القدرة على الوصف الدّقيق والتّعبير الفنيّ الصّادق القائم على أسلوب جميل يعكس لنا قوّة البلاغة في العصر الّذي كتبت فيه >> [3] و فيما تعرض فيها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب وترتقي إلى مستوى الخيال الفنّي، إذ نجد الأساليب متنوّعة فيها من السّرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف، فأدب الرّحلة كما قال شوقي ضيف يصوّر الحقيقة حينا ويرتفع بنا إلى عالم خياليّ حينا

---

[1]– ينظر: حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، ط2 ، 1983 م، ص ص 6– 7.

[2]– نفسه ..، ص 7 .

[3]– عبد الرحمٰن شلش: أدب الرّحلات عند العرب، مجلّة الفيصل،ع 9 ، دار الفيصل الثقافية ، المملكة العربية السعودية، الرياض، ربيع الأول 1398هـ– فبراير/ مارس1978م ، ص121.

آخر[1]. فما رواه الرّحّالة في أحاديثهم ومذكّراتهم ومؤلّفاتهم هو الّذي جعل الرّحلة تأخذ سبيلها إلى عالم الأدب.

[1]– ينظر: شوقي ضيف: الرّحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4، د. ت، ص ص 6–8

الفصل الأوّل

ابن بطّوطة وتجواله في الآفاق

أولا: ابن بطّوطة وكتاب الرّحلة

1- مولده ونشأته

2- رحلاته

- الرّحلة الأولى 725هـ- 751هـ
- الرّحلة الثّانية: 751هـ -هـ752
- الرحلة الثالثة 753هـ-754هـ

3- وفاتـــه

ثانيا: سبب تسميته بابن بطوطة

ثالثا: قصة ابن بطوطة مع الزواج

- زواجه بتونس
- زواجه بالهند
- زواجه بجزائر ذبية المهل
- زواجه بدمشق

رابعا: ابن بطوطة ودوافعه إلى الرحلة

- الدافع الأول: الرغبة في أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة
- الدافع الثاني: عشق ابن بطوطة للسفر منذ الصغر و رغبته في اكتشاف المجهول
- الدافع الثالث: حب المعرفة والرغبة في العلم وحرصه على لقاء المشايخ

خامسا: الأربعة الذين كانوا وراء إنجاز الرحلة:

1- **ابن جزي الكلبي: 693-741هـ/1294-1340م**

2- **أبوعنان المريني: 729-759هـ/1329-1385م**

3- **الوزير فارس بن وردار الحَشَمي**

4- **ابن بطوطة**

سادسا: أهمية كتاب رحلة ابن بطوطة

سابعا: سبب تسمية رحلة ابن بطّوطة بـ: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

أوّلا: ابن بطوطة الرحالة وكتاب الرحلة:

تعدّ رحلة ابن بطوطة من أهمّ المعالم والمصادر التاريخية والجغرافية العربية، من خلالها جعلنا نعيش مغامراته ونطلع على أدق تفاصيل حياته اليومية كما جعلنا نتغلغل داخل المجتمع الإسلامي ونسترجع ذكريات ذلك الماضي القديم ونرى ماذا كان يفعل؟ . كيف كان يعيش؟. ماذا كان يأكل؟. وكيف كان ينظم حياته؟.

ومثل هذه التفاصيل الدقيقة لا نجدها إلا عند ابن بطوطة ونفر قليل من الرحالة والكتاب أمثال<< ابن جبير[1] و المسعودي[2]، فهما يعتبران من أهم أعلام الفكر العربي الإسلامي في عصرهما، أحاطا بالمعرفة إحاطة وافية و تمثلاها تمثيلا صحيحا >>[3]. فأصبحت بذلك رحلة ابن جبير الأندلسي 614 ه ورحلة ابن بطوطة المغربي 677 ه من أشهر كتب الرحلات في القديم، فقد حفظا لنا الشيء الكثير من صور العالم الذي زاراه والمجتمع الذي عاصراه وشاهداه والشخصيات التي تعرّفا بها وعاشا معها. وهي صور وملامح تجرّدت عنها كتب التاريخ التي يدور موضوعها غالبا حول الملوك والأمراء، وحول الأحداث السياسية والحرب والمنافسات والعزل، والنصب وكتب التراجم التي تدور حول العلماء والمشايخ والمناقب و الفضائل[4]. فبوصف ابن بطوطة لمنازلهم وأكلهم وملابسهم

---

[1] - هو<< أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الشّاطبي البلنسي، ولد في 10 ربيع الأول 540 هـ - 1145 م في بلنسية، ينحدر من أسرة عربية عريقة سكنت الأندلس..، بدأ ابن جبير رحلته إلى الأراضي الحجازية في شوال 580 ه رفقة صديقه أحمد بن حسان..، بدأ بتقييد يومياته منذ اليوم التالي لركوبه متن البحر من سبته..، توفي سنة 614هـ -1217 م>> (أعلام الجغرافيين العرب مقتطفات من آثارهم..، ص 409).

[2] - هو << أبو الحسن علي بن الحسين الشّهير بالمسعودي، من أسرة عربية عريقة جدّها الصّحابي الجليل ابن مسعود، أحاط إحاطة تامّة بكلّ التراث الأدبي لعصره وبمختلف نواحي العلوم، بيد أنّ ميله اتّجه فيما بعد اتّجاها صريحا نحو السّياحة والرّحلات بغية طلب العلم وجمع الحقائق الجغرافية و التاريخية، توفي في 346 هـ - 957 م>> (نفسه..، ص309).

[3]- حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة، د. ط، د.ت، ص 125.

[4]- نفسه، ص63.

وطعامهم وشرابهم، وكل ما يتعلق بحياتهم ونظمهم الاجتماعية والدينية وحتى الاقتصادية بأدق تفاصيلها، يكون قد نقلنا معه إلى أماكن ترحاله خلال القرن الثامن الهجري وأحيا ذاكرتها << وفتح أعيننا على عالم من الواقع والسّحر والجمال، وشوقنا إلى التّرحال والسفر من مكان إلى مكان، وجعل من دنيا الله الواسعة كتابا يخلد ذكراه إلى آخر الزمان>> [1].

فمن هذه الشخصية التي استطاعت أن تثبت وجودها رغم من صغر سنها عند اتخاذها قرار شد الرحال لتجوب أصقاع الأرض متجهة نحو المجهول؟. و كيف استطاعت أن تقتحمه وتتحدى كل العقبات والأهوال التي اعترضت سبيلها دون مال كاف يفترض أن تدّخره لتقطع هذه المسافة التي بلغت آلاف الكيلومترات؟. وما الدوافع التي جعلتها تمضي قدما دون التفكير فيما سيعترضها في رحلتها الطويلة التي فاقت ربع القرن كونها دامت تسعا وعشرين سنة ؟. وهل استطاعت أن تحقق ما كانت تصبو إليه وتطفئ نار الشوق لرؤية الدنيا وما فيها؟. ومن كان وراء إنجاز هذه الرحلة التي أصبحت جزءا لا يتجزّأ من التراث الأدبي؟. و من كان له الفضل في خروج هذا الذخر العظيم إلى النور؟.

1- مولده ونشأته:

هو << محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللواتي الطنجيٌ أبو عبد الله بن بطوطة، عاش على عهد دولة بني مرين، ولد بطنجة سنة 703هـ/24 فبراير 1304م>> [2]، من أسرة ميسورة الحال، كانت أسرة قضاء وفقه بالمغرب والأندلس، أخذ العلوم الشرعية عن مشايخ بلده ونبغ بين أقرانه [3].

يقول ابن بطوطة في سياق حديثه : << أنه ينحدر من بيت فقهاء تولى الكثير من أفراده القضاء، ويذكر في أثناء رحلته للأندلس أنه لقي في مدينة رُنْدة[4] أحد أعمامه وكان

---

[1]-عبد الودود شلبي، موسوعة أدب الرحلات: مالا يعرفه المسلمون عن المسلمين في العالم، ج1، مركز الراية للنشر والإعلام، ط 2، 2004 م، ص 4.

[2]- أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"..، ص 559.

[3]- ينظر: الرِّحلُ في المغرب و الأندلس..، ص66.

[4]- رُندة: معقل حصين بالأندلس..، قال السّلفي أبو الحسن سقي بن خلف بن سليمان الأسدي الرُّندي: إنّ رندة حصن بين إشبيلية و مالقة. (ينظر: معجم البلدان، مج 3..، ص73). وهي حاليا تقع جنوب إسبانيا (ويكيبيديا الموسوعة الحرة www.google.com).

قاضيا >>[1] قائلا: << ثمّ خرجت من جبل الفتح إلى مدينة رُندة..، وكان إذ ذاك الشّيخ أبو الرّبيع سليمان بن داود العسكري، وقاضيها ابن عمّي الفقيه أبو القاسم محمّد بن يحيى بن بطّوطة >>[2]. كما يظهر ذلك عند ردّه على عرض ملك الهند الّذي خيّره بين وظائف ليشغلها كالوزارة والكتابة والإمارة والتدريس قائلا :<< أما الوزارة والكتابة فليست شغلي، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي>>[3].

كان مولد ابن بطوطة في عهد السلطان أبو يوسف بن عبد الحق أحد سلاطين الدولة المرينية، وبنو مرين سلالة من البربر حكمت مراكش من سنة 592 هـ- 1195 م إلى سنة 874هـ- 1468م، قامت دولتهم على أنقاض دولة الموحدين فاحتلوا مراكش وغزوا الأندلس، كانت عاصمتهم مدينة فاس وذلك سنة 668هـ-4269 م .هذه المدينة الّتي أسسها إدريس بن عبد الله[4] وابنه وخضعت بعد الأدارسة للأمويين في الأندلس احتلها بربر زناتة، ثم استولى عليها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين[5]، ووقعت بعد ذلك في يد الموحدين، وظلت تحت سلطانهم حتى استولى عليها المرينيون واتخذوها عاصمة لهم، وقد ازدهر بلاطها في عهدهم ولمع فيه أعلام الفكر الإسلامي منهم: لسان الدين بن الخطيب، ابن

---

[1]- ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل..، ص16.

[2]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2 ، تقديم و تحقيق: علي المنتصر الكتاني..، ص 767.

[3]- نفسه..، ص 584

[4]- هو << إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السّلام، أمّه عاتكة بنت عبد الملك بن الحرث، أوّل من دخل المغرب أسّس فيها الدّولة الإدريسية في المغرب الأقصى بعد دولة الأمويين بالأندلس>> ينظر: أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، تحقيق: كاظم المظفر، ط2، 1385 هـ -1965م، ص324- 336 .

[5]- << يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصّنهاجي، وأمّه بنت عمّ أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقين، وكانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجة، واحتفظت بالرّئاسة منذ أن جعلها الإمام ابن ياسين فيها>> (علي محمد الصلابي: فقه التمكين عند دولة المرابطين ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 1427هـ - 2006م، ص 59) .

بطوطة، ابن خلدون وابن جزي الكلبي وغيرهم، كما قام المرينيون بتأسيس جامع القرويين بفاس[1].

ونظرا لأهمية رحلته فُضّل على سابقيه رغم من صغر سنّه، إذ نجد مينورسكي يقول بهذا الشّأن: << وأراني مضطرّا لعبور بعض المراحل بإهمالي الكلام عن علماء أقلّ أصالة من أمثال أبي الفدا وابن سعيد[2] اللّذين عاشا في العصر المنغولي، وهناك معاصر أصغر سنّا من حمد الله المستوفي، وهو ابن بطوطة الذي غطّى على زملائه العرب عن طريق مدى رحلته>>[3]. ويضيف شاكر خصباك مشيدا بإنجازه قائلا: <<حفلت بعض تلك الرحلات بمعلومات أثنولوجية واقتصادية قيّمة، وتعتبر رحلة ابن جبير أفضل نموذج لهذا النّمط من الكتابة الجغرافية، غير أنّ رحلة ابن بطّوطة **تتفوّق** عليها فيما اشتملت عليه من المعلومات عن أقطار آسيا الوسطى والجنوبية و الجنوبية الشرقية>>[4]. وهذا يدلّ على مدى أهمية رحلة ابن بطوطة لاشتمالها على معلومات مهمة وفي غاية الدقة عن الأمصار التي زارها،

---

[1]- ينظر: شمس الدين أبو عبد الله اللّواتي الطّنجي: رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مج1، تقديم وتحقيق: محمد عبد المنعم العريان، مراجعة وفهرسة: مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط1407،1هـ-1987م، ص15.

[2]- هو<< أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي، ولد سنة 610هـ في أسرة عريقة في الحسب والنّسب، كان لأفرادها صلة بالملوك، نال ابن سعيد حظّه من العلم بإشبيلية، عمل لابن جامع وزير الموحّدين بإفريقية، وكان له ابن عمّ هو بدوره يعمل في خدمة الموحّدين، فوقعت بينهما جفوة، خشي ابن سعيد على نفسه من عاقبتها فاستأذن في الرّحيل برسم الحجّ وكان ذلك أوّل خروج له خلالها زار أهمّ مدن جزيرة المغرب، أقام حينا من الدّهر بالموصل وبغداد والبصرة بعد أن تحوّل إلى دمشق، تابع دراسته بمكتبات بغداد ثمّ رحل إلى حلب ودمشق وحجّ مرّة ثانية، ثمّ عاد إلى المغرب، ليعود إلى الرّحلة من جديد إلى الشّرق مارّا بالإسكندريّة وحلب قاصدا أرمينية، وقد توفي ابن سعيد كما تذكر إحدى الرّوايات بدمشق خلال عودته من هذه الرّحلة عام 673هـ، وهناك روايات أخرى ترجّح وفاته في تونس عام685هـ >> (أعلام الجغرافيين العرب" مقتطفات من آثارهم"..، ص ص489-490).

[3]- م .ڤ مينورسكي: الجغرافيون والرحالة المسلمون، ترجمة: عبد الرحمن حميده، ع73، إصدار قسم الجغرافيا جامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ربيع الثاني 1405هـ- يناير 1985م، ص22 .

[4]- الجغرافية عند العرب..، ص14 .

بوصفه لكلّ ما يتعلّق بها من عباد وجماد و حيوان ونبات. معلومات لم تتوفّر عليها كتب الرحلات الأخرى لتصبح مصدرا من المصادر التي يُعتمد عليها، كونه أصبح من أهمّ المؤلّفات العربية التي أثرت الخزانة الجغرافية في القرون الوسطى. إذ نجده يتصدّر قائمة المصادر والمراجع في كتب الجغرافيا وهذا يعكس قيمته الأدبية والعلمية والمعرفية من ذلك << كتاب الجغرافيا والجغرافيّون بين الزّمان والمكان لمحمد محمود محمدين >>[1].

كان ابن بطوطة حافظا للقرآن كما كان على معرفة بعلوم الدين، درس علوم اللغة العربية على يد والده الذي كان أمله أن يصبح فقيها أو قاضيا يسانده ويخلفه من بعده، إلا أنّه آثر خوض مغامرة لم يقدم عليها أحد من قبله في عصره، وهو شد عصا الترحال ليمضي نحو المجهول، نحو طريق شاق وطويل غير مكترث لما سيلقاه من متاعب وأهوال.

طغى لقبه- ابن بطوطة- على الاسم والكنية معا حتى التصق باسمه وكنيته، ليصبح نموذجا للرحالة العرب المشهورين الذين جابوا الآفاق وذاع صيتهم، وغدا كتابه الأكثر شهرة بين كتب الرحلات المعروفة. قال ابن مرزوق أنّه << لا يعلم أحدا جال البلاد كرحلته وكان مع ذلك جوادا محسنا، وهذا الأخير قد برأه بعدما اتهمه البِلفيقي ورماه بالكذب>>[2] .

جاب ابن بطوطة الأرض شرقا وغربا (آسيا، أوربا وإفريقيا)، فقطع مسافة لم يقطعها سائح في العصور الوسطى، حيث قدّرت بنحو مائة وعشرين ألف كلم، وفي مصادر أخرى مائة وخمسة وسبعين ألف كلم، وقد قضى ابن بطوطة ما يقرب من تسع وعشرين عاما في رحلاته الثلاث الكبرى(725-754هـ)[3]، رحلة دامت أكثر من ربع قرن وفي عصر افتقد لوسائل النّقل الّتي لم تتعدّ السّير و الركوب على ظهور الدّواب أو متون السفن.

---

[1]- ينظر: محمد محمود محمدين: الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار الخريجي للنّشر والتوزيع، الرياض، ط2 ،1417هـ- 1996م، ص 433 .

[2]- ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثمانية، ج 3، دار الجيل، بيروت، د. ط، 1414 هـ-1993م، ص480-481 .

[3]- ينظر: فهمي توفيق محمد مقبل: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوربية الفكر الجغرافي نموذجا، جامعة البترا، 1430هـ- 2009 م، ص 37 .

كان ابن بطوطة تقيًّا، ورعًا، محبًّا للعلم والعلماء والأولياء وذوي الكرامات، شديد الولع بالتجوال والتنقل بين البلدان ومشاهدة العباد، أمّا الحج فكان لذّته وكان يعود للرحلة من جديد بعد آدائه. فأول خروج له نحو بيت الله الحرام كان في الحادية والعشرين من عمره ولم تكتمل دراسته بعد، كما خرج خالي الوفاض لا يملك إلا بضعة دنانير إلّا أنّه << لم يشك طول رحلة التي زادت عن ربع القرن **مسغبة***، ولا هو اضطر إلى التصعلك أو **الكدية****، بل سار على سمته شيخا كريما على نفسه وعلى الناس، قانعا بالمبيت في الزوايا وبما يقدمه القَوَمَةُ عليه من طعام بسيط، أكثره الثريد وشيء من التمر>>[1]. فحبه الشديد للسفر جعله يتحدى كل العقبات غير مكترث لما سيلقاه، وإنما أقبل على السير معتمدا على نفسه، لم يكل ولم يمل في سبيل الوصول إلى مبتغاة، كما كان سريع التأقلم مع الأوضاع وتمكّن من التعايش مع أفراد سائر الأمصار.

تظهر قوته البدنية في تحمله للأمراض وقدرته على الصمود غير مستسلم لها، فخلال رحلته أصيب ببعض الأمراض التي كادت تودي بحياته أثناء رحلته، إلا أنه لم يتوقف يوما عن المسير نحو الأمام ممتطيا دابته مصرّا على المضيّ قدما راكبا الأهوال والمخاطر رافضا الركون إلى الراحة .

من ذلك إصابته بالحمّى في بداية رحلته عند وصوله إلى مدينة بجاية إذ نجده يشير إلى ذلك ويظهر ذلك في قوله: << ولما وصلنا إلى بجاية أصابتني الحمى، فأشار علي أبو عبد الله الزبيدي بالإقامة فيها حتى يتمكن البرد مني فأبيت وقلت: إن قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتي بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز>>[2] ، فضّل حينها الموت في ذلك المكان على أن يموت في دياره. كما أصيب بها لمّا فرض عليه الوزير التلمدي التزوج من

---

*مسغبة: الجوع مع التعب.

**الكدية: حرفة الشحاد.

[1]– المرجع السابق..، ص14 .

[2]– شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي: رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج1، تقديم وتحقيق: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المغرب، د. ط، 1997م، ص32 .

ابنته الأرملة التي توفي زوجاها قبل الدخول بها وذلك في جزائر ذبية المهل إلّا أنه لم يستسلم للمرض يوما بل زاده ذلك إصرارا على مواصلة رحلته.

كما تعرض للموت مرات من ذلك قصته مع سلطان الهند محمد بن تغلق الذي عينه قاضي المذهب المالكي، وهذا الأخير أمر بمعاقبته عند عودته من سفره بعد أن غضب عليه لكن في آخر المطاف عفا عنه، إذ نجد ابن بطوطة يروي لنا أحداث هذه القصة فنجده يقول:<< وكان ما هم به السلطان من عقابي أني ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين بن الشيخ الجام* بالغار الذي احتفره خارج دلهي، وكان قصدي رؤية ذلك الغار. فلمّا عاد السلطان سأل أولاده عمن كانوا يزوروه، فذكروا أناسا أنا من جملتهم، فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمتي بالمشور، وعادته أنّه متى فعل ذلك مع أحد قلما يتخلص. فكان أوّل يوم من ملازمتهم لي يوم الجمعة، فألهمني الله إلى تلاوة قوله**(حسبنا الله ونعم الوكيل)**، فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين ألف مرّة، وبتّ بالمشور وواصلت إلى خمسة أيام – أي أنه واصل صيامه خمسة أيام – في كل يوم منها أختم وأفطر على الماء خاصة ثم أفطرت بعد خمس وواصلت أربعا، وتخلّصت بعد قتل الشيخ والحمد لله >>[1]. فهذا السلطان عرف بعقوباته القاسية من ذلك قتله لثلاثمائة وخمسين رجلا في ساعة واحدة كان متعطشا لإراقة الدماء حتى أخاه لم يسلم منه وقطع رأسه، فكلّ من كان يُتّهم في تلك البلاد كان يفضّل الموت على أن يعذّب خوفا من عقوباته القاسية ومن بطشه وجوره. فكلّ تلك الأحداث التي عاشها ابن بطوطة في تلك الفترة جعلته يكرس كل وقته بعد نجاته لخدمة الشيخ والإمام العابد الزاهد كمال الدين عبد الله الغاري الذيكان من الأولياء وذوي الكرامات، كما وهب كل يملكه للفقراء

---

*وما ذكر عن هذا الشيخ – شهاب الدين– أنّه كان كثير الشرب إلّا أنّه عاد إلى الله وعقد التوبة، وتوبته كانت سببا في توبة أصحابه الذين كانوا يجتمعون معه في ليالي السّمر وتفرّغوا لعبادة الله سبحانه وتعالى، وظهر لهذا الشيخ الكثير من الكرامات ليصبح من كبار الصلحاء والفضلاء، أمر السلطان بقتله لأنّه رفض خدمته وكذا لتجرّئه حين نعته بالظالم، وبعد مساءلته لم ينكر قوله مذكرا إياه بجرائمه الشنيعة وظلمه وطغيانه وجبروته (ينظر: عبد الحي بن فخر الدين الحسني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمّى" نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنّواظر"، ج2، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ص165) .

[1]– نفسه ج2..، ص603 .

والمساكين. حتى ثيابه استغنى عنها واستبدلها بثياب فقير، وابتعد عن الدنيا وملذاتها وشهواتها وتفرغ لعبادة الله وحده ليكون بذلك من الزّهّاد وإن لم نقل من المتصوّفين، ليستدعيه السلطان بعد ذلك طالبا منه العودة لخدمته، إلا أنّ ابن بطوطة رفض وأبى خاصة وأنه نجا من الموت بأعجوبة.

أمّا فيما يخصّ الجانب المعرفي فقد كان شديد الاهتمام بكل ما يتعلق بأمور الدين وحريصا على الالتقاء بالأولياء الصوفيين ومعرفة الفقهاء والزهاد والمتعبدين شأنه شأن بقية الرحالة لاستكمال دراسته، إذ نجد رحلته حافلة بأسماء شيوخ ذوي كرامات وخوارق. كما تميّز بدقّة الملاحظة حيث عُني بتعداده للمساجد وقببها وأبوابها، ومثالنا عن ذلك وصفه لمدينة لاذق التي قال عنها أنها من أبدع وأضخم المدن، تحتوي على سبعة مساجد لإقامة الجمعة وأشار إلى عدم وجودها في مدن أخرى. حتّى الأطعمة والحمامات نالت حظها من الوصف ولم يستثنها، كما قام بمراقبة الأسعار مقارنا إيّاها بأسعار بلده لم يترك شيئا إلاّ وذكره، وهنا تكمن أهمّية رحلته الّتي اشتملت على الكثير من الوصف وذكر أسماء الأشياء التي تنوعت من بلد إلى آخر.

لم يهمل ابن بطوطة طباع البلدان بل أعطاها حقها من الوصف من ذلك النظافة، ويظهر ذلك عند وصفه لسوق مدينة ظفار فنجده يقول: << ومدينة ظفار في صحراء لا قرية بها ولا عمالة لها والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء، وهي من أقذر الأسواق وأشدها نتنا وأكثرها ذبابا لكثرة ما يباع بها من الثمرات، وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين>>[1]. ويظهر ذلك أيضا عند وصفه لسوق بمدينة كبيرة في بلاد السواحل تدعى مدينة زيلع[2] مدينة البرابرة تضم طائفة من السودان، يقول عنها أنها مدينة كبيرة لها سوق عظيمة إلا أنه اعتبرها أقذر مدينة بالمعمورة، وسبب نتانتها كثرة سمكها ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقة، حينها آثر المبيت في البحر على شدة هوله على المبيت بها لقذارتها[3]، فانتقاده يعكس حرصه الشديد على النظافة ودقة ملاحظته إذ كان يتعجّل الخروج من

---

[1]– المرجع السابق ج1..، ص285.

[2]–<< قال ابن الحائك: ومن جزائر اليمن جزيرة زيلع فيها سوق يجلب إليه المعزى من بلاد الحبشة فتشترى جلودها ويرمى بأكثر مسائحها في البحر>>(معجم البلدان، مج3..، ص164) .

[3]– ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج1..، ص279 .

مكانين: المدن غير النظيفة وكذا المدن التي تكثر فيها الفتن كعاصمة الصين"خان بالق " التي لم يبق بها طويلا ، حيث اضطر مغادرتها على عجل سالكا طريق العودة إلى الزيتون بعدما وجد سفينة حملته إلى سومطرة[1] .

تولى القضاء وهو في مقتبل العمر، عيّن قاضيا لأوّل مرّة في الرّكب المتّجه إلى الحجاز وكان ذلك في مدينة تونس كما تولاه في العديد من المناطق والبلدان التي زارها من ذلك الهند بدلهى، شغل بها هذا المنصب مدة خمس سنوات خلالها تلقى الحظوة لدى السلطان محمد بن تغلق، كما لعب دور السفير كونه ترأس وفدا ذاهبا إلى الصين بأمر من السلطان ليبعث معه هدية لملكها، ومن خلال توليه هذا المنصب بيّن لنا مكانة القضاة في بعض البلدان فعلى سبيل التمثيل في بلاد الأتراك كانوا ثاني طبقة مقربة من السلاطين.

إنّ شخصية ابن بطوطة مستقاة من رحلته، أي أنّ سيرته الذاتية مأخوذة من رحلته بحد ذاتها، فبعد عودتنا إلى مختلف المصادر والمراجع المعتمدة في البحث لم نجدها تخرج عن نطاق ما ذكره في رحلته بالتحديد فيما يخصّ حياته الشخصية وكل ما يتعلق بأسرته. لم نجد ذلك في رحلته فحسب. حتى في كتب التراجم لم يُعط حقه من الوصف سواء هو أو عائلته، فالمعلومات الّتي تتعلّق به جد محدودة من ذلك ما ورد في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة المجلد الثالث للسان الدين بن الخطيب، حيث أوجز حياته في بضعة أسطر[2] مقارنة بالرحالة ابن جبير الذي أفرد له تسع صفحات وذلك في جزئه الثاني[3].

هناك من يرجع ذلك كون عائلة ابن بطوطة من العائلات البسيطة وغير المشهورة، أما بالنسبة له فهناك من يرجع ذلك لعدم تعلقه بعائلته كونه خرج في سن مبكر، و هناك من يرجع ذلك لندرة التأليف والتدوين- في العصر المريني-<< فالعالم الرواية المحدث الباحث المحقق أبو عبد الله بن عبد الملك رحمه الله يقول: كان بفاس من الفقهاء الأعلام الأجلة أعيان الأنام ما ليس في غيرها من بلدان الإسلام، إذ هي قاعدة المغرب ودار العلم والأدب،

---

[1]- ينظر: المرجع السابق ج2..، 740-741 .

[2]- ينظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مج3، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1395هـ-1975م، ص273 .

[3]- ينظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مج2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1،1394هـ-1974م، ص ص 230 – 239 .

لكن أهلها أهملوا ذكر محاسن علمائها وأغفلوا تخليد مفاخر فقهائهم >>[1]. فالمحقق يرجع هذا التقصير لعدم إعطاء العالم والفقيه بصفة عامة حقّه من الاهتمام بعدم الإشادة بأعماله المنجزة والمحقّقة التي تجعل من صاحبها مفخرة بين الأدباء والعلماء والفقهاء، وليس ذلك فحسب بل قد يكون هو السبب في ذيوع صيته وسطوع نجمه في السماء بذكر مناقبه ومحاسنه وجليل أعماله. ولربّما كان ابن بطوطة من بين هؤلاء الّذين لم يعط حقهم من التعريف، وذلك بالوقوف مطوّلا على سيرته الذاتية التي تعتبر زادا معرفيا نثري به مكتباتنا، وتجعلنا نتعرّف أكثر على هذه الشّخصية التي أصبحنا لا نفقه عنها شيئا سوى ما قدّمه لنا في كتابه وما ورد في كتب التراجم، وهذه الأخيرة لا تسمن ولا تغني من جوع، وكأنّ حياته انتهت بانتهاء رحلته، فلو لم يضمّن تلك المعلومات في كتابه ولو لم يعتبر نفسه جزءا لا يتجزّأ منها لأصبح هذا الرحالة الأسطوريّ مجهول الهوية.

فما ورد في كتابه قد أعطانا فكرة عنه من يوم خروجه من طنجة إلى أن استقبله سلطان المغرب أبو عنان المريني، لكن تبقى بعد هذا نحو ثلاث عشرة سنة من حياته ظلت تفاصيلها غائبة عنا لم نعرف عنها شيئا، لا عن أهله ولاعن نسله سوى أنه زاول القضاء في إقليم نمسا في مملكة فاس[2].

وابن بطوطة بدوره لم يفصل ولم يتوسع في ذلك، فمثلا عند تلقيه خبر وفاة والده وابنه لم يعلق ولم يبد شعوره واكتفى بذكر استقصائه أخبار والديه وابنه دون أن يعلق على ذلك، ويظهر ذلك في قوله: << فحين وصولي إلى دمشق في هذه الكرة– بعد غيابه عنها عشرين سنة– لم يكن لي هم إلا السؤال عن ولدي فدخلت المسجد، فوقف لي نور الدين السخاوي إمام المالكية وكبيرهم، فسلمت عليه فلم يعرفني، فعرفته بنفسي وسألته عن الولد، فقال "مات منذ اثني عشر سنة"، وأخبرني أن فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية، فسرت إليه لأسأله عن والدي وأهلي، فوجدته شيخا كبيرا، فسلمت عليه وانتسبت له، فأخبرني أن والدي توفي منذ خمس عشرة سنة، وأن الوالدة بقيد الحياة، وأقمت بدمشق

---

[1]– أدب الرحلة بالمغرب في العهد المريني، ج1 ..، ص 55 .

[2]– ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، تقديم وتحقيق : عبد الهادي التازي ..، ص80 .

الشام بقية العام>>[1] ، لينتقل مباشرة إلى الحديث عن أسعار الخبز ومقارنتها بأسعار بلاده المغرب دون أن يبدي أي تأثر أو تأسف لفقدانهما.

وبشأن وفاة والدته نجده يقول: << ووصلت إلى مدينة تازى – وهي مدينة من تأسيس المغاربة –، وبها تعرفت خبر موت والدتي بالوباء رحمها الله تعالى>> [2]. لا تعليق على خبر الوفاة إذ نجده يكتفي بالترحم عليها دون أن يصف شعوره وحزنه لفقدانها، قيل أنّه لم يزر قبرها إلا بعد مثوله أمام السلطان أبي عنان في فاس.

2- رحلاته:

❖ الرحلة الأولى725هـ- 751هـ:

وهي أطول رحلاته، كانت انطلاقته من مدينة طنجة بالمغرب العربي، وكان ذلك سنة 725هـ-1325م قاصدا الحجاز لزيارة بيت الله الحرام في مكة المكرمة لآداء فريضة الحج مارا بالجزائر وتونس وطرابلس (الغرب) ومصر، عابرا البحر الأحمر إلى أرض الشام وفلسطين واليمن، ليعود إلى بلاده مارا بالعراق. خلالها اغتنم الفرصة وجال بلاد إيران والجزيرة وشرق إفريقيا وتركيا وبلاد التتار والقِرم أو القريم حوض الفولغا والقسطنطينية و خوارزم وبخارى وتركستان وأفغانستان والهند وجزر المالديف، ومنها توجه إلى بلاد الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال أقاصي الهند ليعود إلى بلاد العرب عن طريق جزيرة سوماطره، ليصل إلى نقطة انطلاقه المغرب – فاس- [3].

❖ الرحلة الثانية:751هـ -هـ752:

بعد عودته إلى فاس لم يبق بها طويلا وقرر شد عصا الترحال للمرة الثانية قاصدا الأندلس، فتنقل فيها من بلد إلى آخر زار فيها رنده، مربلة، مالقه، وغرناطة[4].

---

[1] – تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2..، ص764 .

[2]– نفسه..، ص758.

[3]– نفسه ج1،ج2..، ص ص 30-758.

[4]– نفسه ..، ص ص 766 – 769 .

❖ الرحلة الثالثة 753هـ-754هـ:

كانت هذه الرحلة آخر رحلة يقوم بها وهي لا تقلّ أهمية عن الرحلتين السابقتين، طاف فيها إفريقيا المدارية والاستوائية الإسلامية وصولا إلى السودان الغربي، وكان بذلك أول من جاب الصحراء الإفريقية الكبرى ووصف مشاهداته فيها[1].

فكلّ هذه الرحلات التي سبق ذكرها هي رحلات دوّنت بعد تجربة إنسانية حقيقية واقعية تمّت في إطار زماني ومكانيّ محدّد، فهي بذلك جزء أصيل من حياة المجتمعات الإنسانية المتباينة بمختلف فئاتها، أي أنّها انبنت على وقائع تاريخية وسياسية واجتماعية حقيقية. دراسته كانت دراسة ميدانية وصفية تحليلية لطريقة وأسلوب الحياة لتلك الشعوب والأماكن التي زارها ولكل ما يتعلّق بثقافتهم المادية المختلفة، ولم يكتف بهذا بل كان يعقد مقارنة بين بلاده والبلدان التي زارها فيما يخص الجودة والأسعار والعادات. فهذه الرحلة تمثّل بمفهوم آخر: " إثنوغرافيا الرحّالة ابن بطوطة خلال القرن الثامن الهجري"، متناولا أدقّ تفاصيلها انطلاقا من المشاهدة المباشرة والحيّة، وهذه المعلومات أصبح يعتمد عليها في علم الجغرافيا والتاريخ، خاصة الجانب الجغرافي منها، وهذا الأخير كان له الدور الكبير في تحديد المسالك والممالك بدءا من يوم خروجه انتهاء بآخر محطة حطّ بها عصا الترحال.

وهذا الذّخر لم يفقد بريقه حتّى بعد مرور زمن بعيد بل سمت قيمته وعلا شأنه وغدا من النّفائس التي يصعب العثور عليها إلّا بعد جهد وشقاء، إذ تعتبر بذلك رحلته مستودعا ثريا لتجربة إنسانية لم تخل من المخاطر والمشقات والعقبات، فقد أصيب بالمرض تارات وواجه الموت عدّة مرات، حزن لفقدان بعض الزّوجات كما حرم من فلذات أكباده ذكورا وبنات. كلّ هذا وهو بعيد عن الأحباب فلا مفرّج لهمّه ولا مساند له في محنته، إلّا أنّه استطاع أن يجاوز العقبات غير مستسلم للأهوال والمخاطر. برحلته <<استطاع أن يميط اللثام وللمرة الأولى عن كثير من طقوس الشعوب وطبائع الأمم ونُظُمها المختلفة، في وقت كان فيه علم الاجتماع متداخلا مع علم التاريخ، ومتصلا بعلم الجغرافيا وعلم الإنسان، فإن رحلة ابن بطوطة قدمت فصولا متعددة الأوجه وجمة المنافع العلمية، كل من هذه الحقول المعرفية

[1]- المرجع السابق ...، ص ص 776-798.

هيأت لاحقا مادة ذات فائدة مهمة، ومصدرا متقدما من مصادر علم الاجتماع وعلم الإنسان في حوار ثقافات الشعوب والأمم المختلفة>>[1].

التقى خلال رحلته العلماء والفقهاء ورجال الدين، أخذ عن القضاة وأفاد آخرين وتحدّث إلى الملوك ونال حظوة لديهم، قرّبوه إليهم وأجزلوا عليه بالعطايا، حيث لعب دور المصلح حينا ودور القاضي حينا آخر.

<< ولما رجع إلى المغرب حكى بها أحواله ودوّن مشاهداته عن طريق الإملاء في فاس سنة 754هـ >> [2]، بأمر من سلطان فاس أبو عنان المريني وهو أحد ملوك الدولة المرينية في المغرب بعد أن رواها عليه حين استقر عنده، إلا أنه لم يقم بتدبيج هذه التجربة الثرية بخط يده بل دوّنها الكاتب المحترف: محمد بن جزي الكلبي. << ولا يزال مخطوط ابن جزي محفوظا في المكتبة الوطنية في باريس >>[3] وقد نشر هذا الإنجاز العظيم<< للمرّة الأولى عام1853م مع ترجمة فرنسية للمستشرقين: الفرنسي شارل فرانسوا ديفريمري، والإيطالي سانجينيتي>> [4] .

فهذا الرحالة استطاع أن يثبت وجوده ليصبح في الطليعة شأنه شأن المسعودي وابن جبير. إذ يعتبر هذا الكتاب من أشهر كتب الرحلات في القديم، سجل فيه الخواطر والانطباعات والمغامرات بالتفصيل و بشكل مستفيض، <<وهي صور وملامح تجردت عنها كتب التاريخ الذي يدور غالبا – في الشرق– حول الملوك والأمراء وحول الأحداث السياسية والحرب والمنافسات>>[5] . فهو يعتبر من أمجاد المغرب، الرحالة الأسطوري، رحالة العرب والعجم، تعدّ رحلته اليوم هي الأولى في تاريخ البشرية جمعاء، وصل بيت المقدس 725هـ–1325م في عصر سلاطين المماليك حيث زار المسجد الأقصى أكثر من مرة، فوصف مكة

---

[1]– محمد مظلوم: ابن بطوطة ورحلاته، مجلة: كتاب في جريدة ،ع 97، إصدار منظمة اليونسكو، الأربعاء 6 يوليو(سبتمبر)1996م، ص3.

[2]– ينظر: المعجم المفصل في الأدب، ج1..، ص20 .

[3]– الجغرافيون والرحالة المسلمون..، ص23 .

[4]– ابن بطوطة ورحلاته، مجلة: كتاب في جريدة ،ع97..، ص3.

[5]– أبو الحسن علي الحسني الندْوي: نظرات في الأدب، دار البشير للنشر والتوزيع، ط2، 1418هـ–1997م، ص63.

المكرمة والمدينة وكذا القدس والخليل وما أراده من ذاك الوصف نقل الصور إلى المغرب كي يسعد المواطنون بتخيّلها[1] . وبذلك يكون الحج قد أتحف الجغرافية العربيّة بالعديد من الرّحّالة الّذين أضافوا برحلاتهم ثروة نفيسة إلى جغرافية العصور الوسطى وعلى رأسهم ابن بطّوطة.

وقبل أن يتخذ قرار شدّ عصا الترحال كان قد وقف على أخبار الرحالة السّابقين، فأثارت عنده ملكة مشاهدة أقاصي البلاد، إلّا أنّه تفوّق عليهم واحتلّ مركز الصّدارة بينهم بفضل ثقافته الدينية الواسعة، كما فتح له تديّنه وعلمه الغزير قلوب الغير أينما حلّ[2].

كان شغله الشاغل حينها رؤية أحوال وأصناف الناس والغرائب التي كانوا يصنعونها، فرحلته هذه كشفت لنا أسرارا كثيرة عن لبلدان الّتي زارها، إذ يعد أول من كتب شيئا عن العملة، حيث كان يستعمل ورق الكاغد في الصين كعملة للبيع والشراء ولا يقبل غير ذلك. حتّى قطع الذهب والفضّة كانت لا تأخذ منهم إلّا بعد تصريفها واستبدالها بالورق المستعمل عندهم فنجده يقول: << وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم، وجميع ما يتحصّل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا..، وإنّما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد، كلّ قطعة منها بقدر الكفّ، مطبوعة بطابع السّلطان، وتسمّى الخمس والعشرون قطعة منها **بَلِشت**، وهي بمعنى الدينار عندنا وإذا تمزّقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السّكّة عندنا، فأخذ عوضها جددا ودفع تلك، ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها، لأنّ الّذين يتولّون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السّلطان، وقد وُكل بتلك الدّار أمير من كبار الأمراء. وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضّة أو دينار يريد شراء شيء، لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه حتّت يصرفه بالبالشت ويشتري به ما أراد>>[3] .

---

[1]- ينظر: عبد الهادي التازي: القدس والخليل في الرحلات المغربية "رحلة ابن عثمان نموذجا" منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسيسكو، د. ط ،1418هـ-1997م، ص ص14-15.

[2]- نفسه..، ص8.

[3]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2..، ص719 .

3- وفاته:

<< توفي بمدينة طنجة عام779هـ- 1377م>>[1]، وعند زيارة المغرب اليوم نجد بنفس المدينة طريقًا باسمه :"درب ابن بطوطة"، حيث كان يعيش، وبالقرب من سوق طنجة نجد ضريحه الذي قيل أنّه دفن فيه مخلفا وراءه كتابه الوحيد والشهير: رحلة ابن بطوطة: المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. فهو<< رحالة الإسلام دون منازع، وهو واحد من أولئك الأفذاذ الذين فطرهم الله على السعي الدائب نحو المعرفة والكشف عن ستر المحجوب وتحمل المشاق وركوب الأخطار في سبيل المعرفة >>[2].

رحلته معروفة ومتداولة تحمل في طياتها مغامرات حافلة بالمعلومات الصادقة الدقيقة بالإضافة إلى ما فيها من الغرائب والطرف. << راويها رجل صدوق لا يتكلف شيئا في أحاديثه، بل كان هو نفسه لا يفكر في تسجيل رحلته لولا أن الناس ألحوا عليه في ذلك ولولا أن سلطان بلده وهو الحادي عشر من سلاطين بني مرين 749-759/1348-1385 طلب إليه تدوين الرحلة. فعهد السلطان إلى وزير من وزرائه من أهل الأدب والاهتمام بأدب الرحلات وهو أبو عبد الله بن جزي وكلفه أن يعيد صوغ ما يملّيه ابن بطوطة من حديث رحلته. فجعل ابن بطوطة يسرد وابن جزي ينقح ويصوغ، وأضاف إليه بعض ما لديه من حديث عن البلاد ، وخاصة بلاد الحجاز والأراضي المقدسة والشام >>[3]. حيث بلغت رحلاته للأرض المقدسة أربع مرات وله سبع حجّات، وصام بها ثلاث رمضانات و خلالها وصف لنا المدن ومعالمها وهذا ما لم يتيسّر لغيره، وهو ما ضرب به ابن بطّوطة الرّقم القياسي فلا أحد من الرّحالة ممّن قصدوا الحجاز استطاع أن يكتب مثل ما كتبه ابن بطوطة عن مكّة المكرّمة كمّا وكيفا [4].

---

[1]- أعلام الجغرافيين العرب" مقتطفات من آثارهم"..، ص 560 .

[2]- ابن بطوطة ورحلاته " تحقيق ودراسة وتحليل" ..، ص11 .

[3]- نفسه..، ص ص11-12 .

[4]- ينظر: رحلة الرحلات: مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1..، ص 138 .

ثانيا: سبب تسميته بابن بطوطة:

إن اسم ابن بطوطة ليس جزءا من اسمه وإنما شهرته، ومازال ذلك الاسم معروفا إلى يومنا هذا في المغرب. وبعد اطلاعنا على مختلف المصادر التي تناولت سيرته الذاتية، لم نعثر على معلومة تبيّن أو تذكر لنا سبب تسميته بهذا الاسم سوى ما ورد في كتابه الذي قدمه عبد المنعم العريان في جزئه الأول، وفي طبعة أخرى لعبد الهادي التازي إذ نجد هذا الأخير يقول:" ويبدو أن الأسرة تنسب إلى سيدة كانت تحمل اسم فاطمة: عادة معروفة من القديم، تنسب الناس إلى أمهاتهم ، وتتحول فاطمة في المشرق– تدللا – إلى بطة ، ونحن نعرف عن ابن بطة العُكبري (ت387) وتمسي بطة في المغرب بطوطة كسفودة على ما في تاج العروس للزبيدي (فصل الباء من باب الطاء)>>[1]

كما نقل لنا عبد المنعم العريان ما سمعه بشأن تسميته في هذه العبارة: <<ويقال أن اللقب الذي اشتهر به ابن بطوطة ليس خاصا به، بل كانت تلقب به أسرته، ويستفاد مما ذكره في جزئه الثاني أن قاضي رُندة الفقيه أبا القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة هو ابن عمه، ويظهر أن هذا اللقب ظل يطلق على أفراد هذه الأسرة على توالي أجيالها>> [2].

لكن إذا عدنا إلى لسان العرب لابن منظور لوجدنا هذه اللفظة تدل على الشيء العجيب وهي مشتقة من بطط .<< و البطيط: العَجب والكذب، يقال جاء بأمر بطيط أي عجيب قال الشاعر:

أَلمَّا تعْجبي وتريْ بطيطا من اللّائين في الحقب الخوالي>>[3].

---

[1]– رحلة الرحلات: مكة في مائة رحلة مغربية و رحلة، ج1..، ص80.

[2]– رحلة ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتحقيق عبد المنعم العريان، مراجعة وفهرسة: مصطفى القصاص..، ص14 .

[3]– أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، مج 7، دار صادر، بيروت، د. ط، د.ت، ص262 .

<< فمن الممكن الاقتصار على دلالة الكلمة في الإتيان بالعجائب لتصير كلمة "بطّوطة" على صيغة المبالغة بالتشديد تعني أن ابن بطوطة هو مصدر للعجائب>>[1].

ثالثا: قصة ابن بطوطة مع الزواج:

عرّفتنا رحلة ابن بطّوطة على الكثير من الشّخصيات ؛ سلاطين أمراء وزراء وأعلام، بالمقابل لم يغفل عن إبراز دور المرأة التي كانت ملازمة لذاكرته فلا نجد رحلة من رحلاته يستثنها أو يقصّر في ذكرها سواء كانت سلطانة أم زوجة أم جارية. فهي بدورها أعطاها الحق من الوصف، وفي فصلنا هذا نقتصر على المرأة الزوجة عند ابن بطوطة.

تحدّث ابن بطّوطة في رحلته عن زيجاته العديدة في مختلف البلدان التي زارها، إلّا أنّنا نستغرب من عودته لبلاده بعد انتهائه من رحلاته دونهنّ ودون أولاد يستأنس بهم، يجد الراحة بمجالستهم بعد استقراره لينسى بذلك ماعاناه خلال رحلاته.

فبالرّغم من تعدّد زوجاته وجواريه كما سبق وأن ذكرنا إلّا أنّه في آخر المطاف لم يحض بابن أو زوجة تواصل معه بقية حياته، وهو بدوره لم يشر إلى ذلك. حتّى التراجم التي تناولت سيرته الذاتية تفتقد لمثل هذه المعلومات، فمن خلال عودتنا لكتابه بجزأيه نلاحظ أنّ معظم زوجاته كنّ يرفضن الابتعاد عن الديار أو بسبب القوانين الّتي كانت تمنعهنّ من ذلك، أمّا الأبناء فهناك من مات وهناك من فقد ولم يرزق بهم من الزّوجات فقط بل حتّى من الجواري. وبالنسبة للجواري نجده يشير إلى أنّه كانت له جارية قد قاربت الولادة، وكان ذلك بعد خروجه من بخارى حيث وضعت مولودها في بلدة ينسب إليها الشيخ أبو تراب النخشبي، حيث نجده يقول: << فنزلنا بخارجها بدار لأميرها، وعندي جارية قد قاربت الولادة، وكنت أردت حملها إلى سمرقند لتلد بها..، فوضع الحمل >>[2]. لكنّه لم يصطحبها معه بعد وضعها، بل سافر مع مجموعة ممن كانوا معه وكان ذلك ليلا، أمّا هو فقد رحل نهارا مع البقية إلّا أن كلا منهم سلك طريقا مغايرا، ليتلقّى خبر وفاة ابنته بعد شهر ونصف من وصوله إلى الهند

---

[1]- شادي حكمت ناصر: ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة: نسيج الواقع والخيال، مخطوط رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، 2003 م، ص25.

[2]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص410 .

كان عمرها دون السّنة، دفنت هذه الأخيرة بزاوية بناها الوزير خارج دروازة بالم بالقرب من مقبرة الشيخ إبراهيم القنوي [1].

❖ زواجه بتونس:

أشار ابن بطوطة في بداية رحلته أنّه تزوّج من تونسيّة، بنت من بنات أمناء تونس لكنّه لم يسهب ولم يفصّل ولم يعطنا فكرة عن زوجته سوى أنّه بنى عليها بطرابلس. لم تكن حاضرة في رحلته لم يذكر لنا صفاتها ولا سبب ارتباطه بها، لكن سرعان ما ساءت الأمور بسبب خلاف وقع بينه وبين صهره أدّى به إلى الانفصال عنها، وكان ذلك بعد أن تجاوزوا قصر برصيصا العابر إلى قبّة السّلام ويظهر ذلك في قوله: << وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس، فبنيت بها بطرابلس ثمّ خرجت من طرابلس أواخر شهر محرّم من عام ستّة وعشرين ومعي أهلي وفي صحبتي جماعة من المصامدة*، وقد رفعت العلم وتقدّمت عليهم، وأقام الرّكب في طرابلس خوفا من البرد و المطر. و تجاوزنا مسلاتة ومسراتة وقصور سرت، وهنالك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا، ثمّ صرفتهم القدرة وحالت دون ما راموه من إذايتنا ثمّ توسّطنا الغابة، وتجاوزناها إلى قصر برصيصا العابر إلى قبّة السّلام وأدركنا هنالك الّذين تخلّفوا بطرابلس. ووقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق بنته>>[2]. ويضيف قائلا: << وتزوّجت بنتا لبعض طلبة فاس* أي بمغربيّة، وبنيت بها بقصر

---

[1]– ينظر: المرجع السابق ج2..، ص 577 .

*<< هم رجال بأقصى المغرب لهم بلاد كثيرة يقال لها بلاد المصامدة وهم قوم سود طوال حافظون لكتاب الله تعالى، ولا يتزوّج واحد منهم مالم يحجّ ومن أهل بلاد المصامدة جماعة كثيرة من أهل العلم>> (ينظر: أبو سعد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني: الأنساب، ج5، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي ، دار الجنان، بيروت، لبنان، ط1 ،1408هـ-1988م، ص ص 309) .

[2]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص 34.

*الطلبة هم << طلّاب العلم وصغار الفقهاء، تدفع لهم الدّولة الموحدية رواتب لأنهم كانوا يقرؤون ويحفظون كتب محمد بن تومرت مهدي الموحدين >> (رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار: شرحه وكتب هوامشه: طلال حرب، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1423هـ-2002م، ص 36).

الزّعافية– بعد مدينة سرت بقليل من الجمهورية الليبية– ، وأولمت وليمة حبست لها الرّكب يوما وأطعمتهم >>[1].

انطلاقا ممّا سبق ذكره على لسان ابن بطوطة وجدناه يصرّح بزواجه الأوّل دون أن يذكر المقاييس التي كان يعتمدها في اختيار زوجته ودون أن يصرّح مدّة ارتباطه بها ودون أن يصف حالته الشعورية كتألّمه أو تأسّفه من عدمه على مفارقته وانفصاله عنها. لينتقل إلى الحديث عن زواجه الثّاني وعلى ما يبدو المدّة بين طلاقه وزواجه أيضا كانت قصيرة جدّا كونه كان مع نفس الرّكب الذي رافقه إلى الإسكندرية، وهذا يعكس لنا عدم تعلّقه بها لأنّه انصرف إلى أخرى في مدّة قياسية. فخلال هذه الفترة التي قضاها بين المغرب وتونس و ليبيا والإسكندرية الّتي <<– قدرت بعشرة أشهر–>> [2] تزوج مرتين وطلق مرة واحدة، تاركا زوجة له بدمشق ليخرج مع الركب الشامي قاصدا الحجاز سالكا طريق الحج.

أشار ابن بطوطة في بداية رحلته كما سبق وأن ذكرنا أنّه تزوّج مرتين، وكان ذلك في مدينة تونس. أمّا بعد دخوله بلاد الأتراك ثم الهند ثم جزائر ذبية المهل، كان هناك تغيير شامل فقد تزوج فيها عددا من النساء بغير الجواري اللّواتي كنّ تهدين له من الوزراء والسلاطين.

❖ زواجه بالهند:

في الهند تزوّج بأخت الشّريف إبراهيم الذي كان واليا على بلاد حانسي وسرستي إذ نجده يذكر لنا محاسنها قائلا: << وكنت متزوّجا بأخته حور نسب، كانت صالحة تتهجّد باللّيل، ولها أوراد من ذكر الله عزّ وجلّ، وولدت منّي بنتا، ولا أدري ماذا فعل الله فيهما وكانت تقرأ لكنّها لا تكتب >>[3] ، إلّا أنّه لم يذكر لنا بعدها ما حلّ بهما .

---

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص 34 .

[2]– رحلة ابن بطوطة ..، ص24 .

[3]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2..، ص557.

❖ **زواجه بجزائر ذبية المهل :**

انتقد ابن بطّوطة عادة نسوة جزائر ذبية المهل لعدم احتشامهن في اللباس إلا أنه تزوج أربعة منهن إذ نجده يقول:<< ولقد كان لي بها أربع نسوة وجوار سواهن فكنت أطوف على جميعهن كل يوم وأبيت عند من تكون ليلتها، وأقمت بها سنة ونصف أخرى على ذلك..، ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة. ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معي بعضهنّ بعد محاولة، وبعضهن لم تأكل معي ولا استطعت أن أراها تأكل ولا نفعتني حيلة في ذلك >>[1]. فابن بطّوطة انتقدهن من ناحية ومدحهن من ناحية أخرى، فالمرأة عندهم تكرس كل وقتها في خدمة زوجها، لكن من عادتهنّ إذا اتخذ الزوج قرار شد الرحال فعليه تطليقها قبل سفره لأنّ النساء لا تخرجن عن بلادهن أبدا.

وليس في كل الحالات كان هو من يبادر في طلب ذلك أو يختار من يتزوج بهن، بل كان يعرض عليه بنات الوزراء بعد اقتراح آبائهن. من ذلك قصة زواجه ببنت الوزير التلمدي بجزيرة المهل الّذي أغدق عليه بالعطايا والهدايا والجواري عارضا عليه تزويجه لابنته بعد وفاة صهره الثاني علما أنّ كليهما لم يدخلا بها، إلا أنّه رفض خوفا من شؤمها.

كما بعث إليه الوزير سليمان وعرض عليه هو بدوره تزويجه ابنته، إلّا أنّ الوزير جمال الدين التلمذي رفض طلب ابن بطّوطة لأنه قرر تزويجه ابنته بعد انقضاء عدتها، مرض ابن بطوطة أثناءها وأصيب بحمى شديدة وبقي هناك سنة كاملة. بعدها اتفق مع الوزير سليمان مانا‌ياك للمرّة الثانية على تزوج ابنته، فبعث إلى الوزير جمال الدين واقترح عليه أن يتم عقد نكاحهما بقصره إلا أنّ بنت الوزير سليمان هي التي رفضت هذه المرة، حينها عرضوا عليه زوجة أب السلطانة فقبل. وكانت كما قال نعم الزّوجة إذ بلغ حسن معاشرتها له عدم معارضته عند اتّخاذه قرار الارتباط بغيرها، فكانت إذا تزوج عليها طيبته وبخرت ثيابه وهي ضاحكة ولا يظهر عليها تغير إذ نجده يفصّل في ذلك قائلا :<< وكنت قد تزوجت ربيبة بنت زوجة الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي وأحببتها حبا شديدا فكانت أحبهن إلى..، وتزوجت أيضا زوجة أخرى بنت وزير معظم عندهم كان جده السلطان داود حفيد السلطان أحمد

---

[1]– المرجع السابق..، ص ص655 – 659 .

شنورازة، ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين وعمرت ثلاث ديار بالبستان الذي أعطانيه الوزير، وكانت الرابعة وهي ربيبة الوزير عبد الله تسكن في دارها>>[1].

إلّا أنّه قام بتطليقهن عند اتخاذه قرار شد الرحال قاصدا بلاد المعبر قائلا: << فطلقت إحدى الزوجات، وكانت إحداهن حاملا، فجعلت لها أجلا تسعة أشهر إن عدت فيها وإلا فأمرها بيدها، وحملت معي زوجتي التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين لأسلّمها لأبيها بجزيرة ملوك، وزوجتي الأولى التي بنتها أخت السلطانة>>[2]. هذه الأخيرة اصطحبها معه إلا أنّ أخت السلطانة شكت إليها بسفر أمّها حيث قامت بمنعها لكنها لم تستطع، فبينما كان بالمسجد أتاه الوزراء والوجوه وطلبوا منه العودة وعندما وصل إلى جزيرة الوزير علي أصيبت زوجته بأوجاع وفضلت الرجوع، حينها طلقها وتركها هنالك، كما طلق زوجته الحامل التي ضرب لها أجلا مصطحبا جارية كان يحبها، وسار في تلك الجزائر من إقليم إلى إقليم[3].

❖ **زواجه بدمشق:**

وفي الثلث الأخير من رحلته يخبرنا بأنّه قد تزوّج امرأة من دمشق وتركها حاملا، وعندما كان في الهند وصله خبر إنجابها. وبعد مضيّ عشرين سنة قصد المدينة بحثا عن ابنه لكن بعد بحث مضن اكتشف أنّ ابنه مات منذ اثني عشر سنة، وكعادته لم يفصّل ولم يذكر سبب وفاته .

رابعا: ابن بطّوطة ودوافعه إلى الرّحلة:

كلّ رحالة إلّا وله دوافع وأسباب تجعله يمضي نحو المجهول ويتخذ قرار هجر الأحبّة والخلّان، فماهي الدوافع التي جعلت ابن بطوطة يتخذ هذا القرار بالرّغم من عدم إتمام دراسته وكذا صغر سنّه؟.

---

[1]- المرجع السابق..، ص ص669-670 .

[2]- نفسه..، ص672.

[3]- نفسه..، ص673.

❖ **الدافع الأول: الرغبة في أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة:**

ويظهر ذلك في بداية رحلته إذ نجده يقول: << وكان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفردا عن رفيق آنس بصحبته، وراكب أكون في جملته، لباعث عن النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريف كامن في الحيازم. فحزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والديّ بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا، ولقيت كما لقيا من الفراق نصيبا وسني يومئذ ثنتا وعشرون سنة >>[1] .

كما ورد في حديثه خرج ابن بطوطة منفردا على غير عادة الحجاج القاصدين بيت الله في جماعة ومع قوافل تضم أناسا يعرفهم على دراية بالطريق وكذا مناسكه وأوقاته، وسبب عدم انتظاره ركب الحاج المغربي– كما كان يسمى في تلك الفترة – شوقه إلى رؤية الناس والدنيا و المعرفة، خاصة وأنّ هذه الشخصية الأسطورية ولدت رحالة بطبعها فلم يتوان ولم يتردد يوما خوض غمار هذه التجربة الفريدة من نوعها، غير مكترث لما سيلقاه من أهوال، ليقرر عام1325 م وهو ابن الواحدة والعشرين عاما أن يخرج لأداء فريضة الحج.

❖ **الدافع الثاني: عشق ابن بطوطة للسفر منذ الصغر و رغبته في اكتشاف المجهول:**

ما حبب ابن بطّوطة في السفر تلك الكتب التي تداولها العرب، وهذه الأخيرة تضمّنت العديد من أخبار البلدان ومعالمها مثل: كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، و مسالك الممالك للأصطخري، وهذه الأخيرة تناولت البلدان من الناحية التاريخية والجغرافية.

❖ **الدافع الثالث: حب المعرفة والرغبة في العلم وحرصه على لقاء المشايخ:**

عزم ابن بطوطة إكمال دراسته في طريقه بحكم خروجه في سنّ مبكّر، فحرص على أن يتعلم المزيد عن ممارسة الشريعة في أنحاء بلاد العرب، و اكتساب معارفه من منبعها ومصدرها الأصلي، خاصة فيما يتعلّق بأمور الدين كمكة المكرّمة والمدينة المنوّرة ومن ثمّة

[1]– المرجع السابق ج1 ..، ص30 .

بغداد التي كانت بالنسبة للعلماء والفقهاء مصدر العلوم لتوفرها على أكبر المكتبات والكتب والعلماء بصفة عامة.

خامسا: الأربعة الذين كانوا وراء إنجاز الرحلة:

1- ابن جزي الكلبي693 هـ-741هـ-1294 م-1340م :

<< هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن سعيد بن جزي الكلبي، يكنّى" **أبا عبد الله**"، فقيه من العلماء بالأصول واللغة من أهل غرناطة، امتاز بالفضل والنزاهة والهمة وحسن السمة واستقامة الطريقة له مشاركة حسنة في الفنون من فقه وأدب وشعر تلقى العلوم على يد والده الخطيب أبي القاسم >>[1].
من كتبه: << القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، تقريب الوصول إلى علم الأصول، الفوائد العامة في لحن العامة، التسهيل لعلوم التنزيل، الأنوار السنية في الألفاظ السُّنية، وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم، البارع في قراءة نافع وفهرست كبير اشتمل على ذكر كثير من علماء المشرق والمغرب وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب >>[2].

كما نجد لسان الدين بن الخطيب في جزئه الثاني يقوم بتعداد محاسنه قائلا: <<هو من أعلام الشهرة على الفتاوة وانتشار الذكر على الحادثة تبريزا في الأدب، واضطلاعا بمعناة الشعر وإتقان الخطّ، وإيضاحا للأحاجي والمُلغزات، نشأ بغرناطة في كنف والده رحمه الله مقصور التدريب عليه، مشار إليه في ثقوب الذهن وسعة الحِفظ، ينطوي على نبل لا يظهر أثره على التفاتةٍ وإدراك، تغطي شعلته مخيلة غير صادقة من تغافله، ثمّ جاش طبعه وفَقه حوضُه، وتفجّرت ينابيعه وتوقّد إحسانه، ولمّا فقد والده رحمه الله ارتسم في الكتابة، فبذّ جلَّة الشّعراء إكثارا واقتدارا، ووفور مادّة، مجيدا في الأمداح، عجيبا في الأوضاع صدّيقا في

---

[1]- ينظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: عبد الله عنان، مج 1، مكتبة الخانغي القاهرة، ط2، 1393 هـ- 1973م، ص157-158 .

[2]- خيرالدين الزركلي: الأعلام: قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، ماي2002م، ص325 .

النسيب، مطبوعا في المقطوعات، معتدلا في الكتابة، نشيط البنان، جِلدا على العمل، سيّال المجاز، موح عِنان الدُّعابة، غزْلا مؤثرا للفكاهة >>[1].

استحسن ابن الخطيب أدبه و أسلوبه وفكاهته كما كان << على طريقة مثلى من العكوف على العلم والاقتصاد على الاقتيات من حر النشب- خالص المال- والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين، فقيها حافظا قائما على التدريس مشاركا في فنون من العربية والفقه والأصول والقراءات والأدب حافظا للتفسير مستوعبا للأقوال جماعة للكتب، ملوكي الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة..، توفي وهو يشحذ الناس ويثبت بصائرهم يوم الاثنين السابع لجمادى الأولى 7041م/1340هـ>> [2].

<< التحق بخدمة بني نصر وترقى في الوظائف حتى شغل منصب كاتب السلطان الحجاج بن يوسف ولما اختلف معه هاجر إلى فاس ليشغل نفس المنصب في بلاط السلطان أبي عنان المريني، وكان محل ثقته، فبعدما سمع السلطان عجائب رحلته عهد إليه بكتابتها، وبذلك كان الرحالة يملي وابن جزي الكلبي يكتب وينقح. فقضى في ذلك ثلاثة أشهر يستمع إلى الرجل ويسجل ما يملى عليه مما وعته ذاكرته، وكان قد فرغ من تقييدها في شهر ذي الحجة عام756هـ /1355م، وكان هذا التقييد مجرد مسودة للرحلة أعاد صياغتها فيما بعد، فكان الفراغ من تأليفها في شهر صفر عام 757هـ/1356 أي أنه أنفق قرابة ثلاثة أشهر أخرى ليضعها في صورتها النهائية، حيث استطاع أن يجعل من تلك الأحداث والأخبار عملا فنيا متماسكا، إلا أنه ضمن كلامه فقرات من رحلة ابن جبير من ذلك ما ورد وصفه لدمشق وحلب وبغداد >> [3].

فلولا ذلك العمل المضنى الذي قام به ابن جزي الكلبي ولولا المشاق التي تحمّلها ابن بطوطة في سبيل العلم والمعرفة، لنسيت تلك الأخبار مع الزمن، فكلما عدنا للكتاب واطلعنا على ما يحمله من أحداث ومغامرات نشعر وكأنّنا نسبح في ذلك المكان الفسيح الذي صوّره

---

[1]- الإحاطة في أخبار غرناطة مج2..، ص256.

[2]- نفسه مج3..، ص ص500- 516 .

[3]- رحلة ابن بطوطة ..، ص ص 20-21 .

أحسن تصوير ومثّله لنا أحسن تمثيل، وكأنّ تلك الذاكرة تحيى من جديد على الرغم من مرور مدّة من الزّمن .

2- أبوعنان المريني:729-759هـ/1329-1385م:

هو فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو عنان المتوكل على الله، من ملوك الدولة المرينية بالمغرب، ولد بفاس الجديدة – المدينة البيضاء- ونشأ محبوبا في قومه لفضله وعلمه. ولاه أبوه إمارة تلمسان ثم ثار على أبيه وبويع في حياته سنة 749هـ، ولما مات أبوه سنة 752 استتب أمره فبدأ بإخضاع بني عبد الواد – وكانوا أمراء زناتة بتلمسان- فقاتلوه فظفر بهم ودخل تلمسان، وانتظم له أمر المغرب الأوسط وعصاه أخ له يدعى أبا الفضل فأرسل إليه من قاتله في جبل" السكسيوي "وجبال المصامدة" من بلاد السوس، فاعتقل وحمل إليه فسجنه أياما، ثم أمر بخنقه في محبسه سنة 758هـ، فانتزع قسنطينة وتونس من أيدي الحفصيين. وبدت له ريبة في إخلاص بعض قواده، فعاد إلى فاس وقتلهم، ومرض أيّاما فدخل عليه وزيره الحسن بن عمر الفودودي فقتله خنقا[1] . وقد ذكره السلاوي في الاستقصا قال فيه:<< كان جهوري الصوت في كلامه عجلة، عظيم اللحية، تملأ صدره، فارسا شجاعا يقوم في الحرب مقام جنده، فقيها يناظر العلماء، كاتبا بليغا شاعرا، له أثار من مدارس وزوايا >>[2] .

في بلاط أبي عنان المريني تحدث ابن بطوطة عن أسفاره، قص أخباره على السلطان نفسه وعلى خواصه وعلى العلماء بعدما ألقى عصا التّرحال في وطنه الأم المغرب وبالتّحديد في مدينة فاس. أعجب السلطان بها فصدرت إرادته إلى الرحالة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار. ووضع السلطان كاتبه ابن جزي تحت تصرفه، فكانت لنا من ذلك هذه المتعة الأدبية التي ننعم بقراءتها ونطلع على كنوز من المعرفة فلولا إصدار السلطان أمر كتابة الرحلة.

---

[1]- ينظر: أدب الرحلة بالمغرب "في العصر المريني"، ج1..، ص20.

[2]- قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين و المستشرقين..، ص127.

أملى ابن بطوطة رحلته من الذاكرة، وهذه الأسفار التي قام بها لم يكن من السهل تذكرها مرتبة منظمة، ومن ثم فقد بدا في الرحلة شيء من الاختلاط الذي أثار بعض ريب وشكّ السّامعين ممّن عاصروه ومن جاء بعدهم مثل ابن خلدون و البلفيقي. ولكن أكثر الذين درسوا الرجل وأسفاره يجمعون أنّه كان صادقا مخلصا أمينا فيما نقل وشاهد وروى وتذكر، أما الخطأ أو السهو فهناك من يرجعه لطول الزمن [1].

لفت انتباه ابن بطوطة اهتمام السّلطان بما رواه على مسامعه، وكذا اهتمامه بالعلم والعلماء الّذين كان يعتني بهم ويرعاهم ويشجّعهم على السعي لاكتساب كنوز المعرفة من خلال عقده لمجالس العلم كلّ يوم بعد صلاة الصبح، ولم يقتصر على ذلك بل كان يجتمع بالفقهاء والنجباء من الطلبة ويشترك معهم في المناقشات لا سيما تفسير القرآن الكريم. قال عنه ابن بطّوطة أنّه اتّصف بالعدل فكان يخصّص يوم الجمعة للاستماع لانشغالات ومظالم رعاياه دون تمييز بين الغني والفقير بل بالعكس كان يولي اهتمامه الكبير بالفقراء منهم [2]، حتّى إنّه قال: << لم أر من ملوك الدّنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النّهاية، فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصّبح..، ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة..، حتّى رأيت ملازمة مولانا أبي عنان أيّده الله في الصّلوات كلّها>> [3]. ولمّا تمثّل بين يدي السلطان قال: << أنستني هيبته سلطان العراق وحسنه حسن ملك الهند وحسن أخلاقه خلق ملك اليمن وشجاعته شجاعة ملك الترك وحلمه حلم ملك الروم وديانته ديانة ملك تركستان وعلمه علم ملك الجاوة >>[4]. فبالنّسبة له كان كلّ سلطان من السّلاطين الّذين احتكّ بهم وسمع عنهم يتّصف بصفة حميدة، إلّا أنّ سلطانه كان جامعا لكلّ الصفات من شجاعة وحلم وعلم ودين تواضع وإنصاف.

---

[1]- ينظر: نقولا زيادة :الجغرافية والرحلات عند العرب ،الشركة العالية للكتاب ش. م. ل، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، د. ط،1987م، ص 190 .

[2]- ينظر: ابن بطوطة في العالم الإسلامي..، ص135.

[3]- نفسه..، ص135.

[4]- نفسه..، ص ص 133- 134 .

3- الوزير فارس بن وردار الحَشَمي:

كان ملازما للسلطان أبي عنان المريني، هذا الأخير دافع بدوره عن ابن بطوطة بعدما اتهمه ابن خلدون بالكذب وعدم مصداقيته فيما روى.

إذ نجد ابن خلدون يشير إلى ذلك في مقدمته: << وذلك أنه ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في البلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دلهي حاضرة ملك الهند واتصل بملكه لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكان، واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في علمه، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بأبي عنان وكان يحدّث عن شأن رحلته ورأى من العجايب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يحدّث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند إذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطاياه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز الناس فيه كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها شكاير الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه وأمثال هذه الحكايات. فتناجى الناس بتكذيبه ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه، فقال الوزير فارس إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول>>[1].

شكّك ابن خلدون فيما رواه ابن بطوطة عن أحوال الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم، فبالنسبة لهم كل ما رواه اعتبروه ضربا من الخيال. إلا أنّ عمله لقى استحسان وثناء علماء الغرب حيث << اعتبره المستشرق الروسي كراتشكوفسكي آخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية، لأنه لم يعتمد على غيره في نقل الأحداث كما اعتبره منافسا خطيرا لمعاصريه. ويقول المستشرق ريجيس بلاشير: رغم كل ما يقال، فإنّ لهذا الكتاب أهمّية فائقة في التّعرّف على العالم الإسلامي في القرن الرّابع عشر الميلادي، ففي هذا الكتاب الّذي يكثر فيه

---

[1]- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي: مقدمة ابن خلدون، طبعة باريس، د. ط، 1858م، ص ص328- 329 .

الاستطراد وتختلط فيه الأساطير مع الحكايات البعيدة عن التّصديق والأوصاف المتكرّرة، نكتشف فيه أيضا معلومات تاريخيّة دقيقة مفيدة، لا سيما تلك الّتي لا تحصى والمتعلّقة بعقائد وبعادات وأخلاق السّكّان كما يراها الرّحّالة المسلم >>[1].

4- ابن بطوطة:

لابن بطوطة الفضل الأكبر في خروج هذا الزاد المعرفي الذي يحمل ثقافات الشعوب ومختلف نظمهم الاجتماعية، بل تعدى ذلك لأنّ بإنجازه ساهم في إثراء الكتب الجغرافية والتاريخية، فلولا خروجه وتجشمه تلك المتاعب و المشاق من مواجهة للأخطار والمصاعب والأهوال، لما تمكنّا من معرفة أخبار السلف في مختلف الأمصار. كما كان لحافظته القوية ولذاكرته التي استطاعت أن تختزن كلّ تلك المعلومات الدور الكبير في جمع ما مرّ عليها خلال تسع وعشرين سنة، من تواريخ وقياسات وعملات ومزارات ومنشآت ونقود ومساجد و مدارس...

<< أملى ما شاهده في رحلته من الأمصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار وذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار، فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع و النواظر من كلّ غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطراف بانتحائها وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع إلى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد بن جزي الكلبي بأن يضمّ أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملا ولنيل مقاصده مكملا متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمدا إيضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع ويعظم الانتفاع >>[2]. حيث << نجد موقف ابن بطوطة يشبه موقف معاصره الرحالة ماركوبولو، فبعد عودته من رحلاته الطويلة في الشرق راح يحدث بأخبارها التي كان يستمع إليها القوم كأساطير، وكان من الممكن أن تنسى مع الزمن لولا أن صادف وهو بسجنه في جنوة كاتبا ذا مواهب أدبية أخذ يسجل رحلة ماركو بولو بإملائه >> [3] .

---

[1]- أعلام الجغرافيين العرب" مقتطفات من آثارهم"..، ص562 .

[2]- أغناطيوس يوليا نوقتش كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم ، مراجعة: إيغور بليايف، الإدارة الثقافية: جامعة الدول العربية، د.ط، 1957 م، ص428 .

[3]- رحلة ابن بطوطة..، ص15 .

سادسا: أهمية كتاب رحلة ابن بطوطة:

تعتبر رحلة ابن بطّوطة<< من المطولات، وهذا الكتاب غني بمادّته وهو يزودنا بمعلومات عن ممالك بعيدة فيما وراء العالم الإسلامي في آسيا وإفريقيا إبّان العصور الوسطى>>[1]، فهي تعدّ اليوم من بين أهم المصادر حول بدايات التاريخ التركي، وترجع أهمية الرحلة البطوطية إلى كونها تمت في القرن14م، وهي بداية تشكل الإمبراطورية العثمانية ونعرف أهمية الاقتراب من جذور وبدايات أي دولة ما.

لم يترك ابن بطوطة إنتاجا أدبيا غير كتابه الوحيد المعروف بـ: رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في عجائب الأمصار وغرائب الأسفار، الذي أرخه ترحالا ليدون بعد أمر من السلطان كتابة. وهذا الأخير يشتمل على وصفه لرحلاته الثلاث، وهذه الرحلات تتضمن حكايات كما نجدها تحمل قيما لما تشتمل عليه من معلومات عن العالم القديم ولما تتضمّنه من أحكام كان يصدرها وآراء كان يبديها عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة في البلدان التي زارها، وكذا فهمه الخاص لأحوال الشعوب ومعاصرته لكثير من الأحداث التاريخية. كل ذلك شكل أهمية عظيمة لدارسي الجغرافيا التاريخية وعلماء الإناسة/الأنثروبولوجيا[2]. تكمن أهمّيتها في احتوائها على معلومات ثرة ومتنوعة: جغرافية سوسيولوجية، اقتصادية، تاريخيّة ودينية .

استحسن بعض الأمور وانتقد بعضها محاولا تقويمها، والغرض من انتقاده محاولته تغيير بعض العادات التي لا تتوافق مع شريعتنا وعقيدتنا الإسلامية. فنجده راض مرة وغير راض مرّات، لانعدام تجدّر المعتقد الإسلامي في سلوكهم من ذلك ما ورد في قوله: << دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون، فعظم ذلك عليّ، وأتيته– قاضي المنية بمصر فخر الدين النويري المالكي–فأعلمته بذلك فأمرني ألا أبرح، وأمر بإحضار المكنزين للحمامات، وكتبت عليهم العقود أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر فإنهم يؤاخذون على

---

[1]– الجغرافيا عند المسلمين..، ص ص 59- 60 .

[2]– ينظر: شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي، مطبعة دار السلام، بغداد، د. ط، 1979م، ص275 .

ذلك، واشتد عليهم أعظم الاشتداد، ثمّ انصرفت عنه>>[1]، وكذا تعقيبه على بعض التصرفات والسلوكيات كالخروج عن قواعد الحشمة والتعفف فيما يتعلق بالنساء كنساء جزائر ذبية المهل .

لم يغفل عن أي شئ يمس حياتهم العامة والخاصة، ولم يستثن في وصفه أحدا بدءا من السلاطين إلى الأمراء وحتى من رجال الشعب، فنظرته لتلك الأماكن التي زارها والشعوب الذين احتك بها، لم تكن نظرة سطحية كنظرة السائح الخاطفة والسريعة للمناظر المحيطة به، والباحث عن الأشياء الناذرة والفريدة من نوعها. بل كانت رؤية مخالفة إذ غلبت عليه روح المتأمل والمحلل والمقارن والمتعقب لكل التفاصيل، أي أنّ ملاحظاته كانت تقوم على التقصي الموضوعي فغلبت عليه روح الاثنوغرافي والمحلل النفسي والمؤرخ والشاهد في آن واحد. وهذه الصفات هي الّتي ميزت رحلته، فجمع بذلك بين الجغرافية والدين والتاريخ والاجتماع. وما ساعده على ذلك سرعة تكيفه مع الوسط الغريب والتعايش مع أناس يحملون مرجعية تختلف عن مرجعيته، فذلك لم يؤثر عليه سلبا لأن عبر هذا التعايش استطاع أن يتعلم دروسا وأن يكون دائما مستعدا لتقبل المغاير والجديد.

إنّ رحلة ابن بطوطة تحمل في طيّاتها مجموعة من القيم: تاريخية، سياسية، علمية، أدبية، دينية واجتماعية، فهي تعدّ مصدرا من أهمّ المصادر التاريخية والجغرافية بالنسبة إلى حياة الأمم الشرقية في القرون الوسطى، يجد فيها الباحث معرضا كبيرا لأحوالها من الوجهتين السياسية والاجتماعية ويقف على كثير من أسرارها كشف عنها رحّلتنا الستار لأوّل مرة في التاريخ. قال كارل بروكلمان في كتابه << تاريخ الشعوب الإسلامية: والحقّ أنّ أحدا من الرّحالين لا يداني ابن بطوطة في سعة استشراقه العالمي غير معاصره: ماركو بولو البندقيّ الذي كان أسنّ منه بعض الشّيء والّذي عهد إلى كاتب له في إخراج مذكراته إخراجا أدبيّا >>[2] . وقال أيضا عن ابن جبير وابن بطّوطة: << وثمّة كاتبن من المغاربة تركا لنا

---

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص 65 .

[2]– كارل بروكلمان: تاريخ الشّعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير البعلبكّي، دار العلم للملايين، بيروت ، ط5، 1968م، ص 340 .

صورتين زاهيتين بالألوان عن الثّقافة الشّرقيّة في عصرهما، ممّا لا تستطيع أيّ حقبة سابقة أن تدلّ بمثله >>[1].

فعلى الرغم من مرور ردح من الزمن إلّا أنّنا لازلنا ننعم بتلك الصور التي نقلها لنا عن عادات تلك الشعوب وتقاليدها، وحياتهم بمختلف مجالاتها في ذلك العصر. فمثل هذه الرحلات كان ولازال الأدباء والجغرافيون والمؤرّخون يستقون منها مادّتهم لما تحمله من روعة في التعبير والتصوير ومن أحداث غريبة وعجيبة و معلومات وأحداث لم يعهدوها ولم يصادفوها من قبل.

سابعا: سبب تسمية رحلة ابن بطّوطة بـ: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار:

يعتبر العنوان أوّل العتبات الّتي يمرّ عليها القارئ ليلج عوالم النّص، كما أنّه يعتبر نقطة أو همزة وصل يُستقطب بها القارئ أو المتلقّي، فيؤثّر فيه ويثير فيه نوعا من الإغراء والتّشويق لممارسة عمليّة القراءة، << من خلال تراكم عمليّات الاستفهام في ذهنه وسببها هو العنوان فيضطرّ إلى دخول عالم النصّ، بحثا عن إجابات لتلك التّساؤلات، بغية إسقاطها على العنوان>>[2]. ويعتبر << – ليوهوك من أكبر المؤسّسين المعاصرين للعنوانيات في كتابه: سمة العنوان>>[3] ، حيث << قام برصد العنونة رصدا سيميوطيقيّا من خلال التّركيز على بنائها ودلالاتها ووظائفها >>[4]، إذ نجده يعرّفه على أنّه << مجموعة من العلامات اللّسانية من كلمات وجمل وحتّى نصوص، قد تظهر على رأس النّصّ لتدلّ عليه وتعينه، تشير لمحتواه الكلّي، ولتجذب جمهوره المستهدف>>[5].

---

[1]– المرجع السابق..، ص338 .

[2]– عبد القادر رحيم: العنوان في النص الإبداعي–أهمّيته وأنواعه–، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، ع 2–3 ، جامعة محمد خيضر، بسكرة، جانفي/ جوان، 2008 م، ص1 .

[3]– جيرار جينيت: عتبات" من النص إلى المناص"، ترجمة: عبد الحق بلعابد، تقديم: سعيد يقطين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ،2008م، ص66 .

[4]– فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،2010 م، ص226 .

[5]– نفسه..، ص67 .

<< وممّا لا شكّ فيه أنّ اختيار العناوين عمليّة لا تخلو من قصديّة كيفما كان الوضع الأجناسي للنّصّ، إنّها قصديّة تنفي معيار الاعتباطية في اختيار التّسمية، ليصبح العنوان هو المحور الّذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه>>[1].

وفي النّصّ الأدبي غالبا ما نجد الكاتب يضع العنوان كمرحلة أخيرة لكتاباته نظرا لأهمّيّته كونه يعتبر عصارة ما تمّ تأليفه بحكم أنّه يُستمدّ من مضمون النّصّ، على خلاف النصّ الشّعري الّذي يستهلّ فيه الشّاعر كتاباته وإبداعاته الشّعريّة بالعنوان، حيث <<يرى روبرت شولز Robbert scholes أنّ العنوان هو الّذي يخلق القصيدة>>[2] فهو الّذي يمدّه بالأفكار أي بمثابة المصباح الّذي ينير فضاء النّص المشحون بالدّلالات والمعاني والرّموز. انطلاقا من هذه المعطيات سنتطرّق لدلالة العنوان انطلاقا من التيمات المكوّنة له

- **تحليل العنوان:**

العنـــــــــــوان:	**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**
اللّفظـــــــــــة	**دلالتهـــا**
التحفة	<<هذه اللّفظة مشتقة من الفعل تحف، والتحفة: الطُّرفة من الفكاهة وغيرها من الرّياحين. والتّحفة: ما أتْحفتَ به الرّجل من البرّ واللّطف>> [3].
العجيب	<<العُجْبُ والعَجَبُ، إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده، وقال ابن الأعرابي: العجبُ النّظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد >>[4].

[1]–عبد الفتاح الحجمري: عتبات النّصّ "البنية و الدّلالة"، منشورات الرّابطة، الدار البيضاء، ط1 ، 1996م، ص19 .

[2]–جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، مج 25، مجلّة عالم الفكر، وزارة الثّقافة ،الكويت، ع3، 1997 م، ص99.

[3]– أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، مج 9، دار صادر، بيروت، د. ط، د. ت، ص17.

[4]– نفسه مج1..، ص581

الغريب	<<الغامض من الكلام، وكلمة غريبة، وقد غَرُبت، وهو من ذلك. والخبرُ المُغرِبُ، الّذي جاء غريبا حادثا طريفا>>[1].
الأمصار	<<من مِصْر، ومصر هي المدينة المعروفة، تذكّر وتؤنّث،عن ابن السراج: والمصر واحد الأمصار : قال سيبويه في قوله تعالى: اهبطوا مصرا قال: بلغنا أنّه يريد مصْر بعينها. التهذيب في قوله :اهبطوا مصرا ،قال أبو إسحق: الأكثر في القراءة إثبات الألف، قال وفيه وجهان جائزان، يراد بها مصرٌ من الأمصار لأنّهم كانوا في تيه، قال وجائز أن يكون أراد مصر..، الجوهري: فلان مصّر الأمصار كما يقال مدّن المدن>>[2].

إنّ العنوان يعكس مضمون الرّحلة، فمن خلال شرحنا للمصطلحات التي تضمّنها اتّضح أنّ ابن الجوزي استطاع أن يوصل لنا مبتغاه بحكم أنّه من وضعه بعدما حوّل تلك المغامرات إلى قوالب نصّيّة، فالكاتب اعتبر هذا الكتاب تحفة والتّحفة هو الشّيء المبهر لدقّته والثّمين لندرته، و الشيء الثمين النادر هو الذي يبقى خالدا ويدوم ذكره على مر الأزمنة والعصور. فعلى الرّغم من مرور مدّة من الزّمن إلّا أنّه لم يفقد وزنه ولا قيمته بل ارتقى عبر الأزمان ليصبح من أهمّ الكتب النّادرة، ولفظة تحفة تعكس ذلك لما أصبح له من قيمة أدبية تاريخية اقتصاديّة و اجتماعيّة، إذ أصبح مقصدا ومرجعا لمن يبحثوا عن عجائب وغرائب البلدان الّتي سمعوا عنها واكتشاف ما كان فيها لتعذّر وصولهم إليها. كما أنّ المعلومات الفريدة التي أوردها تعد أحد أشكال جسور التواصل مع الحضارات العريقة

[1]- المرجع السابق..، ص ص639-640.

[2]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، مج5، دار صادر، بيروت، د. ط، د. ت، ص176 .

الأخرى في الهند والتّرك وغيرها من البلدان[1]، وقد كان ابن جزي على وعي بهذه المسألة لمّا سمّى رحلة ابن بطّوطة : "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". لتكون بذلك تحفة للناظرين وغريبة من غرائب الأمصار فغرائب الأمصار هي السبل الغريبة عن المتلقين، وعجائب الأسفار هي تلك الأخبار والقصص العجائبية التي تثير استغراب ما رواه ابن بطوطة على مسامعهم.

فالعنوان بمثابة الرّسالة، والرّسالة لا يمكن أن تصل لصاحبها "المرسل إليه" دون كتابته، كما هو الحال بالنّسبة للنّصّ لا بدّ أن يتصدّر غلافه لجذب القارئ وهذا الأخير تتوالد معانيه ودلالاته، فهو بذلك يختصر الكلّ ويعطي اللّمحة الدّالة على النّص المغلق ويصبح نصّا مفتوحا على كافّة التّأويلات.

المرسل /الكاتب–المبدع/ ← النّص/الرّسالة/ ← المتلقّي /المرسل إليه/

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

فابن جزي لم ينطلق من النّص مباشرة، بل نجده ينطلق من فكرة أو مجموعة من الأفكار التي شكّلت لنا النّص ومصدر، الفكرة هو الرّحّالة ابن بطوطة وانطلاقا من هذه الأفكار تشكّل النّص وبالتّالي تشكّل العنوان. وهنا المخطّط يأخذ شكلا مغايرا إذ ننطلق من الفكرة عند ابن بطوطة لتترجم هذه الأفكار إلى فقرات متّسقة ومنسجمة من خلالها بُنى النّص اعتمادا على هذه الوحدات الصّغرى، أي أنّ هذه الأفكار نقلت في قوالب نصّية، محاولا نقلها للمتلقّي لينتج لنا عملا أدبيّا متوّجا بعنوان يعكس لنا فحوى الكتاب بألفاظ لها دلالات وإيحاءات.

[1]- ينظر: ياسر عبد الجواد المشهداني: من مكوّنات العلاقات العربية الهندية :"رحلة ابن بطّوطة أنموذجا"، جامعة الموصل ، قسم التاريخ، العراق.www.google.com

الفصل الثّاني

العجائبي في رحلة ابن بطوطة

أوّلا: مفهوم العجائبي

1- العجائبي في القرآن

- ❖ العجائبية في الحروف
- ❖ العجائبية في الزّمن
- ❖ عجائبية في المكان
- ❖ عجائبية الأشخاص
- ❖ عجائبية الأشياء
- ❖ عجائبية الرّؤى وتأويلها
- ❖ عجائب الكون
- ❖ عجائب الأحداث
- ❖ عجائب مخلوقاته

2- العجائبي في رحلة ابن بطوطة

2-1 عجائبية الأشخاص

2-2 عجائبية الأحداث

2-3 العجائبية في الزّمان والمكان

ثانيا: رحلة ابن بطوطة بين الحقيقة والتأليف

1- قسم أعجب بما سمعه أخذته الدهشة مصدقا تلك الروايات

1-1 الوزير فارس بن وردار الحشمي

1-2 السلطان أبو عنان المريني

2- قسم بين شاك ومكذب

2-1 القاضي المشهور: أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السلمي بن الحاج البلفيقي تـ771هـ -1369م.

2-2 لسان الدين بن الخطيب 713هـ-1313م / 776هـ-1374م

2-3 ابن خلدون 732هـ- 1332م/707هـ - 1406 م

يعتبر نص الرحلة نصا موازيا للتاريخ، يمتص منه ويجري مجراه رغم أنه في بعض الأحيان يفارقه وينفصل عنه لما يتعلق الأمر بالمبالغة في القصد، وسرد العجائب ورواية الأساطير والغرائب، رغبة في إثارة الدّهشة سواء لدى الكاتب أو القارئ [1]. فرحلة ابن بطوطة إلى جانب نقلها للحياة الواقعيّة والاجتماعية والسياسية والدينية، نجدها تجمع بين الواقع والخيال والغرائبي وهناك من يسمّيه بالعجائبي فما هو العجائبي كمصطلح؟. وهل أفقد هذا العنصر مصداقية الرّحلة وما فيها من معلومات جغرافية وتاريخية ؟.

أوّلا: مفهوم العجائبي:

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادّة عجب:

- ❖ عجب: العجُبُ والعَجَبُ: إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده.
- ❖ وجمع العجب: أعجاب.
- ❖ والاستعجاب: شدّة التّعجّب.
- ❖ والتّعاجيب: العجائب .

قال الزّجّاج: أصل العجب في اللّغة أنّ الإنسان إذا رأى ما يُنكره ويقلّ مثلُه[2].

وجاء في معجم الوسيط:<< التّعجُّبُ في النّحو: استعظام أمر ظاهر المزيّة خافي السّبب..، العُجابُ: ما يدعو إلى العجب، وفي التّنزيل العزيز: إنّ هذا لشيء عُجابٌ. والعَجَبُ: روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشّيء. يقال: هذا أمر عَجَبٌ، وهذه قصّة عَجَبٌ، وعجَبٌ عاجِبٌ: شديدٌ للمبالغة >> [3].

---

[1]– ينظر: أدب الرحلة في التراث العربي..، ص78 .

[2]– ينظر: لسان العرب، مج1..، ص580 .

[3]– مجمّع اللّغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425هـ –2004 م، ص 584.

أمّ القزويني فنجده يقول في المقدّمة الأولى في عجب:<< قالوا العجب حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشّيء أو عن كيفية تأثيره فيه، مثاله أنّ الإنسان إذا رأى خليّة نحل ولم يكن شاهده كذا قبل تعتريه حيرة لعدم معرفة فاعله، فلو عرف أنّه من عمل النّحل تحيّر أيضا. لأنّ ذلك أبلغ من حيث أنّ ذلك الحيوان الضّعيف أحدث هذه المسدّسات المتساوية الأضلاع، عجز عن مثلها المهندس الحاذق مع البركار*[1] والمسطرة. ومن أين لها هذا الشّمع اتّخذت منه بيوتها المتساوية الّتي لا يخالف بعضها بعضا كأنّها أفرغت في قالب واحد..، فهذا معنى العجب>>[1]. ويضيف إلى هذا التّعريف تعريفا آخر فيقول: << الغريب كلّ أمر عجيب..، مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة، وذلك إمّا من تأثير نفوس قويّة أو تأثير أمور فلكيّة أو أجرام عنصريّة، كلّ ذلك بقدرة الله تعالى وإرادته فمن ذلك معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين كانشقاق القمر وانقلاب العصا ثعبانا وكون النّار بردا وسلاما >> [2].

وعليه فإنّ << العجائبية هي انتهاك القوى غير الطبيعية واللّاعقلية لما هو طبيعي و مألوف وعادي في الواقع الإنساني، وبتعبير آخر هو انزياح عن قواعد العقل ونواميس الطّبيعة عن قصد وعمد وثورة على الواقع وإدانته له لبشاعته وغرابته، رغبة منه في تغيير الواقع المرّ، فهي تتعالى في جوهرها على الواقعي والتاريخي وتتجاوزهما >> [3]. أي أنّ << العجيب Merveilleux يتميّز بأنّه ينتمي إلى عالم لا يشبه عالم الواقع بل يجاوره من دون اصطدام ولا صراع، رغم اختلاف القوانين الّتي تحكم العالمين وتباين صفاتهما، فقارئ الحكايات العجيبة كألف ليلة وليلة يتعايش مع السّحرة والعمالقة والجان فيطمئنّ إلى بعضها ويخشى بعضها الآخر، وهو من بداية القصّة يترك عالمه الواقعيّ وينتقل بالفكر إلى عالم

---

*البركار أو البَرْجل: آلة مركّبة من ساقين متّصلين ترسم بها الدّوائر والأقواس (ينظر: المعجم الوسيط..، ص47) .

[1]– محمد بن عبد الله القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات(مخطوط)، مكتبة روايال، د. ط، 1176هـ–1874م، ص 16 .

[2]– نفسه..، ص ص 20 –21.

[3]– أمال ماي: العجائبية في رواية "سرادق الحلم والفجيعة" لعزّ الدين جلاوجي، مجلة المخبر،ع9، أبحاث في اللغة العربية والأدب الجزائري جامعة بسكرة، الجزائر، 2013م، ص ص289–290 .

آخر، مسلّما بقوانينه ومنطقه..، فيتواطأ القارئ مع ما يخالف منطقه متخلّيا مؤقّتا عن حسّه النّقدي وذلك بقبوله دخول اللّعبة الفنّية >>[1] .أمّا محمّد أركون فيقول عن العجائبي<< أنّه ليس سوى امتيازا مؤقّتا لاستحضارات خيالية، مشكّلا لذلك وعاء لفكرة الخلق، مثلما هو وعاء ضروري لكلّ تجربة انفتاح على الذات، ويعتمد على خلق المفارقة والسّخرية من المألوف الواقعي عبر المكاشفة والخارق والنسخ والتحول والتّضخيم>> [2]. وعليه فإنّ جوهر الخيال << مستمدّ من جوهر الحياة، ولا يمكن فصله عن الوعي الذي يمثّل جوهر الوجود الإنساني، وإنّ مسألة العلاقة بين الواقع والخيال تعني نقل المعطى الواقعي برؤية إبداعية واعية >>[3]. << وقد دعا السّرياليون إلى تمجيد العنصر الغنائي في الإنسان، أو ما أطلقوا عليه اسم الخيال الخارق، ورأوا أنّ هذا الخيال يمكّن المبدع من صنع ميثولوجية جديدة بوسعها أن تكون دليلا للسّعادة، لضرب من فردوس أرضي>> [4]. بواسطته يستطيع أن يرسم لنفسه واقعا جديدا يتماشى مع أحلامه وآماله الّتي افتقدها في أرض الواقع، وبذلك يكون قد تمرّد عليه واخترق قوانين الطبيعة لعدم قدرته على التّفاعل والاندماج مع المحيط من خلال استحضاره لشخصيات لاواقعيّة، اتخذها كوسيلة للهروب من القوانين الصارمة التي كبّلته وشلّته ومنعته من الحركة بحثا عن واقع أفضل رسمه بخياله، لا يخضع لقوانين تحدّ من حرّيته. حيث << يقرر العلماء أنّ الإنسان ولد راحلا وأنّه يمضي عمره كلّه راحلا، فإن عجز حينا عن الرحلة في الواقع والطبيعة رحل في خياله ووهمه ورسم لنفسه في هذا العالم الّذي رحل إليه بالصورة الّتي ترضيه وترضي خياله>> [5] ، << فكثيرا ما يأتي الحكي العجائبي كغطاء لتجاوز

---

[1]– لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرّواية " عربي، إنكليزي، فرنسي "، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، لبنان ، ط1، 2002 م، ص87 .

[2]– شعيب حليفي: بنيات العجائبي في الرّواية العربية، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مج16، ع3، شتاء 1997، ص ص114– 115.

[3]– هدى سليمان الحافي: "العجائبية في القصّة السورية القصيرة، القصّة النّسوية أنموذجا "مخطوط رسالة ماجستير، جامعة تشرين، سوريا،2009م، ص ص 41–42 .

[4]– النّزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة..، ص58 .

[5]– علي عبد الحليم محمود: القصة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1979م، ص117 .

الضّوابط الاجتماعية والتّخلّص من الحواجز والممنوعات والمحرّمات الاجتماعية المفروضة على الإنسان داخل بيئته الاجتماعية >> [1]. وهذا ما أشرنا إليه سابقا ؛ إذا لم يجد الإنسان ما يريد في حياته رسم لنفسه عالما خاصا به من وحي خياله يتوفّر على ما يفتقر إليه في الواقع باحثا فيه عن الأفضل كما يلجأ إليه لتجاوز واختراق الممنوع والمحرّم في الواقع.

<< للعجيب وظيفة هامّة غير تسلية القرّاء وملاءمة أذواق الجمهور لهكذا نوع من الحكايات، وظيفته الإيديولوجية تكمن في كونه نوعا من التّطهير الذّاتي والتّنفيس>> [2]. مثير للمشاعر يجعل القارئ يسبح بخياله ليخرج من الواقع إلى العالم الآخر الّذي رُسم له. وقد اعتبر تودوروف Todorov الانتماء الأدبي إلى هذا المظهر إبداعا، وتوظيف المبدع لهذا النّمط يتطلّب شروطا ثلاثة منجزة: يتعلّق الأوّل بالقارئ، ويرتبط الثّاني بشخصية أو شخصيات من النّصّ، ويتصل الثّالث بمستويات التّأويل. وفي هذه الحالة يرغم النص قارئه على التردّد بين مستويين من التّفسير للأحداث، تفسير طبيعي وآخر فوق طبيعي، وسمة التّردّد سمة لازمت العجائبي عند تودوروف، يصطدم بها كائن لا يعرف غير القوانين الطّبيعية فيما يواجه حدثا فوق طبيعي، وهذا الأخير يكون محسوسا من طرف شخصية في النّص، وينتهي القارئ في الأخير إلى اتّخاذ موقف إزاءه [3]. مثالنا عن ذلك رحلة ابن بطوطة حيث انقسم المستمعون والقراء بين مصدّق وبين شاك ومكذّب، متلقّيا انتقدات ممّن عاصروه أمثال: ابن خلدون، البلفّيقي وابن الخطيب متّهمين إيّاه بالكذب، لما تحتويه رحلته من أحداث وأمور عجيبة وغريبة .

1- العجائبي في القرآن الكريم:

إنّ النصوص القرآنية بدورها حافلة بالعجيب والغريب، والقرآن نفسه يعتبر من الأمور العجيبة، فهو المعجزة الخالدة. والمعجزة كانت في ألفاظه وعباراته و نظمه المنفرد، لا يأته

---

[1]- سميرة بن جامع :العجائبي في المخيال السردي في ألف ليلة وليلة، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 1430هـ-1431هـ/2009م-2010م، ص21 .

[2]- ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة: نسيج الواقع والخيال..، ص175 .

[3]- ينظر: نضال الصالح: النّزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتّحاد كتاب العرب، سوريا، د. ط،2001 م، ص ص21-22 .

الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتاب أحكمت آياته، سحر العقول وأسر الألباب بنظمه الحكيم، استطاع بسحره أن يحدث انقلابا في الأدب شعرا ونثرا، ويظهر ذلك في قوله عليه الصّلاة والسّلام : **"إنّ من البيان لسحرا"**.

فهو يعدّ أوّل ظاهرة نثرية فنية عرفها العرب كتابة هزّ النّاس بأسلوبه الفريد، فأعجز جهابذة الفصاحة، لأنّهم لم يعهدوا له مثيلا، فبعدما كانوا يجتمعون إلى الشّعراء، انكبّوا على القرآن الكريم يتدارسونه ويتدبّرون آياته ومعانيه يحفظونه ويتلونه. وقد وردت لفظة عجيب في القرآن الكريم مرّتين، بالإضافة إلى مختلف مشتقّاته وذلك في قوله **سبحانه وتعالى:** << ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ **"**[1]**.**وقوله أيضا:" فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ **عَجِيبٌ** ﴿٧٢﴾ >>[2]. **وقال أيضا:** << قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا **عَجَبًا** ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَد ﴿٢﴾ >>[3]. وقال أيضا: << وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا

---

[1]- من سورة ق(50) /الآيتان:1-2.

[2]- من سورة هود(11)/الآيات: 70-72.

[3]- من سورة الجن(72)/الآيتان:1-2.

أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ >>[1].

<< وقد شهد ابن مسعود رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ قال رسول الله:<< أتاني داعي الجنّ فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن وكانوا من جنّ الجزيرة، وفي الدرّ المنثور: يقال سبعة من أهل نصّيبين>> [2]. وقد ورد في التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لوهبة بن مطصطفى الزحيلي أنّ << النفر بين الثلاثة إلى العشرة، والجن أجسام عاقلة خفية مخلوقة من النار، والمقصود بهم هنا جنّ نصيبين وذلك في صلاة الصبح ببطن نخيل موضع بين مكة والطائف>> [3]. << والغرض من الإخبار عن استماع الجنّ، توبيخ وتقريع قريش والعرب كونهم تباطأوا عن الإيمان، إذ كان الجنّ خيرا منهم وأسرع إلى ذلك، فإنّهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا به وانقادوا له، ورجعوا إلى قومهم منذرين، بخلاف المشركين الّذين نزل بلسانهم، فإنّهم كذّبوا و استهزأوا بخير البشريّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وهم يعلمون أنّه كلام معجز، وأنّ محمّدا أمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وشتّان ما بين موقف الإنس والجنّ!!>> [4]. وقد وصف بالمصدر للمبالغة، أي عجبا في إعجازه وإيجازه وفصاحته وبلاغة كلامه وبليغ مواعظه الهادي إلى مراشد الأمور، و هذه الآية الكريمة لدليل على أنّ أعظم ما في دعوة الرسول توحيد الله تعالى وخلع الشرك فقد آمنت الجن بكلام الله بمجرد سماعه مرة واحدة ، في حين لم ينتفع كفار قريش سيما أنّ الرسول كان منهم يتلوه عليهم بلسانهم. و في سورة الجنّ نجده يصف تجمعهم حوله حين سمعوه يتلو القرآن الكريم، وذلك في قوله **سبحانه وتعالى:** << وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا

---

[1]– من سورة الأحقاف(46) /الآيات: 29–32 .

[2]– أطلس القرآن" أماكن، أقوام، أعلام"..، ص182 .

[3]– وهبة بن مصطفى الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، مج 15، الجزءان29–30، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط1، 1430 هـ– 2009 م، ص171 .

[4]– أطلس القرآن " أماكن، أقوام، أعلام "..، ص181 .

يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾>> [1] . أي أنّ الملائكة اجتمعوا حول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بعضهم فوق بعض من شدّة ازدحامهم لسماع القرآن منه. وسورة الأحقاف بدورها تضمّنت آيات أخبرنا فيها سبحانه وتعالى أيضا عن إيمان الجنّ بالقرآن الكريم وذلك في الآيات السّابق ذكرها" 29-30-31-32 "وقد ورد في التفسير المنير لهذه السورة أنّ جماعة ما دون العشرة – جمع أنفار- من أشراف جنّ نصيبين أو جنّ نِينَوِي آمنوا بعد سماعهم لتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلّم، وأمروا بعضهم بعضا بالإنصات والإصغاء لكي يسمعوا سماع تدبّر وإمعان فآمنوا به لأنّهم أدركوا أنّه كتاب منزّل مصدّق لما بين يديه، يهدي إلى الرّشد معجز في ألفاظه ومعانيه، وهذه الآيات دلالة واضحة على أن الله أرسل محمّدا إلى الثّقلين الجنّ والإنس، ليبيّن من خلالها أنّ الثواب والعقاب والأوامر والنّواهي واستحقاق الجنّة والنّار بين الإنس والجنّ[2].

والغرض من ذلك أيضا التّأثير فيمن كفر به، ليكونوا عبرة لغيرهم من خلال ذكره قصص الغابرين وما سلّطه عليهم من عذاب أليم، وكذا من خلال وصفه للجنّة وخيراتها وعجائبها، ووصفه لجهنّم وأهوالها، وذلك باستعماله أسلوب التّرغيب والتّرهيب لهداية النّاس وتوجيههم نحو الطّريق المستقيم، ليكونوا من أهل السّعادة في جنان الخلد. والعجيب لا يقتصر فيما سبق ذكره بل يظهر في قدرة الله و وحدانيته والآيات الّتي تضمّنها القرآن الكريم تأتي بالحجج والبراهين على وجود الخالق المدبّر، فتبدأ بذكر العالم العلويّ وخلقه دون عمد، تعاقب اللّيل والنّهار مراحل خلق الإنسان، السّحب والأمطار.

---

[1]- من سورة الجن (72) /الآية:19.

[2]- ينظر: وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، مج13، الجزءان 25-26، دار الفكر، دمشق، ط10،1430هـ- 2009م ، ص ص383-384 .

1

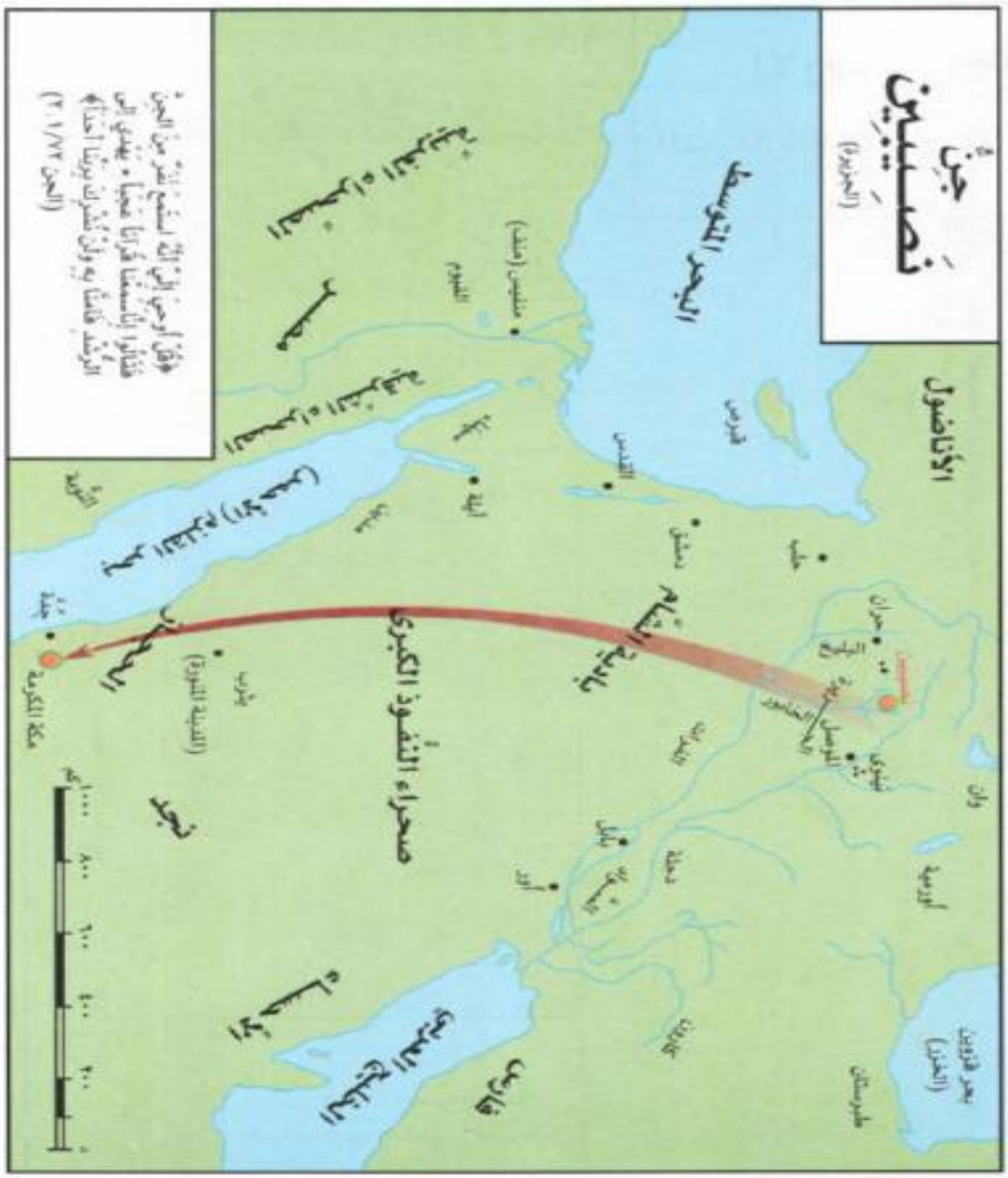

[1]– أطلس القرآن "أماكن، أقوام، أعلام"..، ص182.

و العجيب فيه يتعدّد بتعدّد مواقف المشركين، وعلى سبيل الذّكر لا الحصر نذكر نماذج له بدءا من خلق آدم عليه السّلام إلى مولد النبي عيسى عليه السّلام بعد ما نفخ في بطن أمّه وقصّة أصحاب الكهف، إلى رحلة خاتم الأنبياء والمرسلين "رحلة الإسراء والمعراج"، و العجيب فيه كما سبق وأن ذكرنا لم يقتصر على المواقف فقط بل كان في أمور أخرى من ذلك:

❖ **العجائبية في الحروف:**

تكمن العجائبية في القرآن الكريم في تلك الحروف المقطّعة الّتي تستهلّ بها السّور، فعلى الرّغم من كتابتها باللّغة العربية إلّا أنّنا نعجز عن فهم مدلولها، ومن معرفة كنهها كونها ألفاظا غير مألوفة. وإن دلّ عل شيء فهي تدلّ على إعجاز القرآن الكريم، وقد حاولنا جمعها في الجدول على الشكل التالي:

السـورة	رقمها	الحروف المقطّعة	المعنـى
البقرة آل عمران العنكبوت الروم لقمان السجدة	(1) (3) (29) (30) (31) (32)	الـمّ	<< قيل هو اسم من أسماء القرآن وقيل هو قسم، وقيل هو سرّ القرآن الّذي لا يعلمه إلّا الله>>[1].
الأعراف	(7)	المّصّ	بمنزلة الـم في أوّل سورة البقرة وآل عمران.

[1]– أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تفسير الطبري "غرائب القرآن جامع البيان في تفسير القرآن، د.ط، د. ت، ص3 .

يونس هود يوسف إبراهيم الحِجر	(10) (11) (12) (14) (15)	الٓر	<< قيل هو اسم الله الّذي هو الرّحمٰن بتقطيع الهجاء إذا جمع بـ "حمٓ"و"نون" كان الرّحمٰن وقيل هو اسم من أسماء القرآن>> [1].
الرعد	(13)	الٓمٓر	قد ذكر ما قيل في نظائرها من حروف المعجم الّتي افتتح بها أوائل السّور.
مريم	(19)	كٓهيعٓصٓ	<< قال المفسّرون: هو من أسماء الله عزّ وجلّ فـ الكاف: من كبير والهاء: من هاد. والياء: من حكيم. والعين: من عالم. والصاد: من صادق. واختلفت في ذلك وقيل بل هو اسم من أسماء القرآن، وقيل هو كـ " الٓمٓر" من حروف المعجم الّتي افتتح بها أوائل السّور>> [2].
طه	(20)	طه	<< قيل هو اسم من أسماء الله تعالى وقد أقسم به، وقيل هو اسم النبيّ صلى الله عليه وسلم سمّاه الله به"[3].

[1]– المرجع السابق..، ص 227.

[2]– نفسه..، ص341 .

[3]– نفسه..، ص349 .

الشعراء/ القصص	(26) (28)	طسٓمٓ	<< كسائر ما تقدّم من فواتح السّور من حروف الهجاء>> [1] .
النمل	(27)	طسٓ	"
يسٓ	(36)	يسٓ	"
صٓ	(38)	صٓ	اختلفت في تفسيره اختلافهم في نظيره من فواتح السّور المتقدّمة.
غافر فصّلت الشّورى الزّخرف الدخّان الجاثية الأحقاف	(40) (41) (42) (43) (44) (45) (46)	حمٓ	"
قٓ	(50)	قٓ	"
القلم	(68)	نٓ	"

والسّور المفتتحة بالحروف المقطّعة تسع وعشرون سورة، أوّلها البقرة وآخرها القلم "ن"، منها الأحادية مثل "صٓ" و "قٓ" و "نٓ"، ومنها الثنائية مثل "طسٓ" و"يسٓ" و" حمٓ " ومنها الثلاثية والرباعية والخماسية [2].

[1]– المرجع السابق..، ص412 .

[2]– ينظر: أبو بكر جابر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مج1، مكتبة العلوم والحكم، المملكة العربية السعودية، ط3، 1418هـ–1997م، ص18 .

وفيما يخصّ "آلـــم" يقول محمّد الطّاهر بن عاشور في كتابه تفسير التّحرير والتّنوير: << تحيّر المفسّرون في حلّ هذه الحروف الواقعة في أوّل هذه السّور، وفي فواتح سور أخرى عدّة جميعها تسع وعشرون سورة، ومعظمها في السّور المكّية وكان بعضها في ثاني سورة نزلت وهي" نۤ و القلم"، وأخلق بها أن تكون مثار حيرة ومصدر أقوال متعدّدة وأبحاث كثيرة >>[1]. أمّا ابن كثير فيقول أنّ هذه الحروف الهجائية للتّنبيه على إعجاز القرآن. << وقيل هي معلومات المعاني وعليه قيل كلّ حرف منها أوّل اسم من أسماء الله: فالألف من الله، واللّام من لطيف، الميم من مجيد، الصّاد من صادق – في سورة الأعراف عند زيادة الصّاد– والرّاء من رؤوف– عند زيادة الرّاء في سورة الرّعد–.

وقيل هي أقسام أقسم الله بها لشرفها >> [2]. ويضيف الرّازي فيقول عن هذه الفواتح أنّها <<علم مستور وسرّ محجوب استأثر الله تعالى به، قال أبو بكر: رضي الله عنه: لله في كلّ كتاب سرّ وسرّه في القرآن أوائل السّور. وقال عليّ رضي الله عنه: إنّ لكلّ كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التّهجّي>> [3]، فعظمة القرآن ورفعة قدره وعلوّ شأنه يشتمل على ما يحتاج العباد إليه من أمور الدّنيا والدّين ومن الأحوال الظّاهرة والباطنة.

---

[1]– محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج1، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1984م، ص206 .

[2]– أبو زكريا الأنصاري: فتح الرّحمٰن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق وتعليق: محمد علي الصابوني، ساحة بورسعيد، الجزائر، ط2، 1408 هـ –1988 م، ص13 .

[3]– فخر الدين الرازي أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حسين: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، 1425هـ–2004 م، ص4 .

❖ العجائبية في الزّمن:

تتمثّل في قصة الرّجل الصالح **عزير**[1] وقصّة **أصحاب الكهف**، فقصّة عزير من روائع قصص القرآن، وهذا الأخير مرّ على قرية بيت المقدس بعد أن خرّبها الجبّار الطّاغية "بختنصر" [2] فوقف يرقبها بعد خرابها ودمارها ويتعجّب من قدرة الله سبحانه وتعالى، كيف

---

[1]– << قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: هو عزير بن حيوة، ويقال بن سوريق بن عرنا بن أيّوب بن درثنا بن عرى بن تقى بن السبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران>> (ابن كثير: قصص الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، مصر، ط5 ، 2012م، ص353) .

<< أصله من بني إسرائيل، كان رجلا صالحا يحفظ التّوراة ، قال المفسّرون أنّه بُعث وأحيي على سنّه الّتي مات عليها– أي عند بعثه كان لا يزال شابّا– ، وكان له أولاد قد شابوا وهرموا وقد عرفوه وعرفهم>> ينظر: محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم " تفسير المنار"، ج3، دار المنار، مصر، ط3، 1367هـ، ص 51.

<< كان ذلك بعد التقائه بجارية لكن كانت قد كفّ بصرها، قال لها أنّه عزيرا إلّا أنّها كذّبته وبعد إلحاح منه طلبت منه أن يدعو الله ليعيد لها بصرها بحكم أنّه كان رجلا صالحا، وكان منه ذلك فارتدّ بصرها فعرفته وأخذته إلى الملإ من بني إسرائيل وكان من بينهم ابنا له، فقال أنّه كان لأبيه شامة بين كتفيه. فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير، وطالبوه حينها أن يسرد عليهم التّوراة الّتي أحرقها بختنصر عند غزوه لأراضيهم، ولتلف النسخة التي دفنها والده، فسرده عليهم عن ظهر قلب فأعادوا كتابتها>> (ينظر: ابن كثير: قصص الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام..، ص ص354–355).

[2]– << كان ملكاً على بلاد بابل في العراق و لكن قبل أن يصبح ملكاً كان قائد جيش جرار عدده مثل سواد اللّيل قوامه مائة ألف مقاتل، و كان معروفا بقوّته جبروته وقسوته وعتوّه لا رحمة في قلبه. دخل بيت المقدس وقتل بني إسرائيل حتّى أفناهم وخرّب بيت المقدس لينصرف بعدها إلى بابل آخذا معه السّبايا فقتل ثلثهم وأقرّ بالشّام ثلثا، والثلث بقي على حاله وقيل أنّ عزيرا كان ممّن سباهم بختنصر وهو غلام. وعن موته قيل أنّ الله أرسل عليه بعوضة دخلت في منخره وصعدت إلى رأسه، فكان لا يقرّ ولا يسكن حتّى يدقّ رأسه، فلمّا حضره الموت طلب من أهله أن يشقوا رأسه لتعرّفوا على سبب وفاته، فاكشفوا أنّ أضعف مخلوقات الله سبحانه وتعالى كانت السّبب في ذلك، قال أهل العلم أنّه عاش أربعين سنة بعد تخريب بيت المقدس>>(ينظر: ابن الأثير الجزَريّ: الكامل في التاريخ " تاريخ ما قبل الهجرة النبوية"، مج1، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 ،1407هـ–1987م، ص ص 202–203).

يحيي الله بعد فناء أهلها ويعيدها على حالها ؟!. – وكان ذلك الرّجل راكبا على حماره – فأماته الله مائة عام مع حماره ثمّ أحياه ليريه كمال قدرته كيف لم يتغير طعامه رغم طول المدّة، أمّا حماره تفرقت عظامه وبلى جسده فأعاد خلقها وركّب بعضها مع بعض وكساها لحما بقدرته وهو ينظر إلى ذلك، وهذه الآيات الكريمة تنقل لنا ما حلّ بهذا الرّجل وحماره، كما أنّها تبين ما كان بين الله سبحانه وتعالى وبين إبراهيم عليه السّلام حين سأله عن كيفية إحياء الموتى . **قال جلّ وعلا:** << أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾>> [1].

فقوله **سبحانه وتعالى** : " أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا"، لدلالة على تعجّب عزير من ذلك، حيث عدّ حصول ذلك أمرا غريبا لا يكاد يقع، أي أنّ قوله لم يكن من باب الإنكار. << وما فعله سبحانه وتعالى ما فعله من الإماتة والإحياء ليزيل تعجّبه ويريه آياته سبحانه وتعالى في نفسه وطعامه وشرابه وحماره وليجعله آية للنّاس >>[2].

وقال أيضا: << أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا **عَجَبًا** ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا

---

[1]– من سورة البقرة(2)/الآيتان: 259– 260.

[2]– تفسير القرآن الحكيم " تفسير المنار"، ج3..، ص 49 .

رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾[1]. إلى قوله **سبحانه وتعالى**: << وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾>> [2]. فهذه الآيات تحتوي على أحداث قصّة عجيبة غريبة – قصّة أصحاب الكهف– وهي أيضا من دلائل قدرة الله وعظمته، أراد الله سبحانه وتعالى أن يحمي أولئك الفتية المؤمنين بدين الله ورسوله من بطش ملكهم الوثني ليحتموا بغار في الجبل، فأنامهم الله ثلاث مائة عام وتسع سنين قمرية، ليبعثهم مرّة أخرى، فكانوا بذلك محلّ **تعجّب**. وقد سأل القوم الرسول عنها على سبيل الامتحان فقال تعالى في سياق حديثه: أم حسبت أنّهم كانوا **عجبا** من آياتنا فقط، فلا تحسبن ذلك، فإنّ آياتنا كلّها عجب. فليست قصّة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدّة من الزمن دون طعام وشراب وحفظ أجسامهم بحجب أشعة الشمس عنهم عند الطلوع والغروب وتقليبهم آية عجيبة، بل هي من آيات الله الكثيرة الدالة على قدرته سبحانه وتعالى. فخلقه السموات والأرض وما فيهما أعجب وأعظم وبما أنّ استيقاظهم كان آخر النّهار ظن بعضهم أنهم لبثوا يوما أو بعض يوم، والبعض الآخر قال ربكم أعلم عند رؤيتهم حالتهم التي كانوا عليها، حتى الفتية تعجّبوا من حالهم لأنّهم كانوا كمن يموت ثمّ يبعث مرّة أخرى[3].

ومن الأمور العجيبة الواردة في القرآن قوله أيضا: << وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ **عَجِيبٌ** ﴿٧٢﴾ قَالُوا **أَتَعْجَبِينَ** مِنْ

---

[1]– من سورة الكهف (18) /الآيات: 9– 12 .

[2]– من سورة الكهف(18) /الآيتان:25–26 .

[3]– ينظر: وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة الشريعة والمنهج، مج 8، الجزءان15 –16، دار الفكر، دمشق، ط10، 1430 هـ– 2009م، ص ص 237– 243.

أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾>>[1].

وقد ورد في تفسير القرآن أنّها كانت ابنة التّسعين حينها [2]، وهو سنّ يأس، سنّ يستحيل على أيّ امرأة أن تنجب فيه، وقد جاء تعجّبها واستفهامها متبوعا باستفهام وهو استفهام إنكار لاستفهامها التّعجّبي سببه كبر سنّها، فلا محلّ للعجب أن يكون من آياته أن يهبها ويهب خليله الولد في كبرهما .

- **العجائبية في المكان:**

ويظهر ذلك في قوله **سبحانه وتعالى:** << قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾>>[3] ، حيث دبّر قوم إبراهيم عبدة الأوثان طريقا للخلاص منه، و أرادوا إحراقه وتعذيبه عذابا لم يعذّبه أحد وقرّروا معاقبته بالنار لأنّها أشدّ العقوبات انتقاما لآلهتهم، فخصّصوا له مكانا جمعوا فيه الحطب وأُوقدت النار التي تسابق القوم لإضرامها تقرّبا للأصنام وإرضاء للآلهة المحطّمة. فاشتعلت واشتدّت ثمّ قيّدوا إبراهيم عليه السّلام وألقوه فيها، إلّا أنّ النتيجة كانت مروعة ومدعاة **للعجب** والاستغراب وفوق حدود التصوّرات البشريّة، سلب منها جلّ وعلا خاصية الإحراق غير أنّها حافظت على الإضاءة والإشراق والاشتعال، بعدما قال المتكفّل بحفظ أنبيائه: يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم، أي بردا غير ضار فكانت وسطا لا حامية ولا باردة. << قال ابن العباس رضي الله عنه لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها >> [4]، وبذلك تحوّل المكان الّذي كان فيه بالنّسبة لسيّدنا إبراهيم عليه السّلام من مهلك إلى مكان آمن، وبهذه المعجزة الرّبانية بطل كيد أعداء الله.

---

[1]- من سورة هود (11) /الآيات:71- 73.

[2]- ينظر: محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم" تفسير المنار"، ج12، دار المنار، مصر، ط2، 1966هـ - 1947م، ص129 .

[3]- من سورة الأنبياء (21) /الآيتان:68-69.

[4]- تفسير القرآن الحكيم، ج 12..، ص 91 .

❖ **عجائبية الأشخاص:**

ويتجلّى ذلك في قصّة مريم العذراء الّتي بُشّرت بعيسى عليه السّلام ليرفع الظلم ويهدي الناس إلى الطريق المستقيم، وقوله سبحانه وتعالى ابن مريم إشارة إلى أنه سيُنسب لها لولادته من غير أب، والأعجب تكليمه الناس وهو في المهد رضيعا كلاما متّزنا معقولا. **قال جلّ وعلا:** << إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾[1]. حتّى مريم كانت متعجّبة " قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ .. ﴿٤٧﴾>>[2]. أي كيف يكون لي ولد والحال أنّني لم أتزوّج. << فالمسّ كناية ظاهرة، والاستفهام على حقيقته في وجه، ومعناه هل يكون ذلك بزواج أم بمحض القدرة؟. وفي وجه آخر: للتعجّب من قدرة الله والاستعظام لشأنه>> [3]. << قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾>> [4]. فأجابها الله : مثل هذا الخلق المتعجب منه هو بمشيئة الله سبحانه وتعالى فكما خلق عيسى بغير أب خلق سيّدنا آدم من ترا ب بلا أب ولا أم خلافا للمعتاد في التوالد[5] ويتجلّى ذلك في قوله **سبحانه وتعالى:** << إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾>>[6].

---

[1]– من سورة آل عمران(3) /الآيتان 45 –46.

[2]– من سورة آل عمران(3) /الآية:47.

[3]– محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم " تفسير المنار"، ج3..، ص307.

[4]– من سورة آل عمران(3)/الآية:47.

[5]– ينظر: وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، مج9، الجزءان 17–18، دار الفكر، دمشق، ط10 ،1490هـ –2009م، ص202 .

[6]– من سورة آل عمران (3) /الآية:59.

❖ **عجائبية الأشياء:**

ويتجلّى ذلك في **قوله تعالى**: << وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾>>[1].

قصّة المائدة هي نعمة من النعم التي عدّدها وامتنّ بها على سيّدنا عيسى، قيل أنّها نزلت عليهم يوم الأحد غدوة وعشيّة، وكان ذلك بعد مطالبة أتباع سيّدنا عيسى نبيّهم بأن يسأل ربّه وينزّل عليهم مائدة من السّماء فيها أنواع الطّعام ليأكلوا منها، وتسكن قلوبهم وتستقرّ على الإيمان بوحدانيته وقدرته من جهة، وكي يتأكّدوا من صدق نبوّته من جهة أخرى ويتّخذوا من ذلك اليوم عيدا يعظّموه ويعظّمه من بعدهم [2]، وكانت هذه المعجزة آية من آيات الله البيّنات الدّالة على قدرة الله سبحانه وتعالى وعلى إجابة دعوة دعاء المخلص من عباده ولو بخوارق العادات، فيؤمن المستعدّ للإيمان ويزداد الّذين آمنوا إيمانا[3] إلّا أنّهم

---

[1]– من سورة المائدة(5) /الآيات:111-115 .

[2]– ينظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : مختصر تفسير الطبري المسمّى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج1، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، صالح احمد رضا، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1408هـ - 1987م ، ص219 .

[3]– ينظر: محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم " تفسير المنار"، ج7، دار المنار، مصر، ط3، 1367هـ ، ص 252.

جحدوا تلك النّعمة وكفروا بعد نزولها، فمُسخوا قردة وخنازير، أمّا الطّعام فقيل أنّه خبز ولحم أو خبز وسمك [1].

والعجيب أيضا يتجلّى في قوله **سبحانه وتعالى:** << وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ >> [2]. لم نجد في التفاسير إجماعا لتفسير واحد لهذا الآية الكريمة فالزّمخشري أورد في تفسيره "وسع كرسيه " أربعة أوجه" أحدهما:

<< أنّ كرسيه لم يضق عن السّماوات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلّا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد، وإنّما هو تخييل لعظمة شأنه، والثاني وسع علمه، وسمّي العلم كرسيا تسمية بمكانه الّذي هو كرسي العالم، والثالث: وسع ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم. والرابع ما روي أنّه خلق كرسيّا هو بين يدي العرش، دونه السماوات والأرض، وعلى كل حال أرى أنّه يجب الإيمان بوجود عرش>>[3]. أمّا في مختصر تفسير الطبري فتفسير الآية ورد كالآتي : <<رجّح ابن جرير أن المراد بالكرسي علم الله جلّ وعلا ، وروى بذلك أثرا عن ابن عباس قال: كرسيه: علمه والصحيح هو ما عليه السلف أنّنا نؤمن بالعرش والكرسي كما أخبرنا تعالى دون تأويل أو تعطيل ونترك معرفة الصفة والشكل والجوهر إلى علام الغيوب>> [4].

وفي ظلال القرآن << جاء التعبير في هذه الصّورة الحسّية في موضع التّجريد المطلق، على طريقة القرآن في التّعبير التصويري، لأنّ الصورة هنا تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوّة وعمقا وثباتا، فالكرسيّ يستخدم عادة في معنى الملك، فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد وسعهما سلطانه، وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية، ولكن الصورة التي

---

[1]– ينظر: وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، مج4، الجزءان 7–8، دار الفكر، دمشق، ط2، 2009 م ، ص ص119–122 .

[2]– من سورة البقرة(2) /الآية: 255 .

[3]– وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، مج 2، الجزءان3–4 ، دار الفكر، دمشق، ط 10 ،1430هـ – 2009 م، ص35.

[4]– نفسه مج4، الجزءان 7–8..، ص81 .

ترسم في الحسّ من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن >> [1] . في حين نجد سيّد قطب يضيف قائلا بعد ما سبق ذكره: << لم أعثر على أحاديث صحيحة في شأن الكرسيّ والعرش تفسّر و تحدّد المراد ممّا ورد منها في القرآن، ومن ثمّ أوثر أن لا أخوض في شأنها بأكثر من هذا البيان>> [2].

وقد وجدنا شروحات أخرى في كتاب: تفسير لآية الكرسي لمحمود شلبي نقلا عن:

- ✓ ابن كثير<< قال ابن زيد قال أبي، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما السّماوات السّبع في الكرسي إلّا كدراهم سبعة ألقيت في تُرس. وعن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري: أنّه سأل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الكرسي: فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: والّذي نفسي بيده ما السّماوات السّبع والأرضون السّبع عند الكرسي إلّا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإنّ فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة.
- ✓ ونقلا عن الإمام الألوسي بالإضافة إلى ما نقله لنا ابن كثير قيل أنّ الكرسيّ ما يجلس عليه، والكلام مساق على سبيل التّمثيل لعظمة شأنه وسعة سلطانه، وإحاطة علمه بالأشياء قاطبة، فليس ثمّة قاعد ولا قعود>>[3].

فمهما اختلفت التفاسير في تحديد معنى لفظة الكرسي في هذه الآية الكريمة، إلّا أننا نعتبر كل ما ورد في مختلف التفاسير أنّ هذه اللّفظة تدلّ على العجيب. فإن دلّت على العلم، فعلم الله سبحانه الواسع لا تدركه البشريّة جمعاء حتى لو اجتمعوا كلّهم، وإن دلّت على عظمة كرسيه فهذا أعجب .

❖ عجائبية الرّؤى وتأويلها:

منح الله سبحانه وتعالى سدنا يوسف معجزة ليواجه بها أعداء الله بتأويل الرّؤى، وكان ذلك من الأمور العجيبة التي لم تتوفّر في أحد سواه خاصّة بعد رؤيا الملك التي عجز

---

[1]– في ظلال القرآن، مج1، ج3 ..، ص 290 .

[2]– نفسه..، ص290.

[3]– محمد شلبي: تفسير آية الكرسي للأئمة الكبار: الفخر الرازي، ابن كثير، الألوسي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ص ص 62–73 .

عن تفسيرها كلّ من المنجّمين والسّحرة قائلين عنها أنّ أضغاث أحلام، مصرّحا أنّ ما سيخبرهما به من تعبير الرّؤيا هو ممّا علّمه ربّه إيّاه. وتفسيره لرؤيا الملك كانت سببا في خروجه من السجن الّذي دخله ظلما كما كانت السبب في تبرئته ممّا اتّهم به من مراودته لزوجة عزيز مصر، و يظهر ذلك في قوله **سبحانه وتعالى**: << وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي... ﴿٣٧﴾>>[1].

وقال أيضا: << يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ

[1]- من سورة يوسف(12) /الآيتان:36-37

﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾>>[1].

❖ **عجائب الكون :**

الكون وما فيه هو من دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى، لما فيه من مخلوقات وشمس وكواكب وأجرام..، فالكلّ سجد لعظمته وسبّح بحمده. فقد تضمّن القرآن الكريم آيات بيّنت لنا قدرة الله فيما خلق وأبدع ولن نستطيع إحصاءها لكثرتها، بدءا من خلق الإنسان إلى تلك الحشرة الصغيرة- النّحلة- الّتي تعدّ عجيبة العجائب لما تتصف به من تنظيم فكلّ نحلة إلّا ولها دور. فهناك من يبني الخلية وهناك من يمتصّ الرّحيق وهناك من يحرسها وكأنّها ثكنة عسكريّة وهناك من يضع البيض، وهي من الأمور العجيبة. قدرة الله تكمن هنا كيف عرف كلّ واحد منها عمله؟. وكيف يتحوّلو هذا الرّحيق إلى عسل ليصبح هذا الأخير دواء فيه شفاء لكلّ داء؟. مصداقا **لقوله تعالى:** << وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ >>[2] .

ومن عجائب صنع الخالق تلك الحيوانات التي سخرها للإنسان للركوب والاستفادة من لحمها وصوفها وجلدها ولبنها، وهنا تكمن معجزة من معجزات الخالق عزّ وجل، فكيف وجد؟. وكيف تكوّن هذا اللّبن؟. فسبحان ما أعظم قدرته!. لأنّ الأمر يحتاج إلى تفكّر وتدبّر وإشغال للعقل **قال تعالى:** << وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾>>[3].

---

[1]- من سورة يوسف(12) /الآيات:41-48.

[2]- من سورة النحل(16) /الآيتان:68-69 .

[3]- من سورة النحل(16) /الآية:66 .

❖ **عجائب الأحداث:**

ومن عجائبية الأحداث قصّة سيّدنا يعقوب عليه السّلام، لمّا ألقي علي وجهه قميص سيّدنا يوسف عليه السّلام ليرتدّ بصيرا بعد أن حجب البياض الرؤية عن عينيه، بعدما اشتدّ بكاؤه على أعزّ أبنائه الّذي لم يترعرع في أحضانه. ومن ذلك ما ورد في سورة مريم التي نقلت لنا أمرا عجيبا والمتمثّل في تكلّم سيّدنا عيسى عليه السّلام وهو في المهد كلام راشد، ويتجلّى ذلك في قوله **سبحانه وتعالى:** << فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾>>[1].

❖ **قصة إحياء الموتى :**

ذُكر في سورة البقرة موضع إحياء الموتى في خمسة مواطن:

➢ قصة القتيل الذي أحياه الله بعد أن ضربوه بجزء من البقرة، قال **عزّ من قائل:** << وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾>>[2] . وهي من أعجب القصص الواردة في القرآن معجزة من المعجزات الربانية، خلاصة القصّة أنّ رجلا من بني إسرائيل كان له مال كثير ولم يكن له أبناء يرثونه فأراد ابن

[1]- من سورة مريم (19) /الآيات:27-34 .

[2]- من سورة البقرة(2) /الآية:73 .

أخيه أن يتعجّل ميراثه، فقتله ثمّ ألقاه ليلا على دار أحد القوم بين قريتين، وادعى أنهم قتلوا عمّه حتى تخاصم القوم وتدافعوا وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره فلجَأوا إلى سيدنا موسى، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل بجزء منها فيحيا بقدرة الله ويخبرهم عن القاتل[1].

- قصة المعاندين من بني إسرائيل الذين طلبوا رؤية الله عزّ وجلّ جهرة، ويظهر ذلك في **قوله سبحانه وتعالى:** << وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾>>[2].
- قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون والوباء، فأماتهم الله ثم أحياهم. قال جلّ وعلا: << أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوف حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾>>[3] .
- قصة الرجل الصالح عزير الّذي أماته الله مائة عام ثم أحياه .
- قصة إحياء الطيور المذبوحة.

وكل هذه القصص إنّما ذكرت بقصد تثبيت العقيدة والإيمان بالبعث والنّشور[4] .

❖ قصة إبراهيم عليه السّلام مع الطّاغية نمرود بن كنعان:

فهذا المتجبّر العاصي أنكر وجود الله سبحانه وتعالى وادعى الألوهية، والعجيب في هذه القصّة هو مطالبة هذا الشّقي الكافر سيّدنا إبراهيم أن يأتي بدليل يثبت به وجود الخاق القهّار، حجّته في ذلك أنّه لو كان هناك إلاه لكان مرئيا، قبل سيّدنا إبراهيم عليه السلام هذا

---

[1]- ينظر: المرجع السابق..، ص31.

[2]- من سورة البقرة(2) /الآية:55 .

[3]- من سورة البقرة(2) /الآية:243 .

[4]- ينظر: قبس من نور القرآن الكريم: من سورة الفاتحة البقرة وآل عمران "دراسة موسعة تحليلية لأهداف ومقاصد السور الثلاث، ج1..، ص88 .

التّحدّي وأخبره بأنّ الله يحيي ويميت، إلاّ أنّ هذا المكابر العنيد قام بإحضار رجلين فقتل واحدا وترك الآخر، وبذلك حسب تفكيره هو بدوره أحيا وأمات بمجرّد إصدار أمر قتل فلان وعدم قتل الآخر، إلاّ أنّه كان جاهلا لمعنى الإحياء والإماتة. بعد ذلك قدّم له سيّدنا إبراهيم حجّة قاطعة فقال له أنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فطلب منه أن يأتي بها من المغرب، وهنا وقف وقفة المنبهر العاجز أمام عظمة الله و قدرته.

❖ **عجائب مخلوقاته :**

من عجائب مخلوقات الله سبحانه وتعالى :

خلقه للناقة من صخر أصمّ، وهذه الأخيرة كانت معجزة سيّدنا صالح عليه السّلام بعدما تحدّاه قومه وطلبوا منه أن يتخلّى عن دينه و يتبعهم، أي اتباع قوم ثمود الّذين خلفوا عادا بعد أن أهلكهم الله بريح صرصر عاتية- هم بدورهم أفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان- .

عقدوا اتفاقا مع سيّدنا صالح عليه السلام محاولين إخراجه عن دينه، فإذا استجابت لهم آلهتهم يتبعهم، أمّا إذا استجاب الله لدعائه يتّبعوه، وكان ذلك بعد أن سألوه عن معجزة تدلّ على صدقه. وفي اليوم الموعود لم تستجب لهم آلهتهم فطلبوا من سيدنا صالح أن يدعوا ربّه ويُخرج لهم من صخرة عظيمة صماء بجانب الجبل ناقة عشراء-حامل-، فصلّى ودعا فانصدعت من تلك الصخرة ناقة عُشراء في غاية العظم، وهي من عجائب خلق وقدرة الله سبحانه وتعالى ويظهر ذلك في قوله **جلّ وعلا:** << وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾>>[1] .

ومن العجيب أيضا خلق الله سبحانه وتعالى سيّدنا آدم بدون أب ولا أمّ، و للمسيح عيسى عليه السلام من أمّ بلا أب، وكلّ ذلك من مظاهر قدرة الله وعظمته وسلطانه. فهناك

[1]- من سورة الأعراف (7) /الآية: 73 .

آيات من الذكر الحكيم تقرّر تلك المعجزات وخوارق العادات الّتي ظهرت على يد سيّدنا عيسى بن مريم، إلّا أنّ هذه الأخيرة كانت بإذن الله سبحانه وتعالى وقدرته واستطاعته ومشيئته وأمره منها: إحياء الموتى وإبراء الأعمى والأبرص ومعرفته لبعض أمور الغيب **قال سبحانه وتعالى:** << إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾>>[1] .

فالقرآن الكريم كما سبق وأن ذكرنا ثريّ بمثل هذه القصص، الّتي أبهرت العقول وأعجزت من وقفوا بوجه الأنبياء المرسلين الّذين اصطفاهم لتبليغ رسالته ونشر دعوته وأصول عقيدته، ليخرّوا بذلك للواحد الأحد ساجدين أمام تلك المعجزات والخوارق، ومثالنا عن ذلك ما كان بين موسى عليه السّلام وبين سحرة فرعون، فما أتى به السّحرة من الخيال وهي في الحقيقة حبال إلّا أنّها في أعين الحاضرين حيّات، لكن بعد رؤيتهم لعصا موسى حيّة حقيقية تلقف ما جاء به السّحرة، أدركوا أنّ ما جاء به سيّدنا موسى خارج عمّا جاء به السّحرة ليدركوا حينها أنّه أمر غيبيّ من الله سبحانه وتعالى، من خلاله يدعوهم إلى الإيمان به. فآية موسى عند السّحرة خوفه، فلو كان ذلك منه وكان ساحرا لما خاف لأنّه يعلم ما يجري، أمّا آيته عند النّاس تلقّف عصاه حبال السّحرة الّتي كانت تخيّل للحاضرين أنّها حيّات. حينها أدرك السّحرة أنّ أعظم الآيات في هذا الموطن وعلموا صدق موسى فيما يدعوهم إليه، وأنّ الّذي أتى به خارج عن صور الحيل الموجودة عند السّحرة، وهو أمر إلـ'هي

[1]– من سورة المائدة(5) /الآية: 110 .

ليس لموسى عليه السّلام. فصدّقوا برسالته وآمنوا بما جاء به عن آخرهم وخرّوا سجّدا عند هذه الآية، واختاروا عذاب فرعون على عذاب الله[1].

أمّا قصّته مع العبد الصّالح "الخضر" فالعجائبي فيها لم يتأسّس من أحداث خارقة ممتنعة على عامة البشر، ولا من شخصيات خيالية أو أسطورية لا تنتعش إلّا في رحاب الخرافة وأحضان الخيال، بل إنّ العجائبي هنا تشكّله العلاقات الكلّية لا الملامح الجزئية فأفعال التّخريب مثلا أو القتل أو البناء، أفعال عادية تتكرّر يوميّا وفي كلّ لحظة، وهي أفعال لا تثير الدّهشة. فمن تخريب السّفينة إلى قتل الطّفل إلى إقامة الجدار، هي أفعال غير عادية صدرت من شخص يفترض أن يكون عبدا صالحا في نظر سيّدنا موسى عليه السّلام، وهي تصرّفات لا معقولة، إلّا أنّه وقف أمامها موقف الحائر الّذي ينتظر تفسيرا وأجوبة لتلك الأسئلة المنغلقة الّتي لم يجد لها جوابا.

لتأتي بعد ذلك الحلول وينتفي بذلك العجب، ليسود حال من الانسجام ويعود التوازن بعد فهم سبب صدور تلك الأفعال غير المفهومة، فالعجيب هنا جاء موقوتا لا دائما غير ثابت[2]. ويظهر ذلك في قوله **جلّ وعلا:** ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل

---

[1]– ينظر: محمود محمود الغراب: الخيال عالم البرزخ والمثال " من كلام الشيخ الأكبر: محي الدين بن العربي"، دار الكتاب العربي، دمشق، ط2، 1404 هـ– 1984م، ص55.

[2]– ينظر: بهاء بن نوار: العجائبية في الرواية العربية المعاصرة "مقاربة موضوعاتية تحليلية"، مخطوط رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012م–2013م، ص ص 68–69 .

لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾>> [1].

فهناك تفاوت بين كلام الله وكلام البشر آياته برهان إعجازه، << فالقرآن يكفي ذاته بذاته في هذا الشّأن، والدّليل على ذلك أنّ كفّار قريش قد أكثروا من مطالبة الرّسول صلى الله عليه وسلّم بالإتيان بآية معجزة تخرق نظام الكون واستقرار سننه كدليل على صدق نبوّته. فكان جواب القرآن أنّ مهمّة محمّد بن عبد الله هو أن يبلّغ لأهل مكة أم القرى ومن حولها رسالة الله إليهم(القرآن) وليس من اختصاصه الإتيان بآيات معجزات خارقة للعادة >> [2]. فالقرآن كتاب عقيدة وهداية، وإعجازه العلمي يتمثّل في حثّه على التّفكير والنّظر

---

[1]– من سورة الكهف(18) /الآيات:60-82 .

ينظر: صبحي عبد الرّؤوف عَصَر: المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم، دار الفضيلة للنّشر والتوزيع، د. ط،1990م، ص 377 .

[2]– محمد عابد الجابري: مدخل إلى القرآن الكريم الجزء الأوّل في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2006م، ص187 .

في الكون وتدبّره، فأيّ مسألة من مسائل العلم أو قاعدة من قواعده، يثبت رسوخها ويتبيّن يقينها، فكما هو معلوم العلوم تقدّمت وكثرت مسائلها لكن لم يتعارض شيء ثابت منها مع آية من آياته وهذا وحده إعجاز، وبقولنا معجزة: معناه أمر عجيب خارق للعادة .

من ذلك جمعه علوم الفلك والنّبات وطبقات الأرض والحيوان، وهو يجعل ذلك من بواعث خشيته، كما نجده يشير إلى عمليّة التّلقيح في النّباتات، فالتّلقيح فيها ذاتي وخلطي فالذّاتي ما اشتملت زهرته على عنصري التّذكير والتأنيث، و الخلطي هو ما كان عضو التّذكير منفصلا عن عضو التّأنيث كالنّخيل، فيكون التّلقيح بالنّقل وممّا يساعد في عمليّة التّلقيح الرّياح. كما نعرف الأكسجين ضروريّ للتنفّس عند الإنسان وحتّى الحيوان، وكلّما ارتفع نحو السّماء أحسّ بضيق الصّدر وصعوبة في التّنفّس [1]. وهذه الآيات الكريمة تلخّص لنا ما سبق ذكره وذلك في **قوله سبحانه وتعالى:** << أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ [2] **وقوله أيضا:**" وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ [3] قال تعالى: فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ >> [4].

فهذا الإعجاز العلمي يدفع المسلمين ويحثّهم على التّفكير في مخلوقات الله في السّماء والأرض، كما يفتح لهم أبواب المعرفة ويدعوهم إلى ولوجها. فرسل الله الّذين نُزّل عليهم

---

[1]- ينظر: منّاع قطّان: مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة ناشرون، لبنان، ط1، 1434 هـ-2013 م ، ص ص 147-149 .

[2]- من سورة فاطر(35) /الآيتان:27-28 .

[3]- من سورة الحجر(15) / الآية:22 .

[4]- من سورة الأنعام(6) /الآية:125 .

الوحي أيّدهم الله بخوارق العادات وتلك الآيات الكونية أبهرت الأبصار وأقامت الحجّة على النّاس وأعجزتهم، وأدانوا لها بالولاء والطّاعة لعدم قدرة العقل على معارضتها كمعجزة اليد والعصا لموسى، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى. إلّا أنّ معجزة الرّسول أي المعجزة المحمّدية الخالدة كانت معجزة عقلية تُحاجّ العقل البشري وتتحدّاه للأبد، فمعجزته كانت بعلومه ومعارفه وأخباره الماضية والمستقبلية إلى جانب قوّة البيان.

حاولوا محاكاته إلّا أنّهم عجزوا عن ذلك فصار القرآن بذلك معجزا للإنسانية كافة، فهو معجز في ألفاظه وأسلوبه وبيانه ونظمه وبعلومه ومعارفه وتشريعه وصيانته لحقوق الإنسان، وعندما عجزوا قالوا سحر يؤثر أو شاعر مجنون أو أساطير الأوّلين [1] .

2- العجائبي في رحلة ابن بطوطة:

إذا ذكر اسم ابن بطوطة يتبادر إلى أذهاننا مباشرة ذلك الرّحالة المعروف، ولا يدع لنا مكانا للرّيبة في انتمائه إلى فنّ الرّحلة الّذي يعتبر << فنّا هجينا جامعا لعدّة أجناس وأساليب ومضامين وأنماط تقترن بالغرائب والمغامرات الدّاخلية (الباطنية) والخارجية(المرجعية)>>[2].

فمن خلال قراءتنا لرحلة ابن بطّوطة نستشفّ جمعها عدّة أجناس، فبالإضافة إلى التّأريخ والجغرافيا والحياة الاجتماعيّة والدّينيّة، نجدها تقترن بالعجائب والغرائب كونها تحمل في ثناياها دلالات الدّهشة والحيرة من خلال وصفه لبعض الأماكن وعجائبها، إذ أنّه استطاع أن يرسم في رحلته عالما خارقا وذلك باعتماده وارتكازه على العجيب، الّذي لا نجده إلّا في الأساطير الّتي تُخترق فيها الحدود، فالأحداث فيها خارجة عن المألوف، وكلّ ما صادفه على حدّ تعبيره حقيقيّ وليس ضربا من الخيال. فإلى أيّ مدى وفق ابن بطّوطة في نقله للعجائبي في رحلته خاصّة وأنّه اهتمّ بهذا الجانب كاهتمامه بالجانب الاجتماعي والديني والسياسي والاقتصادي ؟.

---

[1]- ينظر: مباحث في علوم القرآن..، ص ص235-237 .

[2]- إبراهيم أكراف: بلاغة أدب الرحلة: قراءة تأويلية في نص "جزيرة سيلان" لابن بطوطة www.google.com.

2-1 عجائبيّة الأشخاص:

احتوت رحلة ابن بطّوطة على العجيب والغريب من الأحداث والوقائع والشّخصيات، وهذه الأخيرة عملت على التّأسيس لأفعال عجيبة من خلال تفجيرها للحدث وذلك بإعطائه تأويلات متعدّدة فساهمت بذلك في تأكيد سمة العجائبية للأحداث في الرّحلة، لكن هذا لا يعني بالضّرورة أنّ الشّخصيات كلّها تحمل صفة العجائبيّة المحضة بل قد تحتكّ بشخصيات أخرى واقعيّة [1] كصورة المرأة السّاحرة الّتي ساهمت في تأكيد سمة العجائبية في رحلة ابن بطّوطة بعد خضوعها لاختبار النّهر لتتأكّد بذلك صفة العجائبيّة في هذه الشّخصيّة، وهذه الأحداث كان ابن بطّوطة شاهدا عليها عند تولّيه شؤون الرّعيّة بالهند. قيل عن هذه المرأة أنّها تأكل قلوب البشر، وكان ذلك زمن القحط فانتشرت بذلك المجاعة، لكن الغريب في الأمر أنّ ما قيل عمّن كانوا ضحيّتها وجودهم دون قلب، وكانوا يكتشفون ذلك بعد شقّ صدورهم يقول ابن بطّوطة:<< ومنهم من ينظر إلى الإنسان، فيقع ميتا من نظرته، وتقول العامّة أنّه إذا قتل بالنّظر وشقّ عن صدر الميّت وجد دون قلب، ويقولون أُكل قلبه، وأكثر ما يكون هذا في النّساء. والمرأة الّتي تفعل ذلك تسمّى كفتار، لمّا وقعت الجماعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط، والسّلطان ببلاد التلِنك، نفّذ أمره أن يعطى لأهل دلهي ما يقوتهم، بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم، فجمعهم الوزير ووزّع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولّوا إطعامهم، فكان عندي منهم خمسمائة نفس فعمّرت لهم سقائف في دارين وأسكنتهم بها، وكنت أعطيتهم نفقة في خمسة أيّام. فلمّا كان في بعض الأيّام أتوني بامرأة منهم قالوا أنّها كفتار، وقد أكلت قلب صبيّ كان إلى جانبها وأتوا بالصّبيّ ميتا. فأمرتهم أن يذهبوا إلى نائب السّلطان، فأمر باختبارها وذلك بان ملُوا أربع جرّات بالماء وربطوها بيديها ورجليها، وطرحوها في نهر الجون فلم تغرق، فعلم أنّها كفتار، ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار، فأمر بإحراقها بالنار، وأتى أهل البلد رجالا ونساء فأخذوا رمادها، زوعموا أنّه من تبخّر به أمن في تلك السّنة من سحر كفتار >> [2] .

---

[1]- ينظر: العجائبي في المخيال السّردي" في ألف ليلة وليلة" ..، ص 70 .

[2]- نفسه..، ص 623 .

ومن ذلك ما نقله عن السلطان محمد شاه بن السلطان غياث الدّين تُغلُق شاه ملك الهند والسّند عجائبه لم يُسمع بها من قبل، كان سخيّا لدرجة لا توصف، بالمقابل كان محبّا لإراقة الدّماء – لذوي الجنايات–، كما كان من أشدّ الناس تواضعا رغم علوّ شأنه، وأكثرهم إظهارا للعدل والحقّ، شعائر الدّين عنده محفوظة، حريص على الصّلاة ، يعاقب تاركها، إذ نجد ابن بطّوطة يؤكّد ما نقله عنه بقوله: << وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أنّ جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حقّ وكفى بالله شهيدا. واعلم أنّ مآثره من ذلك لا يسع في عقل كثير من النّاس يعدّونه من قبيل المستحيل عادة، ولكن شيئا عاينته وعرفت صحّته وأخذت بحظّ وافر منه، لا يسعنني إلاّ قول الحقّ فيه و أكثر ذلك ثابت بالتّواتر في بلاد المشرق>>[1]. بهذا التّصريح يريد أن يتوجّه إلى كلّ من ساورته الشّكوك فيم ورد في رحلته، فكلّ ما نقله على حدّ تعبيره هو حقيقي لا مجال للتّشكيك بصحّته.

ومن عجائب رحلته قصّة شيخ بدمياط وهذا الأخير كان ملازما لمقبرتها، وسبب اعتزاله محاولة النّساء مراودته عن نفسه كونه كان حسن الوجه إلّا أنّه أبى واستعصم ، فلجأ إلى طريقة جعلت النّساء ينفرن منه بعد محاولة امرأة بشتّى الوسائل دعوته لنفسها إلى أن تمكّنت من ذلك، واجتمعا في بيت واحد وراودته عن نفسه كعادتها، فلمّا رأى أنّه لا خلاص له طلب منها أن ترشده لبيت الخلاء، فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحته ومنذ ذلك اليوم بقي على تلك الحال، وأصبح كلّ من يتعرّض لمثل ذلك الموقف يسلك طريقته.

وبعد ذلك لازم هذا الشّيخ مقبرة بدمياط وهذه المدينة << كان بها قاض يعرف بابن العميد خرج يوما إلى جنازة بعض الأعيان فرأى الشيخ جمال الدّين بالمقبرة. فقال له: أنت الشّيخ المبتدع، فقال له: وأنت القاضي الجاهل تمرّ بدابتك بين القبور، وتعلم أنّ حرمة الإنسان ميّتا كحرمته حيّا. فقال له القاضي: وأعظم من ذلك حلقك للحيتك، فقال له: إيّاي تعني ؟. وزعق الشّيخ ثمّ رفع رأسه فإذا هو لحية سوداء عظيمة، فعجب القاضي ومن معه ونزل إليه بغلته. ثمّ زعق ثانيا فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة. ثمّ زعق ثالثا ورفع رأسه فإذا

[1]– تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار..، ص511 .

هو بلا لحية كهيئته الأولى. فقبّل القاضي يده وتتلمذ له، و بنى له زاوية حسنة وصحبه أيّام حياته حتّى مات الشّيخ فدفن بزاويته >> [1].

العجيب في هذه القصّة يتجلّى في تحوّل هذا الشّيخ فتصرّفه الأوّل –حلقه للحيته وحاجبيه– مقبول وطبيعي، لكنّ ابن بطوطة نقلنا بعد ذلك إلى عالم الخوارق والأعاجيب، وهو حدث فوق طبيعي فيه حيرة و دهشة وشكّ وتردّد وريب، وكلّ من الشّكّ والحيرة يعدّ جوهر العجائبي وصميم تكوينه. فالعجائبي يكمن في الشخصية المتحوّلة وما كان في جسدها من تغيّر وهذا الأخير هو << من أهمّ موضوعات العجائبي، فالجسد بتحوّلاته..، يجعل منه جسدا منفلتا ملتبسا وعجائبيّا يثير أسئلة حول واقعيّته ولا واقعيّته >>[2].

ومن عجائب الأشخاص الّذين صادفهم في رحلته رؤيته لامرأة لها ثدي واحد، ولها بنتان واحدة بثدي كأمّها والأخرى بثديين أحدهما كبير فيه لبن والآخر صغير لا لبن فيه في جزائر ذبية المهل [3]. والملاحظ في رحلة ابن بطّوطة أنّه إذا صادف فيها حدثا خارقا للعادة، نجده يستهلّ قصّته بقوله والغريب أو ومن عجائبها.

2-2 عجائبية الأحداث :

ذكر لنا ابن بطّوطة في رحلته أنّه كلّما رأى أشياء عجيبة خارقة وغير اعتيادية، أُعطيت له أدوية لتهدّئه إذ نجده يصرّح بذلك عند زيارته لمدينة الخنسا بالصّين فيقول: << حضر أحد المشعوذين وهو من عبيد القان، فقال له الأمير: "أرنا عجائبك". فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها في الهواء، فارتفعت حتّى غابت عن الأبصار، ونحن في وسط المشور أيّام الحر الشّديد، فلمّا لم يبق من السّير في يده إلاّ يسير، أمر متعلّما له فتعلّق به وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا. فدعاه فلم يجبه ثلاثا، فأخذ سكّينا بيده كالمغتاظ وتعلّق بالسير إلى أن غاب أيضا. ثمّ رمى بيد الصّبيّ إلى

---

[1]– المرجع السابق: ج1..، ص49–50 .

[2]– حسين علام: العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431 هـ – 2010 م، ص208 .

[3]– نفسه..، ص673 .

الأرض، ثمّ رمى برجله، ثمّ بيده الأخرى، ثمّ برجله الأخرى، ثمّ بجسده، ثمّ برأسه ثمّ هبط وهو ينفخ وثيابه ملطّخة بالدّم، فقبّل الأرض بين يدي الأمير وكلّمه بالصّيني، وأمر له الأمير بشيء. ثمّ أنّه أخذ أعضاء الصّبيّ فألصق بعضها ببعض ركله برجله، فقام سويّا، فعجبت منه، وأصابني خفقان القلب كمثل ما أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك فسقوني دواء أذهب عنّي ما وجدت>>[1]. وهنا تناول الرّحّالة شخصية أخرى متحوّلة، وهذه الشّخصية العجيبة تعرّضت إلى التّحوّل من شخصية حيّة إلى شخصية ميتة جعلها تشارك في صنع الأحداث، فوظّف من خلالها اللّاواقعي، وبذلك يكون قد أعطى للأحداث (الحبكة على وجه الخصوص) بعدا عجائبيا وبذلك فقد وهب النّص تأثيرا وتساؤلات لم يجد لها المتلقّي إجابة أو تفسيرا كونه اخترق بذلك الواقع المتعارف عليه وشكّل واقعا فريدا من نوعه ليدخله بها عالما غير طبيعي. فتلك الأحداث العجيبة استطاعت أن تستقطب وتجلب أنظار ابن بطّوطة وتثير مشاعر الرّهبة في نفسه وهذا يدلّ على قدرة الطّرف الآخر الخارقة في خلق العجيب الّذي ظنّه ابن بطّوطة حقيقة ليكتشف بعد ذلك أنّ كلّ ما شاهده كان مجرّد خدعة .

2-3 العجائبية في الزّمان و المكان :

من ذلك وصفه لمنطقة من المناطق الّتي مرّ بها أثناء رحلته: الأندلس وبالتّحديد في تاغازى إذ نجده يقول أنّه << لا خير فيها، من عجائبها أنّ بناء بيوتها ومساجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها، إنّما هي رمل فيه معدن الملح، يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام، متراكبة كأنّها قد نحتت ووضعت تحت الأرض>>[2].

كما نجده يصف البقر الوحشية فيقول: إنّ أكلها يولّد العطش..، ومن العجائب أنّ هذه البقر إذا قتلت وجد في كروشها الماء، ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها ويشربون الماء الّذي فيه[3]. وأثناء وصفه للمزرات والقبور وجدناه يقف على قبر أويس القرني الموجود بدمشق، حيث أنّه نقل لنا ما قرأه في كتاب المعلم في شرح صحيح مسلم للقرطبيّ

---

[1]- المرجع السابق ج1..، ص273 .

[2]- نفسه..، ص773 .

[3]- نفسه..، ص 775 .

عن هذا الصّحابيّ أنّه كان بصحبة جماعة اصطحبهم هذا الأخير من المدينة إلى الشّام فتوفّي في أثناء الطّريق في برّية لاعمارة فيها ولا ماء، فتحيّروا في أمره، فنزلوا فوجدوا حنوطا وكفنا وماء، فتعجّبوا من ذلك، وغسّلوه وكفّنوه وصلّوا عليه ودفنوه، ثمّ ركبوا. فقال بعضهم: كيف نترك قبره بغير علامة؟. فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر أثرا [1]. فالفضاء الّذي نقله لنا ابن بطّوطة غير عاديّ خارج عن المألوف كما أنّ له علاقة وثيقة بالزّمن، فالفضاء الّذي توفّي فيه أويس كما ذكر ابن بطوطة يفتقر للماء لكن في وقت قياسيّ غير محدّد وجدوا به كلّ مستلزمات الميّت فهو بذلك فضاء غامض نظرا لتوفر الماء في مكان يفترض انعدامه فيه وما زاده غموضا اندثار القبر. فكلّ ما سبق ذكره من أحداث هي أحداث غير طبيعيّة تنتهي بتفسير فوق مستوى الطبيعة، وهذا ما يطلق عليه مصطلح العجيب أو العجائبي وهذا ما جعلنا نبحث عن هذه الشّخصية الواردة في رحلته وعن الظّروف الّتي أحاطت بوفاته. و بعد بحث وتنقيب في المصادر والمراجع، وجدنا بعضها يتناول سيرته دون الإشارة إلى طريقة وفاته كصحيح مسلم في جزئه السّادس عشر، أمّا في كتاب أسد الغابة في معرفة الصّحابة فقد ذُكر فيه أنّه قتل يوم صفين مع عليّ كرّم الله وجهه[2].

وإجمالا يمكننا القول أنّ المكان يتحدّد انطلاقا من علاقته بالزّمن كما أنّه يستمدّ أهمّيتة داخل السّرد، وهذا ما يؤكّده ج. برنس" G.Prince" بقوله:<< يحتلّ المكان دورا بارزا في النّص أو يشغل حيّزا ثانويّا فيه قد يكون حركيّا فعّالا أو ثابتا سكونيّا، وقد يكون متناسقا أو غير متناسق واضح الملامح أو غامضها، مقدّما بشكل عفويّ غير مرتقب، تتناثر جزئيّاته عبر فضاء النّص>> والملاحظ أنّ الرّحّالة بصفة عامة يعتمد استراتيجية من خلالها يجعل المتلقّي يصدّق ما يقوله وما يسرده من وقائع، منطلقا من وصف الأماكن ليخطّ طريقه إلى العجيب والغريب، متعاملا مع المتلقّي بأنّه خالي الذّهن فيصطدم بشخصيات وأحداث لا واقعية وغير مألوفة، إلى أن يأنس منه التردّد والحيرة المولّدين للدّهشة.<< وقد حصر تودوروف العجائبي داخل فترة التردّد، والتردّد بين تفسير طبيعي وآخر فوق طبيعي وهو

---

[1]– ينظر: المرجع السابق...، ص 112.

[2]– ينظر: عزّ الدين بن الأثير بن أبي الحسن علي بن محمد الجزريّ : أسد الغابة في معرفة الصّحابة، ج1، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ص333 .

السّمة الأساسية في وصف العمل بالعجائبي >>[1].إذ يمكننا القول أنّ العجائبي أضفى على الأحداث سحرا وزاده طاقة وقوّة وإيحاء، كما استطاع أن يحقّق المتعة والمؤانسة للمتلقي، فهو عالم متميّز مليء بالعجيب والغريب بعيد عن الواقع يخترق فيه المبدع الممنوع و لكلّ ما هو واقعي متداول ومألوف.

ثانيا: رحلة ابن بطوطة بين الحقيقة والتأليف:

بعد أكثر من ربع قرن انتهى ابن بطوطة من رحلته، وهذه الأخيرة لم يتجاوزها أحد قبل عصره، لا من حيث المسافة ولا من حيث الزمن. فهو لم يدوّن أحداث رحلته حينها إلا أنه استطاع أن يحتفظ بها في ذاكرته، كما كانت لديه براعة في سرد أحداثها ووصف أماكنها وتحريك شخصياتها بعد استحضارها وعنوان كتابه يعكس لنا ذلك، فهناك من صدقه وهناك من ساورته الشكوك بشأن مصداقيتها من عدمها متهمين إيّاه بالكذب لما فيها من المبالغة على حد تعبيرهم، وبذلك انقسم المستمعون إلى قسمين:

1- قسم أعجب بما سمعه أخذته الدهشة مصدقا تلك الروايات:

وهذا القسم سانده ودافع عنه كما أنّه واجه الصنف الثاني ومن ضمن هؤلاء:

1-1 الوزير فارس بن وردار الحشمي:

فالوزير كان ممن دافعوا عن ابن بطوطة لمّا رماه ابن خلدون بالكذب مذكرا إياه بمصير ابن الوزير الناشئ الذي عوقب والده بشدة ومكث معه بالسجن سنين بسبب استنكار والده لمثل هذه الأحداث إذ نجد ابن خلدون يفصّل في ذلك قائلا: << ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت، ففاوضته في هذا الشّأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه. فقال الوزير فارس: إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول، بما أنّك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن ؛ وذلك أنّ وزيرا اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربى فيها ابنه في ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم التي كان يتغذى بها، فإذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما

---

[1]- نورة بنت إبراهيم العنزي: العجائبي في الرواية العربية،" نماذج مختارة" ، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، د. ت، ص13.

الغنم فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها، فيقول يا أبت تراها مثل الفار فينكر عليه، فيقول أين الغنم من الفار. وكذا في لحم البقر والإبل إذ لم يعاين في محبسه إلا الفار، فيحسبها كلها أبناء جنس الفار >> [1] .

1-2 السلطان أبو عنان المريني:

نتيجة ذيوع أمر حكايات ابن بطوطة ورواياته عن رحلاته وشيوعه بين الناس، دعاه سلطان بني مرين أبو عنان إليه، فالتحق ببلاطه ومن ثمّ أمر بتدوين رحلته[2] بعدما تحدث ابن بطوطة عن أسفاره وقصّ أخباره على السلطان نفسه وعلى خواصه وعلى العلماء. أعجب السلطان بها وأصدر أوامر بأن يملي ما شاهده من رحلته من الأمصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار، ليضع كاتبه ابن جزي تحت تصرّف الرحالة، فكانت لنا من ذلك هذه المتعة الأدبية التي ننعم بقراءتها فنطلع على كنوز من المعرفة. ويجدر أن نذكر << أنّ ابن بطوطة كان قد فقد أوراقه وكتبه غير مرّة، ولذلك فقد أملى الرحلة من الذاكرة. وهذه الأسفار التي قام بها، لم يكن من السّهل تذكرها مرتبة منظمة، ومن ثم فقد بدا في الرحلة شيء من الاختلاط الذي أثار بعض الريب في نفوس معاصريه ومن جاء بعدهم، مثل ابن خلدون>>[3].

وقد أكد البعض على مصداقية رحلته وما تضمّنته من معلومات، بعد مقارنة هذه الأخيرة بما جاء به من عاصروه أو من جاؤوا بعده ممّن زاروا نفس المناطق الّتي قصدها ابن بطّوطة من ذلك ما ورد عن الرّحالة الإيطاليّ " Frescobaldi". هذا الأخير قصد مصر بعد ستّين سنة تقريبا من زيارة ابن بطّوطة لها، وقد اندهش من عدد السّفن والبواخر الّتي تحتوي عليها القاهرة فهي لا تعدّ ولا تحصى، فهو بذلك يؤكّد ما نقله ابن بطّوطة حين

---

[1]- مقدمة ابن خلدون..، ص ص 328-329.

[2]- ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3..، ص274 .

[3]- الجغرافية والرحلات عند العرب..، ص189.

قال بأنّ نيلها يضمّ << ستّة وثلاثين ألف مركب للسّلطان وللرّعيّة >>[1] . وذلك كان بالنّسبة لهم دليلا قاطعا على صدق ما نقله ابن بطّوطة، كما لقّبه البعض بالرّحّالة الصّادق النّزيه[2]،

إذ نجد مترجما رحلة ابن بطّوطة: C .Defrémery و B.R Sanguinetti يؤكّدان ذلك في مقدّمة كتابهما [3] بعدما اتّهم ابن بطّوطة بالكذب مستشهدان بما نقله لنا الرّحّالة الإيطاليّ عن مصر وعن قوّة أسطولها ومطابقة ما نقله هذا الأخير بما ورد في رحلة ابن بطّوطة مدعّمان ما توصّلا إليه بقولهما: إنّ التّأكّد من المعلومة يكون عن طريق نقل تلك الحقائق ممّن زاروا نفس المناطق وممّن عاشوا تلك الحقبة الزّمنيّة الّتي عاشها الرّحّالة فإذا كانت المعلومات متطابقة فلا مجال للشّكّ في صحّتها.

---

[1]- تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص 35.

[2] – Voyage d'ibn Batoutah ,tome1 , texte arabe accompagné d'une traduction par :C .Defrémery et B.R Sanguinetti , imprimer par autorisation de l'empereur a l'imprimerie impériale ,Paris ,p9.

[3] << –L'épreuve la plus concluante à laquelle on puisse soumettre la véracité d'un voyageur ,c'est de rapprocher son témoignage de celui des individus qui ont visité les mêmes contrées ,surtout si ceux–ci ont vécu à peu près à la même époque ..,nous avons trouvé les assertions d'Ibn Batoutah assez conformes à celles de de ses contemporains et de ses successeurs..,Ibn Batoutah rapporte qu'il y avait sur le Nil trente –six mille bateaux appartenant soit au sultan soit aux particulier.., sont doute ,le chiffre de trente–six mille bateaux ne doit pas être pris à la rigueur ,il faut en rabattre une portion ;mais nous voyons par le récit d'un voyageur italien « Frescobaldi »,qui visita l'Egypte moins de soixante ans après notre auteur.. ,il y avait au Caire ,dit –il une immense quantité de navires ,au point que si l'on additionnait tous ceux que j'ai vus dans les ports de Gênes >> (Voyage d'ibn Batoutah ,tome1..,p10).

2- قسم بين شاك ومكذب:

هذا الصنف كان له وجهة نظر مخالفة و رأى بأنّ ابن بطوطة كان يغالي ويبالغ في وصفه، واتهموه بالكذب لما تحتويه من أحداث غريبة وعجيبة لم تستوعبها عقولهم فمن الذين رموه بالكذب:

2-1 القاضي المشهور: أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السلمي بن الحاج البلفيقي ت771هـ -1369م[1]:

هو شيخ ابن جزي، قال عنه أنه كان قاضي الجماعة وأخطب الخطباء [2]. إذ نجد البلفيقي يقول عن ابن بطوطة بعد عودته إلى المشرق: << حدثنا بغرائب مما رآه فمن ذلك أنه زعم أنه دخل القسطنطينية فرأى في كنيستها أثني عشر ألف أسقف >> [3]. وهذا التعقيب جاء بعدما التقى به في غرناطة، فلفظة زعم هنا تدل على التشكيك فيما رواه ابن بطوطة على مسامعهم.

---

[1]- << وهو أيضا من شيوخ لسان الدين بن الخطيب الإمام العلامة نادرة الزّمان وشاعر ذلك الأوان، هو محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن الشّيخ الولي أبي إسحاق بن الحاج البلفيقي، وكان أبو البركات أحد رجال الكمال علما ومجدا وسؤددا وموروثا ومكتسبا، كان فقيه الأندلس وحسيبها وصدرها وشيخها ، توفي سنة 771هـ >> (أحمد بن محمد المقري التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، مج5، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، د.ط، 1388هـ -1968م ، ص471).

[2]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، تقديم وتحقيق: محمد عبد المنعم العريان..، ص35 .

[3]- شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثمانية، تحقيق: محمد عبد المعيد، مج4، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر آباد، الهند، د.ط، 1392هـ-1972م، ص227 .

2-2 لسان الدين بن الخطيب 713هـ-1313م / 776هـ-1374م[1]:

نجد لسان الدين بن الخطيب يعقب عمّ رواه ابن بطوطة – حسب ما نقله لنا في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة في مجلده الثالث– << ودخل جزيرة الأندلس فحكى بها أحوال المشرق، وما استفاد من أهله فكُذِّب، وقال لقيته بغرناطة وبتنا معه ببستان أبي القاسم بن عاصم بقرية نِبْلة وحدثنا في تلك الليلة وفي اليوم قبلها عن البلاد المشرقية وغيرها، فأخبرنا أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينية العظمى، وعلى قدر مدينة مسقفة كلّها، وفيها اثني عشر ألف أسقف، **قلت: وأحاديثه في الغرابة أبعد من هذا** >>[2] . فهذه العبارة– **قلت: وأحاديثه في الغرابة أبعد من هذا**– بدورها توحي بعدم تصديق ابن الخطيب

---

[1]– هو<< لسان الدّين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني ولد في الخامس والعشرين من رجب سنة 713هـ >> (لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مج 4، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1397هـ – 1977م، ص634).

<< والسّلماني نسبة إلى سلمان، وهو حيّ من مراد من عرب اليمن القحطانية، وقد دخل الأندلس عقب الفتح منهم جماعة من الشّام ومنهم سلف لسان الدّين، وهذا اللّقب يغلب عليه لا سيما في المغرب حيث كان يعرف بابن الخطيب السّلماني. أمّا لسان الدّين فيقول ابن الخطيب إنّه لقب من الألقاب المشرقية كان أعظم شخصية ظهرت في القرن الثامن الهجري كان عبقرية متعددة النواحي فهو طبيب وفيلسوف، وهو كاتب وشاعر من الطّراز الأوّل، وهو مؤرّخ بارع، ووزير سياسي، بلغ القمّة في كلّ منها ثاقب النّظر قويّ الإدراك كان يمثّل بعبقريّته وقوّة نفسه وأصالة تفكيره وروعة بيانه، وجزالة شعره، وسعة آفاقه، قتل بعد اتّهامه بالإلحاد والطّعن في الرّسول صلّى الله عليه وسلّم والزّندقة فعزّر– ضرب أشدّ الضّرب– وعذّب أمام الملإ، وأفتى بعض الفقهاء المتعصّبين بقتله، فسجن وقتلوه خنقا في سجنه واخرجوا جثّته في الغد، ودفنت بالمقبرة الواقعة تجاه باب المحروق، أحد أبواب فاس القديمة. ثمّ أخرجت جثّته في اليوم التّالي، وطرحت فوق القبر، وأضرمت حولها النّار فاحترق شعر الرّأس، واسودّت البشرة، ثمّ أعيدت الجثّة إلى القبر قبل أن تحترق، وتركت هنالك لتثوى الثّوى الأخير، ووقعت هذه المأساة الأليمة في ربيع الأوّل أو ربيع الثّاني سنة776هـ "أغسطس أو سبتمبر 1374م>> (ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة ، مج1..، ص ص18 –43 .

[2]– نفسه مج3 ..، ص272 .

لما نقله ابن بطوطة على مسامعه والتّشكيك في مصداقية رحلته، بحكم أنّ لسان الدين ابن الخطيب ممن عاصروه .

لكن بعد عودتنا لكتاب ابن بطوطة بمختلف الطبعات والمحققين بالتحديد فيما يتعلق بوصفه للقسطنطينية لم يصرح بما نقله وذكره ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب في كتابهما. نعم شبهها بالمدينة لكنه لم يذكر لنا عدد أسقفها، إذ نجده يقول في وصفه للقسطنطينية: << وفي اليوم الرابع من وصولنا إلى القسطنطينية بعثت إلى الخاتون الفتى سنبل الهندي، فأخذ بيدي وأدخلني غلى القصر. فجزنا أربعة أبواب، في كلّ باب سقائف بها رجال وأسلحتهم >>[1].

أما فيما يتعلّق بوصفه للكنيسة العظمى نجده يقول: << والكنيسة العظمى إنّما نذكر خارجها وأمّا داخلها فلم أشاهده، وهي تسمّى أيا صوفيا، ويقول أنّها من بناء آصف بن برخياء وهو ابن خالة سليمان عليه السلام وهي من أعظم كنائس الروم، وعليها سور يطيف بها فكأنّها مدينة، وأبوابها ثلاثة عشر بابا، ولها حرم نحو ميل عليه باب كبيرة..، وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة، والأشجار منظمة من جهتي الساقية، ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع..، وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدّامها..، ولا يدعون أحدا بداخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم، الذين يزعمون أنه بقية من الخشبة التي صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام وهو على باب الكنيسة، مجعول في جعبة من ذهب طولها نحو عشرة أذرع، وقد عرضوا عليها جعبة ذهب حتى صارت صليبا>>[2].

انطلاقا مما نُقل عن ابن بطوطة في كتابه رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار، لم يصف لنا الكنيسة من الداخل لأنّ أقدامه لم تطأها. فابن بطوطة وصف لنا حرم الكنيسة ولم يصفها من الداخل لأنّ الفرصة لم تسمح له بالدخول، بسبب

---

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، تقديم وتحقيق: محمد عبد المنعم العريان..، ص386 .

[2]– نفسه..، ص389.

القوانين التي تحتّم على من يودّ ولوجها تطبيقها، وبالنسبة لابن بطوطة كان مطلبا تعجيزيا يستحيل تطبيقه بحكم أنّه معتنق للدّين الإسلاميّ ومن المستحيل أن يسجد لغير الله – الصّليب– ليكتفي بدخول حرمها مصرّحا بذلك عند وصفه للكنيسة العظمى قائلا أنه سيصف خارجها أما داخلها فلا

يقول ابن بطوطة: << دخلت معه إلى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفا، ولمّا قارب الباب الأعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه وهو من كبارهم في الرهبانية..، فقلت له: أريد الدخول معك إلى الكنيسة. فقال للترجمان: لا بدّ لداخلها من السجود للصّليب الأعظم، فإنّ هذا ممّا سنّته الأوائل ولا يمكن خلافه، فتركته ودخل وحده ولم أره بعدها >> [1] .

وقد عدت إلى مختلف الطبعات الخاصة برحلة ابن بطوطة كما سبق وأن ذكرنا، إلاّ أنها لم تحمل في طياتها عند وصفه للقسطنطينية ولكنيستها العظمى عدد أسقفها، حتى في كتاب مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار تهذيب وضبط غريبه وأعلامه لأحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك في جزئه الأول طبعة 1933[2].

3-2 ابن خلدون 732هـ- 1332م/707هـ - 1406 م[3]:

كان ابن خلدون ممن رموا ابن بطوطة بالكذب لأن تلك الحكايات التي رواها–حسب رأيه– كانت من نسج خياله ولا أساس لها من الصحة وهي أحداث لا يصدّقها ولا يتقبّلها

---

[1]– المرجع السابق..، ص 391.

[2]– شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي: مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه: أحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك، مطبعة الأميرية، القاهرة، د. ط، 1933م، ص ص 283–293 .

[3]– هو << أبو زيد وليّ الدّين عبد الرّحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد جابر بن إبراهيم بن عبد الرّحمن بن خلدون الحضرمي، وهو من المؤلّفين الّذين تركوا في الفكر العربي والإسلامي أثرا عميقا، ومن كبار المؤرّخين الّذين أنجبتهم الإنسانيّة >> (أعلام الجغرافيين العرب" مقتطفات من آثارهم" ..، ص580) .

العقل البشريّ، لما تتضمّنه من عجائب وغرائب إذ اعتبر وصفه لكنيسة مدينة القسطنطينية حكاية طريفة .

وممّن عملوا على إثبات صحّة روايات ابن بطوطة وتصديقها كراتشكوفسكي وذلك في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي، إذ نجده يقول:<< ولعله لم يكن من قبيل الصدفة المجرّدة أن يسير التأرجح بين اليقين والشّكّ في شأن ابن بطوطة بنفس التتابع الزمني الذي ساره موقف العلماء المحدثين من الجغرافيين العرب الآخرين. فالباحثون الأوائل الذين تعرّفوا على المتن الأصلي لابن بطوطة بصورة مباشرة مثل كوزغارتن kasegarten ولي lee قد وثقوا ثقة تامة في صدق روايته، ثمّ أعقب ذلك فترة من التشكك بلغت غايتها في موقف النقد المتطرّف الذي وقفه يولyule من ابن بطوطة >>[1].

فتشكيكهم كان منطلقه العامل الزمني وفي << تحديده للمسافات والأماكن مما أسدل عليه الزمن ستار النسيان بالنسبة له>>[2].

أمّا فيمن يشكّك في الأحداث العجيبة والغريبة الّتي تضمّنتها رحلته فحجّتهم تكمن في أنّ هذه الأحداث غير الواردة في كتابه كان قد رواها في إحدى ليالي السمر، لمّا اجتمع بهم، و نظرا لاعتماد كاتبها على الاختصار في سرد أحداث رحلة ابن بطوطة، استنادا على ما ورد في كتاب الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ كونه << لم ينشر من الرحلة إلا قسم اختصره ابن جزي بأمر من السلطان أبي عنان المريني >>[3]. وهم بدورهم قدّموا الحجج والبراهين حيث انصبّ تركيز الدارسين لرحلة ابن بطوطة حول صحّة زيارته لثلاث من عدمها وهي: البلغار والصّين والقسطنطينية. وحجته في عدم تأكدهم من زيارة ابن بطوطة للصين مثلا خلطه الكبير في أسماء الأماكن، والقفز من منطقة إلى أخرى بالرغم من وجود سدود نهرية وجبلية تحول دون ذلك، ففي حديثه عن الصين أشار إلى أنّ سكان الصين وبالتحديد أهل "مُل جاوه "كانوا يقتتون الفيلة ويعتمدون عليها في حياتهم اليومية قائلا:

---

[1]– تاريخ الأدب الجغرافي العربي ،ج1..، ص428.

[2]– نفسه..، ص427.

[3]–عبد العزيز بن عبد الله: الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ..، ص48.

<< والفيلة بها كثيرة جدّا عليها يركبون ويحملون، وكلّ إنسان يربط فيلته على بابه، وكلّ صاحب حانوت يربط فيله عنده، ويركبه إلى داره، وكذلك جميع أهل الصين>> [1].

غير أنّه بمثل هذه الإشارة – كما قيل– يعزّز الشكوك في أنه لم يحطّ رحاله بهذه المنطقة بتاتا، لأنّها منطقة لم تستعمل الفيلة في تلك الحقبة إلا كحيوانات استجلبت للحرب وللاحتفالات الملكية فقط [2].

بالإضافة إلى ما ورد في مجلّة أكاديمية المملكة المغربية في عددها الثّامن عشر والمقال كان لـ: جزيل عبد الجبّار الجومرد، تحت عنوان : رحلة ابن بطوطة إلى الموصل بين الحقيقة والتأليف[3]. حيث اختتم مقاله بقوله:<< يتبيّن لنا كخلاصة لما سبق أنّ ابن بطوطة لم يضف شيئا يذكر إلى ما قاله ابن جبير في وصف الطريق من بغداد إلى الموصل، وتأتي بعض الإضافات الصّغيرة على معطيات ابن جبير فقط أثناء الرّحلة عبر إقليم الجزيرة..، وهي إضافات لا تخلق رحلة، ونستقرّ على القناعة بأنّ ابن بطوطة لم يقم بتلك الرّحلة، إنّما نسجها له ودبّجها تأليفا رجل ضليع بالأدب والتاريخ والألغاز يحسن سبك النصوص، ذلك هو ابن جزي..، مات بعد ثمانية أشهر من إنجازه كتابة الرحلة عن ستّ وثلاثين سنة، قبل أن يتيح الزّمان فرصة لشفتيه كي تخبرا بتفاصيل تدوين تلك الرحلة الخالدة وعاش ابن بطوطة بعده طويلا..، دون أن يضيف إلى ما نعرفه أو لا نعرفه عنها شيئا جديدا >> [4] .

إلاّ أنّ هناك من برّأ ابن بطوطة حجتهم في ذلك جمعه للمعلومات دون اعتماده على المترجمين أو الأدلاء، الأمر الذي قد يدلّ على صدق روايته في حين نجد "**جب**" يعلّق

---

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2..، ص712.

[2]– ينظر: ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة: نسيج الواقع والخيال..، ص29.

[3]– ينظر: جزيل عبد الجبّار الجومرد: رحلة ابن بطوطة إلى الموصل بين الحقيقة والتأليف، مجلّة أكاديميّة المملكة المغربية، ع 18، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 2001 م، ص ص 175–195.

[4]– نفسه..، ص 193 .

قائلا:<< في الحقيقة لا أستطيع أن أرى بديلا عن عدم وصول ابن بطوطة إلى الصين إلاّ أن نعتبر أنّ وليّا من متصوّفة الهند قد عمل على تنويم ابن بطوطة مغناطيسيّا وأوهمه بذهابه على بلاد الصين >>[1].

فعلى الرّغم من كلّ الانتقادات إلا أنّ كتاب ابن بطوطة كان ولازال يمثّل المرجع الأوّل لدارسي الأدب والجغرافيا والتاريخ، لما يحمله من معلومات عن مختلف الأمصار خلال القرن الرابع عشر ميلادي – القرن الثامن الهجري– إذ نجد شهرته بلغت الآفاق وأصبح يضرب به المثل عند التطرّق لأدب الرحلات.

[1]– المرجع السابق..، ص 33 .

الفصل الثالث

صورة المرأة في رحلة ابن بطّوطة

أوّلا: صورة المرأة في القرن الثّامن الهجري من خلال رحلة ابن بطّوطة:

1- صورة المرأة القائدة والحاكمة

2- صورة المرأة المخطّطـــــــــة.

3- صورة المرأة الكريمة والمنجزة

4- صورة المرأة بين العادات والتقاليد

5- صورة المرأة المضطهـــــدة

6- صورة المرأة المراودة للرّجال

7- صور متفرّقة عن المـــــرأة

7-1 صورة المرأة المؤذية لزوجها

7-2 صورة المرأة الجاسوســـة

7-3 صورة المرأة المحرّضة على القتال

7-4 صورة المرأة العابدة في القسطنطينية

7-5 صورة المرأة المغنية – مدينة آباد-

7-6 صورة المرأة الجاريـــــــة

ثانيا: ابن بطّوطة وعالمه مع المرأة

1- صورة المرأة الأمّ-أمّ ابن بطّوطة-

2- صورة المرأة الزّوجة

3- صورة المرأة البنت – بنت ابن بطوطة

4- صورة المرأة الجارية – جواري ابن بطّوطة

5- صورة المرأة الجسد

ثالثا: الأبعاد الخفيّة في رحلة ابن بطّوطة

1- البعد الدينـــــي

2- البعد الاجتماعي

3- البعد النّفســـي

4- البعد السيــاسي

استطاع ابن بطوطة أن ينقلنا عبر رحلاته إلى عالم آخر وهو عالم المرأة، وإن كان الحديث عنها قديم قدم البشرية مذ خلقت أوّل امرأة في الوجود. فكانت بالنّسبة له جزءا لا يتجزأ من رحلته ولا من كيانه، تأثّر تارة بجمالها وتارة بشخصيتها ومرات بوفائها وصبرها وإخلاصها وحسن معاشرتها، مستهجنا رافضا صفات أخرى كون تلك الأمصار تشترك مع وطنه في أمور ولا تتوافق معه في أخرى كالدّين والعادات و التقاليد .

فمن هي هذه المرأة وما العلاقة التي كانت تربطه بها؟. أهي الأمّ التي ربته وسهرت على راحته ورعايته؟. أم هي الأخت التي تربّت معه؟. أم هي الزوجة التي صانت عرضه وحفظته وأحبته وتحملت بعاده عنها وبقيت تنتظر عودته؟. أم تلك المرأة التي آثرت التخلي عن ذويها لتكمل معه مسيرته الشاقة؟. أو البنت البارة بأبيها الحريصة على كسب رضاه ورضى الإله؟. أم الحبيبة التي عشقته وآنسته وحدته ووحشته؟. أم هي السلطانة التي أكرمته وأحسنت ضيافته؟. كيف كان ينظر إليها وكيف كان يتعامل معها وما الّذي شده إليها؟. أورعها وطاعتها وعفّتها أم جمالها؟. وهل قضى تلك السّنوات الطّويلة زاهدا أعزبا أم أنّه لم ينس نصيبه من الدّنيا؟.

هذا ما سنكتشفه في هذه الجولة عبر سطور رحلات ابن بطوطة في عالم المرأة.

أوّلا: صورة المرأة في القرن الثّامن الهجري من خلال رحلة ابن بطّوطة:

يعتبر ابن بطوطة من الشّخصيات الأسطورية التي جابت الآفاق في عصر غابت فيه وسائل تعين الرّحالة على خوض غمار شدّ الرحال، دون راحلة ودون مال كاف وفي سنّ مبكّر يفتقد فيه الخبرة والتجربة متجها نحو مجهول مليء بالمخاطر والأهوال، ليعاشر ويصادف أجناسا لا تجمعه معهم قرابة أو دين أو لغة تمكّنه من التواصل معهم والتأقلم مع عاداتهم وتقاليدهم وشرائعهم. فحقّ لنا أن نقول عنها أنّها شخصية أسطورية يستحيل أن تتكرّر في عصر من العصور، إذ يمكن أن نعتبره خبيرا مدقّقا، باحثا، محلّلا، فبرحلته استطاع أن يحفظ لنا الشيء الكثير من صور العالم الإسلامي الّذي زاره والمجتمع الّذي احتكّ به وعاصره.

عرّفنا على مشايخ وعلماء وحتى سلاطين معدّدا مناقبهم وفضائلهم أو العكس جورهم وظلمهم، كما استطاع أن يرسم لنا البلدان والمجتمعات في وقت انعدمت فيه وسائل الإعلام من ذلك صورة المرأة في القرن الثامن الهجري إذ ولاها من الاهتمام ما ولّاه لكل ما وقعت عليه عينه محدّدا فيها الزّمان والمكان.

1- صورة المرأة القائدة والحاكمة:

أدّت المرأة دورا كبيرا في القرن الثّامن الهجري في مختلف المجالات من ذلك المجال السّياسي، حيث استطاعت أن تثبت فيه وجودها وجدارتها وقدرتها على إدارة شؤون رعيّتها وفي تولّي القيادة والحكم كالسّلطانة **رضيّة الدّين ابنة السلطان شمس الدين لَلْمِش**[1] ، السّلطانة المتمرّدة المرأة الثّائرة على الحكم، على السّلطة الحاكمة وبالتّحديد على أخيها ركن الدّين الّذي ورث الحكم عن أبيه بعد وفاته بحكم أنّه الأكبر، وسبب تمرّدها رفضها الرّضوخ والخضوع والاستكانة أمام جوره وظلمه واستبداده. هذا الأخير لم يتّصف بصفات والده الّذي كان يتميّز بالعدل والإنصاف وذلك بحرصه على ردّ المظالم عن رعيته حتّى ولو أتوه ليلا، بل العكس انتشر الظّلم في عهده بسبب إهماله أمور البلاد و كثرة تعديه على من ينتمي للأسرة الحاكمة، على أخيه الّذي حاول خلعه لفساد أخلاقه وانشغاله بمجالس اللّهو والمجون، إلّا أنّه تفطّن لأمره فقتله.

فامتهانها وابتذالها واحتقارها لأخيها سببه قسوته وغلظته وغيّه وظلمه لشعبه وتعدّيه على حقوقهم وكذا بسبب تصرّفه المشين الّذي يفتقد للرّأفة والرّحمة ؛ قتله أقرب الناس إليه. ليقرّر قتلها بعد انكارها لفعله المشين إلّا أنّها استطاعت أن تنجو بنفسها وتقضي عليه قبل أن يقضي عليها، يقول ابن بطّوطة: << فلمّا كان في بعض أيام الجمع، خرج ركن الدّين إلى

---

[1] – << كان شمس الدين **ألتمش** مملوكا لقطب الدّين، جلب في صغر سنّه إلى بخارى، وبقي ينتقل من سيّد إلى سيّد حتّى اشتراه قطب الدّين وربّاه في مهد السّلطنة وأخذ يتدرّج في المناصب حتّى صار أميرا على الجند وزوّجه السّلطان وزوّجه السّلطان بابنته. وبعد وفاة قطب الدّين اجتمع كبار رجال الدّولة، واختاروه سلطانا له وكان ذلك سنة 607هـ –1211م، توفّي سنة 633هـ – 1235م بعد أن أوصى بالملك لابنته رضيّة>> (عبد المنعم النمر:تاريخ الإسلام في الهند، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1401،1هـ –1981م، ص ص 147، 148).

الصّلاة، فصعدت رضيّة على لسطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم، وهو يسمّى دولة خانة، ولبست عليها ثياب المظلومين، وتعرّضت للنّاس، وكلّمتهم من أعلى السّطح وقالت لهم: إنّ أخي قتل أخاه وهو يريد قتلي معه، وذكّرتهم أيام أبيها وفعله الخير و إحسانه إليهم، فثاروا عند ذلك إلى السّلطان ركن الدّين وهو في المسجد فقبضوا عليه وأتوا به إليها. فقالت لهم: القاتل يقتل، فقتلوه قصاصا بأخيه وكان أخوهما ناصر الدين[1] صغيرا، فاتّفق النّاس على تولية رضيّة..، واستقلّت بالحكم أربع سنين. وكانت تركب بالقوس والتركش والقربان، كما يركب الرّجال، ولا تستر وجهها، ثمّ أنّها اتّهمت بعبد لها من الحبشة، فاتّفق النّاس على خلعها وتزويجها، فخلعت وزوّجت من بعض أقاربها، وولّي الملك أخوها ناصر الدّين>>[2].

ما نقله ابن بطوطة عن هذه المرأة يعكس صورة امرأة لم نصادفها في رحلته من قبل، فهي تمثّل صورة المرأة الحكيمة المتبصّرة بالأمور، الواعية و الذّكيّة لأنّ تصرّفها نابع من شخص مفكّر مدبّر ومخطّط. فذكاؤها يظهر في حسن اختيارها الزّمان والمكان المناسبين للتّخلّص من أخيها وشروره؛ الزّمان وقت تجمّع الناس– الرّعيّة– أمّا المكان فهو الجامع الأعظم وسطح القصر القديم المجاور لذلك الجامع مرتدية ثياب المظلومين قصد التّأثير في الرّعيّة. وهذا الثوب المصبوغ كان يُرتدى زمن تولّي والدها الحكم للإشارة على ظلم وقع عليهم وليتميّزوا به عن الغير، لأنّ أهل الهند كانوا لا يلبسون إلا البياض في ذلك الوقت، فكان متى قعد للنّاس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوبا مصبوغا نظر في قضيّته وأنصفه ممّن ظلمه في الحين. فهذه السّلطانة أرادت أن تذكّر الرّعيّة وتعود بهم إلى عهد أبيها مرتدية هذا

---

[1] – << كان أنموذج الخلفاء الرّاشدين، نادى برفع المظالم وأظهر العدل والكرم، كان ورعا متعبّدا ذا حلم وأناة ورأفة، راغبا في الخيرات مع الزّهد والتقشّف، وكانت له عناية عظيمة بالأدب ومعرفة حسنة بالكتابة، ومن أخباره أنّه كان يكتب القرآن الكريم نسختين منه كلّ سنة فيبيعها ويقتات بثمنها، وأنّ زوجته سألته أن يعطيها جارية تكفي مؤنتها في طبخ الطّعام وغيره من أمور البيت فأبى، توفّي سنة 664 هـ – 1266 م، وبوفاته انتقل الملك من أسرة شمس الدّين ألتمش إلى أسرة أخرى من المماليك وهي أسرة غياث الدين بلبن>> (عبد الحي بن فخر الدين الحسني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمّى "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنّواظر"، ج1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ، ط1، 1420هـ – 1999 م، ص ص 126–127).

[2] – تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج 2..، ص ص 486–487.

الثوب بحكم أنّهم كانوا على دراية بأفعاله لإنصافها مطالبة بالقصاص، فبحنكتها وذكائها وسعة حيلتها استطاعت أن تستعطفهم ليأخذوا بحقّها من أخيها دون أن تشكّل خطرا على نفسها. لتتمكّن بذلك من التّخلّص منه قبل أن يتخلّص منها، والتنفيذ كان في الحين بعد تذكيرهم بكيفية تطبيقه الحكم على الظّالم دون انتظار محاكمة، حتّى لا تترك لهم المجال للتّراجع عن قرارهم. وبذلك تكون قد نالت مرادها وهو قتل من كان يشكّل خطرا على حياتها من ناحية وتوليتها الحكم بحكم صغر سنّ أخيها من ناحية أخرى متّبعة نهج والدها في إنصاف المظلومين متخلّية عن أنوثتها متسلّحة في مجلسها بالقوس والسّهم، محاكية طريقة حديث وتصرّفات الرّجال بعد أن تجرّدت من حجابها وكشفت عن وجهها، لمع اسمها وأصبحت أشدّ صرامة وأقوى شكيمة وعزما فكانت راجحة العقل وفارسة في ذات الوقت لتقلب الموازين بعد اتّهامها بعبد لها، هذا ما استثار حفيظة الناس فتمرّدوا عليها وزوّجوها.

بعد أن خلعت من على كرسي العرش ثارت ثائرتها لتولّى شقيقها الأصغر ناصر الدّين الحكم، فتحالفت مع وزوجها ضدّه لنكتشف صفة أخرى تحلّت بها رضيّة[1] بعد تربّعها على كرسي الحكم ألا وهي صفة الجشع والطّمع بعد أن تملّكتها شهوة التّسلّط على العرش، نعم كانت إنسانة عادلة، لا تقلّ قوّة وصلابة عن سائر الملوك من حيث الحزم والبأس بين الرّعية، كما أنّها كانت تفوقهم في العلم والسّياسة والحكم، لكن حبّ التملّك جعلها هو بدوره ينسيها رابطة الدّم الّتي تجمعها بأخيها الوحيد لتقدم على شنّ الحرب ضدّه، وبالتالي هذه المرأة الّتي حدّثنا عنها ابن بطّوطة كانت رمزا للمرأة الحاكمة القويّة من ناحية كما كانت رمزا للمرأة الأنانية الّتي آثرت نفسها وزوجها على أخيها الّذي حمل صفات والده من كرم وعدل وصلاح، مقارنة بمن كان يتبعها من أهل الفساد الّذين ساندوها وتهيَّأوا معها لقتاله. يقول ابن بطوطة ساردا لنا نهايتها: << ولمّا خلعت رضيّة وُلّي أخوها الأصغر، واستقلّ بالملك مدّة، ثمّ إنّ رضيّة وزوجها خالفا عليه وركبا في مماليكهما، ومن تبعهما من أهل الفساد وتهيّأ لقتاله،

[1]- << تولّت الحكم سنة 633هـ – 1235م>> (تاريخ الإسلام في الهند..، ص 149) .

وخرج ناصر الدّين ومعه مملوكـه النّائب عنه غياث الدّين بلبن[1]، الّذي تولّى الملك بعده، فوقع اللّقاء، وانهزم عسكر رضيّة وفرّت بنفسها، فأدركها الجوع وأجهده الإعياء، فقصدت حرّاثا رأته يحرث الأرض فطلبت منه ما تأكله، فأعطاها كسرة خبز فأكلتها، وغلب عليها النّوم وكانت في زيّ الرّجال، فلمّا نامت نظر إليها الحرّاث وهي نائمة، فرأى تحت ثيابها قباء مرصّعا، فعلم أنّها امرأة فقتلها وسلبها وطرد فرسها ودفنها في فدّانه، وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السّوق يبيعها. فأنكر أهل السّوق شأنه وأتوا به الشّحنة، وهو الحاكم فضربه وأقرّ بقتلها ودلّهم على مدفنها، فاستخرجوها وغسّلوها وكفّنوها، ودُفنت هنالك، وقبرها الآن يزار ويتبرّك به، وهو على شاطئ النّهر الكبير المعروف بنهر الجون، على مسافة فرسخ واحد من المدينة >> [2].

نقل ابن بطّوطة صورة أخرى عن المرأة الّتي تقلّدت دور الرّجل محاولة إثبات جدارتها في ميدان الحرب عليه وهذه الشّخصيّة هي بدورها كانت من الشّخصيات البارزة في الحياة السّياسيّة، هي **ملكة كيلوكري – ابنة السّلطان مل جاوه – بطوالسي الطريق إلى الصين**–. تلقّى ابن بطّوطة دعوة من أحد أفراد السّلطة الحاكمة كعادته – من ملكة كيلوكري– ، إلّا أنّه أبى أن يستجيب وحجّته في ذلك أنّهم كفّار وأكلهم محرّم على المسلمين، لكن في آخر المطاف نُقل إلى قصرها بأمر منها فأكرمته كبقية السلطانات اللّواتي التقى بهنّ وكانت هذه السّلطانة مختلفة عن غيرها، كانت تتّصف برباطة الجأش والبسالة شأنها شأن السّلطانة رضيّة الدّين الّتي استطاعت أن تحقّق ما عجز عن تحقيقه الرّجال، فهذه المرأة مثّلت صورة المرأة المقاتلة المحاربة والمدافعة عن رعيّتها كامرأة غير خاضعة لسلطة الرّجل، متحدّية إيّاه وذلك بمواجهته واهبة نفسها كزوجة لمن يهزمها. إلّا أنّ هذا الجنس عزف عن ذلك خوفا من أن يلحقه عار الهزيمة، وعزوفه دليل على ضعفه أمام قوّتها الجسديّة وحتّى

---

[1]– << كان غياث الدين من الأتراك أخذه المغول من تركستان وباعوه، وانتقل من يد إلى يد حتّى وصل إلى يد الشّيخ جمال الدّين البصري في بغداد، فجاء إلى الهند فاشتراه منه السّلطان ألتمش ..، فتوسّم فيه ألتمش نجابة الأصل فقرّبه إليه، ثمّ ظهر له أقرباء في حاشية السّلطان، فأخذ يرتقي ويتدرّج في المناصب لقدرته وكفاءته ثمّ زوّجه السّلطان بابنته وظلّ يرتقي حتّى كان وزيرا لناصر الدّين>> (المرجع السابق..، ص 151) .

[2] – تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج 2..، ص ص 487–488.

النّفسية وبذلك استطاعت أن تثبت جدارتها وتفوّقها عليه، وإن كانت قد أثبتت ذلك عند اختراقها صفوف الأعداء وإجهازها على ملكهم بعودتها متوّجة بالنّصر. فالهزيمة الّتي ألحقتها بهم لم تكن مادية فقط كونها لم تقض على الملك فحسب بل قضت على قمع وتهميش واستصغار الطّرف الآخر لها، وانتصارها لم يكن حليفها وحدها بل تقاسمته مع من ينتمي لجنسها، إذ نجد ابن بطّوطة يفصّل في ذلك قائلا :<< لها في عسكرها نسوة وجوار يقاتلن كالرّجال، وأنّها تخرج العساكر من الرجال والنساء فتغير على عدوّها، وتشاهد القتال وتبارز الأبطال وأخبرني– الناخوذة صاحب المركب – أنّه وقع بينها وبين أعدائها قتال شديد، وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون، فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتّى وصلت إلى الملك الّذي كانت تقاتله، فطعنته طعنة كان فيها حتفه، فمات وهزمت عساكره، وجاءت برأسه على رمح فافتداه أهله منها بمال كثير. فلمّا عادت إلى أبيها ملّكها تلك المدينة الّتي كانت بيد أخيها– مدينة كَيْلوكري– وهي من أحسن المدن وأكبرها – وأخبرني أنّ أبناء الملوك يخطبونها فتقول: لا أتزوّج إلّا من يبارزني فيغلبني. فيتحامون مبارزتها خوف المعرّة إن غلبتهم>> [1].

أمّا **السّلطانة خديجة** – سلطانة جزائر ذبية المهل– فهي ثاني سلطانة تتولّى أمور الدّولة تربّعت على العرش بعد وفاة والدها الملك جلال الدّين، لكن ما لاحظناه هو أنّ ابن بطّوطة اكتفى بالحديث عن زواجها بالوزير عبد الله الّذي كان يمثّلها بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين وعن كيفية توليّها الحكم، وقد كان ابن بطّوطة متزوّجا من زوجة أبيها الّتي طلّقها بحكم العادات الّتي تمنع الزّوجة من مغادرة بلدها عند اتّخاذه قرار شدّ الرّحال.

وبالنّسبة للخاتون في مدينة يزنيك بقرية كرله مثّلت هي بدورها صورة المرأة الحاكمة لرعيّتها بحكم أنّها كانت زوجة سلطان برصى اختيار الدين أرخان بك بن السّلطان عثمان جوق– ، قال عنها ابن بطّوطة أنّها كانت الحاكمة عليهم كما كانت امرأة صالحة وفاضلة[2]، وقد لمس ذلك عند زيارته لها، وهي بدورها أكرمته وأحسنت استقباله وضيافته.

---

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2..، ص ص 715–717.

[2]– نفسه ج1..، ص339.

نقل ابن بطّوطة صورة أخرى عن المرأة، صورة المرأة المجازفة، المرأة المتصدّرة للقيادة برباطة جأش وقلب قويّ ثابت مستعينة بفرسها للتّنقّل من قرية إلى أخرى، إلى جانب ذلك نجدها تمثّل صورة المرأة البطلة لما تميّزت به من بسالة وجَلدة وشدّة تحمّل وثبات. وقد شهد ابن بطّوطة تلك الحادثة التي كادت تودي بحياتها، وكان ذلك عند محاولته اقتفاء أثرها للوصول إلى قرية مَكجا قائلا: <<وتقدّمتنا امرأة من التّرك على فرس ومعها خدم لها، وهي قاصدة مدينة ينجا–هرقلي– ونحن في اتّباع أثرها، فوصلت إلى واد كبير يقال له سَقَري كأنه نسب إلى سقر أعاذنا الله. فذهبت تجوز الوادي، فلما توسّطته كادت الدابة تغرق بها ورمتها عن ظهرها. وأراد الخديم الذي كان معها استخلاصها فذهب بهما معا، وكان في عدوة الوادي قوم رموا بأنفسهم في أثرهما سباحة فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رمق ووجدوا الرجل قد قضى نحبه رحمه الله >>[1].

2- صورة المرأة المخطّطة:

كانت المرأة في بغداد حرّة لكن ليست تلك الحرّية المطلقة التي تجعلها تخرج عن حدود ما شرّعه لها ديننا، فكانت تشارك زوجها أو ابنها بعد تولّيه الحكم في التّخطيط للتحكّم بزمام الأمور، وفي هذه الرحلة نقل ابن بطّوطة صورة المرأة المساندة لربيبها الّذي تحوّل بفضل دهائها من مُسيَّر إلى مُسيِّر. وهذه المرأة هي زوجة والد السّلطان أبو سعيد بهادرخان الّذي تولّى الحكم بعد وفاة والده السّلطان أبو بهادُر خان، بتوجيهاتها الصّائبة تحوّل من سلطان ضعيف خاضع لقوى خارجيّة مسيِّرةٍ له إلى سلطان له صيته ومكانته بين رعيّته. فالابن عند تولّيه الحكم كان صغيرا طيبا وكريما استغلّ أمير أمراء الجوبان طيبته فكان هو الآمر النّاهي بدل السّلطان ولم يكن له من الملك سوى الاسم، حتى أموال الدّولة لم يكن له فيها لا ناقة ولا جمل. << يذكر أنّه احتاج في بعض الأعياد إلى نفقة ينفقها، فلم يكن له سبيل إليها، فبعث إلى أحد التّجّار فأعطاه من المال ما أحبّ >>[2]. هذا الأمير لم يكتف باستغلال ماله بل انتقل ابنه دمشق إلى حرم أبيه، وهنا تظهر لنا شخصية المرأة الرّافضة للاستغلال الثّائرة على الأوضاع التي يفترض أن يقف ربيبها إيزاءها وقفة سلطان حاكم راشد

---

[1]- المرجع السابق..، ص 340.

[2]- نفسه..، ص246.

واضعا حدّا لتمرّدهما الّذي تجاوز الحدود، كما تظهر لنا صورة المرأة المساعدة الموجّهة والمخطّطة للتخلّص ممّن يستغلّ ربيبها ويستغلّ حرم والده ويظهر ذلك فيما نقله ابن بطّوطة: << ولم يزل كذلك – السّلطان– إلى أن دخلت عليه يوما زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له: لو كنّا نحن الرّجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه. فاستفهم عن مرادها بهذا الكلام، فقالت له: لقد أتى أمر دمشق خواجه* بين الجوبان أن يفتك بحرم أبيك، وإنّه بات البارحة عند طغى خاتون، وقد بعث إليّ وقال لي اللّيلة أبيت عندك. وما الرّأي إلّا أن تجمع الأمراء والعساكر، فإذا صعد إلى القلعة متخفّيا برسم المبيت أمكنك القبض عليه، وأبوه يكفي الله أمره >>[1]. فبقولها بثّت الحميّة في قلبه وألهبت نيران الغيرة في نفسه وعزم على قتله، فرصد تحرّكاته وأوقع به كما خطّطت زوجة أبيه. ولم يكتف بذلك بل عمل على استئصال جذوره وأجهز على والده وجميع إخوته، وهذا يعكس لنا حنكة المرأة ودورها في تسيير الحكم وقدرتها على التّغيير. كما أنّ هذه الأحداث تبيّن لنا الطّريقة الّتي كان ينتهجها من يستولى على الحكم فبمجرّد القضاء على الحاكم اعتبر كلّ ما لديه بالإضافة إلى المال من زوجات وجوار ملكا له، له الحق في التصرّف فيهنّ واستغلالهنّ. والاستغلال هنا لم يكن بعد مفارقة الملك الحياة بل بسبب ضعف من ورث الحكم لكنّ علاقة السّلطان لم تقطع بموت الأمير وأبنائه، فهذا الأخير تزوّج بنت الجوبان "بغداد خاتون"، قال عنها ابن بطّوطة أنّها كانت من أجمل النّساء وقد تخلّى عنها زوجها– ابن عمّته– بعد تلقّيه الأمر من السّلطان، كانت أحظى النّساء لديه مفضّلا إيّاها على غيرها وكان ذلك لأيّام. ثمّ تزوّج امرأة أخرى تدعى بدلشاد وقد أحبّها حبّا شديدا وهجر بغداد خاتون، فمن غيرتها سمّته وبعد افتضاح أمرها قتلت ليتولّى بعده ابن عمّته الشّيخ حسن المُلك وتزوّج هو بدوره زوجته بدلشاد[2]. فروح الانتقام كانت سائدة في تلك الفترة سواء من النّساء أو من الرّجال الّذين كانوا يطبّقون مقولة كما تدين، فالسّلطان سلب من ابن عمّته زوجته أمّا ابن عمّته سلب منه

---

* الخواجة: << الخواجا لفظ فارسيّ ومعناه السّيّد أو ربّ البيت والتاجر الغنيّ والحاكم والمعلّم ، ويقال خواجكي: بإضافة الكاف للمبالغة والتعظيم>>. (محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان، ط 1، 1410هـ –1990م، ص69).

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص ص 246–247.

[2]– نفسه..، ص248.

زوجته والعرش معا، وكأنّ زوجة السّلطان كانت تورّث بموته للوزراء أو لذوي القرابة باستثناء الأمّ الّتي يتولّى ابنها الحكم، شأنها شأن المرأة في العصر الجاهليّ.

أمّا المنافسة بين النّسوة فكانت شديدة كالمنافسة الّتي كانت بين زوجات السّلاطين اللّواتي كنّ يسعين لنيل الحظوة والمكانة العالية عنده وعند الرّعية وخير دليل على ذلك قوله:<< والنّساء لدى الأتراك والتّتر لهنّ حظّ عظيم وهم إذا كتبوا أمرا يقولون فيه: عن أمر السّلطان والخواتين>> [1] .

ومن الأحداث الّتي كانت فيها المرأة سببا في قلب الموازين، قصّة المرأة الّتي طلبت الأمن والأمان لها و لأولادها بعدما ألقي عليهم القبض، منهم السّلطان أبو إسحاق بن محمّد شاه ينجو، يقول ابن بطّوطة بعد الاستلاء على مدينتهم من طرف السّلطان" أبو سعيد" ليُنقلوا إلى العراق من طرف الأمير حسين: << فلمّا توسّطوا السّوق بشيراز كشفت طاش خاتون– والدة السّلطان أبو إسحاق– وكانت متبرقعة حياء أن تُرى في تلك الحال، فإنّ عادة نساء الأتراك أن لا يغطّين وجوههنّ، واستغاثت بأهل شيراز وقالت: أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان؟. فقام رجل من النّجّارين يسمّى بهلوان محمود، قد رأيته بالسّوق حين قدومي على شيراز، فقال: لا نتركها تخرج من بلدنا ولا نرضى بذلك. فتابعه النّاس على قوله، وثارت عمامتهم ودخلوا في السّلاح وقتلوا كثيرا من العسكر وأخذوا الأموال وخلّصوا المرأة وأولادها وفرّ الأمير ومن معه>>[2]، فالمرأة هنا لم تطلب المساعدة والحماية فحسب، بل استطاعت أن تبثّ الوعي في نفوسهم، بتصرّفها هذا استطاع أهل شيراز الانتصار على جيش الأمير حسين ليعود أدراجه مهزوما دليلا. وبالتالي كان للمرأة الدّور الكبير في دفع الأذى عن نفسها وعن أولادها وكذا عن سكّان مدينتها، بحنكتها وحسن تصرّفها استطاعت أن تحرّر نفسها وأهلها ورعيّتها، أمّا ابنها فاشتدّت شوكته وزادت عزيمته وكان ذلك درسا له، من يومها تولّدت في نفسه القوّة والشجاعة ليتحوّل من إنسان ضعيف يحتمي بظهر والدته إلى قائد يتوغّل في الأصقاع رفقة جيشه ليستولي على مدن ضمّها

---

[1]– المرجع السابق ..، ص248.

[2]– نفسه..، ص ص 227–228.

لسلطنته، وهذا يعتبر إنجازا من إنجازات نساء السّلطة الحاكمة التي استطاعت بذكائها أن تقلب الموازين من مُغار عليه إلى مغيرٍ.

كما كان لها إنجازات أخرى من ذلك بناؤها لمدرسة كبيرة وزاوية للصّادر والوارد، بها قرّاء يتلون القرآن على تربة أحمد بن موسى أخ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان أهل شيراز يتبرّكون به ويتوسّلون إلى الله تعالى بفضله، كانت تقصده كلّ ليلة اثنين ويجتمع في تلك اللّيلة القضاة والفقهاء والشّرفاء [1]، يقول ابن بطّوطة: << وشيراز كانت من أكثر بلاد الله شرفاء..، وإذا حضر القوم إلى هناك ختموا القرآن قراءة في المصاحف، وقرأ القرّاء بالأصوات الحسنة، وأوتي بالطّعام والفواكه والحلواء، فإذا أكل القوم وعظ الواعظ ويكون ذلك كلّه بعد الخاتون صلاة الظّهر إلى العشيّ، و في غرفة مطلّة على المسجد لها شبّاك >>[2].

3- صورة المرأة الكريمة والمنجزة:

احتوت رحلة ابن بطّوطة صورا مشرّفة عن المرأة فأشاد بكرمها وجودها وبإنجازاتها الّتي لازالت تشهد لها بذلك، وقبل أن يشير ابن بطوطة إلى كرم وسخاء المرأة في مكّة المكرّمة عرّفنا بالشّخصية التي أكرمتها. كان ذاك الرّجل ممّن يرومون دخول جبل ثور، وهو الغار الّذي احتمى فيه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم تبرّكا بذلك، وهذا الأخير كان صديق ابن بطّوطة المدعو أبو محمّد بن فرحان الإفريقي التّوزري الّذي خرج برفقة أبي العبّاس أحمد الأندلسي الوادي آشي، وكان ذلك سنة ثمان وعشرين وسبعمائة دون اصطحابهما لدليل أو مرشد، إلّا أنّهما ضلاّ الطّريق و نفذ منهما الماء قبل الوصول إلى الغار بحكم أنّهما خرجا وقت القيظ والهجير، فآثرا الرّجوع إلى مكّة المكرّمة. الفقيه أبو محمد عبد الله بن فرحان عجز عن المشي أمّا فالأندلسي نجا بنفسه واستطاع أن يعود أدراجه وحينها قصّ على ابن بطوطة ما وقع لهما، وعند تلقيه الخبر أخبر ذويه ليبحثوا عنه كونهم يعرفون تلك المسلك والشّعاب والجبال. وكان عبد الله التوزي كما قال عنه ابن بطّوطة ممّن لا يستسلمون ولا يقهرون أمام الصّعاب محاولا إيجاد سبيل يوصله إلى برّ الأمان، مترقّبا اللّيل لمواصلة

---

[1]- المرجع السابق..، 231-232.

[2]- نفسه..، ص ص232.

طريقه ليصل في الصّباح إلى جبل نزل منه إلى بطن واد حجبت الجبال عنه الشّمس، متابعا السّير دون هوادة << إلى أن بدت له دابّة فقصد قصدها فوجد خيمة للعرب، فلمّا رآها وقع إلى الأرض ولم يستطع النّهوض. رأته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب إلى ورد الماء، فسقته ما كان عندها من الماء فلم يرو، وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو، وأركبه حمارا له وقدم به مكّة فوصلها عند صلاة العصر من الثّاني متغيّرا كأنّه قام من قبر>>[1]. فالقصّة الّتي نقلها ابن بطّوطة تبرز خصلة من الخصال الحميدة الّتي تميّز بها العرب عامة والمرأة بصفة خاصّة ألا وهي الكرم، وبما أنّها لم تمنتنع عن مساعدته في غياب زوجها فهذا يدل على ثقة الرّجل بالمرأة وبعده عن التّشكيك في عفّتها .

كان ابن بطّوطة شديد التّركيز على ما تلبسه المرأة كتركيزه على سخائها وكرمها، قال عن نساء مدينة العلايا ببلاد الرّوم أنّهنّ لا يحتجبن وأنّهنّ شديدات التعلّق بالضّيوف لدرجة أنّهنّ كنّ يبكين عند مفارقتهم، ناقلا لنا ما كان منهنّ عند اتّخاذه قرار مواصلة رحلته، وهذا التصرّف لم يصدر من النّساء بل حتّى من الرّجال قائلا :<< فإذا سافرنا عنهم ودّعونا كأنّهم أقاربنا وأهلنا، ترى النّساء باكيات لفراقنا متأسّفات. ومن عادتهم بتلك البلاد أن يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة يعدّون فيه ما يقوتهم سائرها، فكان رجالهم يأتون إلينا بالخبز الحارّ في يوم خبزه ومعه الأدام الطّيّب، ويقولون لنا إنّ النّساء بعثن هذا إليكم وهنّ يطلبن منكم الدّعاء>> [2] .

أشاد ابن بطّوطة بكرم المرأة بصفة عامّة كما أشاد بكرم المرأة الخاتون بصفة خاصّة وهذه الأخيرة أكرمته وجادت عليه بأكثر ممّا كان يتوقّع، إذ نجده يصرّح بذلك أثناء حديثه عن إحدى خواتين مدينة القيسارية قائلا عنها:<< تدعى آغا ومعنى آغا الكبير وكلّ من بينه وبين السّلطان نسب يدعى بذلك اسمها طغى خاتون >>[3]. كما نجده يفصّل في ذلك قائلا:

---

[1]– المرجع السابق..، ص168.

[2]– نفسه..، ص312.

[3]– نفسه..، ص 324.

<< دخلنا إليها فقالت وأحسنت السّلام والكلام، وأمرت بإحضار الطّعام فأكلنا، ولمّا انصرفنا بعثت إلينا بفرس مسرّج ملجّم وخلعة ودراهم مع أحد غلمانه واعتذرت>> [1].

اختتم ابن بطوطة كلامه عنها بلفظة اعتذرت وكأنّه يريد أن يخبرنا بأنّ هذه المرأة قدّمت لهم الكثير، إلّا أنّها اعتبرت نفسها مقصّرة في حقّهم، وهذا يدلّ على سخائها الّذي لا حدود له .

نساء التّرك هنّ بدورهنّ كنّ يتمتّعن بالكرم حيث كنّ ممّن << يكثرن الصّدقة ويتحرّين أفعال الخير>> [2]. وقد تعجّب ابن بطّوطة من تعظيم النّساء التركيات اللّواتي كنّ أعلى شأنا من الرّجال، ويعود ذلك حسب ما ذكره ابن بطّوطة لسخائهنّ وكرمهنّ وجودهنّ وإحسانهنّ، إذ نجد ينقل لنا صورة عن نساء الأمراء مركّزا على لباقتهنّ وحسن معاملتهنّ لأزواجهنّ لينتقل إلى وصف الجواري المرافقات لهنّ ولباسهنّ ومركباتهنّ وترتيبهنّ ووظيفة كلّ واحدة منهنّ، لينتقل بعد ذلك إلى وصف البائعات في الأسواق قائلا: << فأمّا نساء الأمراء فكانت أوّل رؤيتي لهنّ عند خروجي من القرم..، الخاتون زوجة الأمير سلطية في عربة لها وكلّها مجلّلة بالملف الأزرق الطيب، وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه، وبين يديها أربع جوار فاتنات الحسن بديعات اللّباس، وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها. ولمّا قربت من منزل الأمير نزلت عن العربة إلى الأرض، ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري يرفعن أذيالها، ولأثوابها عرى تأخذ كلّ جارية بعروة ويرفعن الأذيال عن الأرض من كلّ جانب، ومشت كذلك متبخترة، فلمّا وصلت إلى الأمير قام إليها وسلّم عليها وأجلسها إلى جانبه ودار بها جواريها، وجاؤوا بروايا القمز فصبّت منه في قدح، وجلست على ركبتيها قدّام الأمير وناولته القدح فشرب، ثمّ سقت أخاه وسقاها الأمير، وحضر الطّعام فأكلت معه، وأعطاني كسوة وانصرفت. وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء..، أمّا نساء الباعة والسوقة فرأيتهنّ وإحداهنّ تكون في العربة والخيل تجرّها، وبين يديها الثّلاث والأربع من الجواري يرفعن أذيالها، وعلى

---

[1]- المرجع السابق..، ص ص 324-325.

[2]- نفسه..، ص 364.

رأسها البغطاق[1] وهو أقروف مرصّع بالجوهر، وفي أعلاه ريش، وتكون طيقان البيت مفتوحة، وهي بادية الوجه لأنّ نساء الأتراك لا يحتجبن، و تأتي إحداهنّ على هذا الترّتيب، ومعها عبيدها بالغنم واللّبن، فتبيعه من النّاس بالسّلع العطرية، و ربّما كان مع المرأة منهنّ زوجها فيظنّه من يراها بعض خدّامها ولا يكون عليه من الثّياب إلّا فروة من جلد الغنم، وفي رأسه قلنسوة[2] تناسب ذلك يسمّونها الكلا[3] >> [4].

ما نقله ابن بطّوطة عن نساء الباعة التركيات يؤكّد بروزهنّ مقارنة بالزوج لتمتّعهنّ بالمكانة والعيش الرغيد ولما تحضين به من خدمة الجواري والعبيد. كما نجده ينقل لنا بعد ذلك طبائع الخواتين- زوجات السلطان وزوجات الأمراء- لما يتميّزن به من دماثة الخلق واللّطف والرّقّة واللّباقة وحسن التّصرّف، كما ذكر لنا ترتيب زوجات السّلطان وهذا الأخير كان يصطحبهنّ أثناء سفره مستأنسا بمرافقتهنّ. وقد نال ابن بطّوطة من كرمهنّ الكثير، وهو بدوره لم يكن مقصّرا في ذلك إذ نجده يقول: << واجتاز بنا خواتين السّلطان كلّ واحدة بناسها على حدة، ولمّا اجتازت الرّابعة منهنّ وهي بنت الأمير عيسى بك رأت البيت بأعلى التّل والعلم أمامه، وهو علامة الوارد، فبعثت الفتيان والجواري، فسلّموا عليّ وبلّغوا سلامها إليّ وهي واقفة تنتظرهم، فبعثت إليها بهديّة مع بعض أصحابي ومع معرف الأمير تلكتمور، فقبّلتها تبرّكا، وأمرت أن أنزل في جوارها وانصرفت، وأقبل السّلطان فنزل في محلّته

---

[1]- << الأقروف" الأخروق" : هو قبّعة مستطيلة مخروطة الشّكل مرصّعة بالجوهر وفي أعلاها ريش يرتديها نساء الباعة والسوقة في تركيا>> رجب عبد الجواد إبراهيم :المعجم العربي لأسماء الملابس" في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث"، تقديم: محمد فهمي حجازي، مراجعة عبد الهادي التازي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1423هـ -2002م، ص37.

[2]- << القلنسوة: مرادفة لكلمة طربوش>> (رينهارت دوزي: المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، المجلد 10، الجزء3، ترجمة: أكرم فاضل، المكتب الدائم لتنسيق التعريب، الرباط، د.ط، د.ت، ص181).

[3]- << الكلا: كلمة كلا الفارسية تشير إلى الكلوتة Calotte أو الطاقية أو العرقية>> (نفسه..، ص181).

[4]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص ص365- 366 .

على حدة >>[1]. لكن هذا لا يمنع من وجود مفضّلة لها نصيب من الاهتمام والعناية الزّائدة إذ نجده يقول: << ويكون هذا السّلطان- محمد أوزبك خان- إذا سافر في محلّة على حدة معه مماليكه و أرباب دولته وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلها، وإذا أراد أن يكون عنده إحداهن بعث إليها يعلمها بذلك فتتهيأ له. وله في محل قعوده و سفره وأموره ترتيب عجيب بديع، ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب، مزينة بديعة وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورؤوسها مرصعة بالجواهر. ويعقد السلطان على السرير وعن يمينه الخاتون طيطغلي وتليها الخاتون كبك وعلى يساره الخاتون بيلون وتليها الخاتون اردجى. ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثاني جان بك وتجلس بين يديه ابنته أيت كججك، واذا أتت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد السرير، أما طيطغلي[2] الملكة كانت أحظاهنّ عنده، فإنه يستقبلها إلى باب القمة فيسلم عليها ويأخذ بيدها، فإذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان. وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب..، فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين، ثم ينصرف سائرهن فيتبعنها إلى محلها. فإذا دخلت إليها انصرفت كل واحدة إلى محلتها راكبة عربتها، ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل. أمام العربات نحو العشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان و العربة. وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان، وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا، ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان و السيوف مشدودة على أوساطهم، وهم بين الفرسان والفتيان، وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها >>[3].

لينتقل بعد ذلك إلى وصف مركبتهنّ ولباسهنّ والمرافقات لهنّ: يقول ابن بطوطة:
<< وكلّ خاتون من الخواتين تركب في عربة للبيت، وفي البيت الّذي تكون فيه قبّة من

---

[1]- المرجع السابق..، ص 366 .

[2]- وبما أنّها كانت أحظى نساء السّلطان نظر إليها الرّعيّة نظرة إجلال وإكبار(ينظر: خليل البدوي: موسوعة شهيرات النساء، دار أسامة للنشر، الأردن، عمان، ط1 ، 1419 هـ- 1998م، ص163).

[3]-تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،ج1..، ص ص 366-367.-

الفضّة المموهة بالذّهب أو من الخشب المرصّع، وتكون الخيل الّتي تجرّ عربتها مجلّلة بأثواب الحرير المذهّب، و خديم العربة الّذي يركب أحد الخيل فتى يدعى القشي، و الخاتون قاعدة في عربتها، وعن يمينها امرأة من القواعد تسمّى أولو خاتون ومعنى ذلك الوزيرة، وعن شمالها امرأة من القاعد أيضا تسمّى كجك خاتون ومعنى ذلك الحاجبة، وبين يديها ستّ من الجواري الصّغار يقال لهنّ البنات فائقات الجمال متناهيات الكمال، ومن ورائها اثنتان منهنّ تستند إليهنّ وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجوهر. وبأعلاها ريش الطواويس وعليها ثياب حرير مرصّعة بالجواهر..، وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذّهب والجوهر وعلى رأس كلّ واحدة من البنات الكلا وهو شبه الأقروف، وفي أعلاها دائرة ذهب مرصّعة بالجوهر وريش الطّواويس من فوقه وعلى كلّ واحدة ثوب من الحرير المذهّب يسمّى النّخ، ويكون بين الخاتون عشرة وخمسة عشر من الفتيان الرّوميين والهنديين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهّب والمرصّعة بالجواهر، وبيد كلّ واحد منهم عمود ذهب أو فضّة..، وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة في كلّ عربة الثّلاث والأربع من الجواري الكبار والصّغار وثيابهن الحرير وعلى رؤوسهنّ الكلا، وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرّها الجمال والبقر وتحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كلّ عربة غلام موكّل بها متزوّج من جارية من الجواري التّي ذكرناها، فإنّ العادة عندهنّ ألّا يدخل بين الجواري من الغلمان إلّا من كان له بينهنّ زوجة وكلّ خاتون فهي على هذا التّرتيب >> [1].

وما لاحظناه من خلال اطّلاعنا على رحلة ابن بطّوطة تركيزه على المرأة التّركية، وصفها وصفا دقيقا مقارنة بغيرها حيث خصّص لها صفحات ؛ بهر بجمالها وحسنها وأشاد بجودها، ولم يكتف بذلك بل انتقل إلى ذكر كلّ ما يتعلّق وما يحيط بها. فالمرأة الخاتون لم تكن هي الوحيدة من يتميّز بحسن المظهر والجمال، بل حتّى خدمها من جوار ووزيرات وكأنّ جمالها وأناقتها لا يكتملان إلّا بجمال وأناقة من يحطن بها، كانت تصطحبهنّ عند سفرها ليسهرن على خدمتها.

---

[1]- المرجع السابق..، ص370.

كما كان يخصّص لها موكب فيه كلّ ما تحتاجه من لباس وفراش وحتّى أثاث، وكانت الخاتون المفضّلة عند السّلطان هي المفضّلة عند الرّعيّة، وفيما يتعلّق بالغلمان الّذين كانوا موكّلين على العربات كان يشترط أن تكون له زوجة من بين الجواري وهذا يدلّ على حرص السّلطان حفظ زوجاته وجواريه من شرّ الوقوع في الفتنة .

بعد أن ذكر ابن بطّوطة ترتيب الخواتين تحدّث عن كلّ خاتون على حدى، فالخاتون الكبرى طَيْطُغْلي وهي الملكة، كانت من أقرب الخواتين وأحظاهنّ عند السّلطان، كان يبيت عندها معظم لياليه لأنّه كان يكنّ لها حبّا خاصّا، وسبب حبّه لها الخاصّية الّتي فيها وهي أن يجدها كلّ ليلة وكأنّها بكر. والنّاس بدورهم كانوا يعظّمونها بسبب تعظيم السّلطان لها، فبعدما وصفها ووصف كلّ من يحيط بها في سفرها وصفها وهي في قصر السّلطان بعدما التقى بها عند اجتماعه بالسّلطان. كانت تجلس بين عشر من النّساء كأنّهنّ خديمات لها وبين يديها نحو خمسين جارية صغيرات في السّنّ، وكانت الخاتون تحمل بيديها صينية ذهب مملوءة منه وهي تتقيّه فسلّم عليها، وفي تلك الجلسة قرأ صديق له القرآن وهذا الأخير كانت لديه قراءة حسنة فأكرمته بشراب القمز وتلك كانت إكراميّتهم للضّيف في ذلك القصر. ليزور الخاتون الثانية الّتي تلي الملكة وهي إنسانة ورعة تقيّة فأثناء دخوله عليها وجدها تقرأ في المصحف وبين يديها نحو عشر من النّساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزون ثيابا. أمّا الخاتون الثّالثة – بنت ملك القسطنطينية السّلطان تكفور–عند دخولهم عليها كانت تجلس على سرير مرصّع قوائمه فضّة، وبين يديها نحو مائة جارية روميات، تركيات ونوبيات* وكانت هذه الخاتون رقيقة مرهفة الحسّ حيث بكت على حالهم بسبب بعدهم عن الدّيار. أمّا الخاتون الرّابعة فهي التي دعته إلى القصر اسمها أَزْدُجا قال عنها ابن بطّوطة أنّها كانت من أفضل وألطف الخواتين و أشفقهنّ وأكرمهنّ و أسخاهنّ. حتّى ابنة السّلطان جادت عليهم وأكرمتهم وأحسنت ضيافتهم وقد نال ابن بطوطة من كرمها وعطائها ما لم ينله من خواتين السّلطان أثناء اتخاذه قرار التوجه إلى القسطنطينية[1] . ومن عادة كلّ من ينتمي

*النوبيون :<< أهل النوبة، قبائل تسكن منطقة تمتدّ على ضفتي نهر النيل أقصى شمال السودان وأقصى جنوب مصر>>(ويكيبيديا المرسوعة الحرة . www .google.com).

[1]– ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص ص 370–372 .

إلى السّلطة الحاكمة من سلطان وأبناء وخواتين أن يخدم كلّ واحد منهم الآخر، فإذا أراد السّلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها، ثمّ تناول قدحا آخر فتناوله للخواتين حسب ترتيبهنّ من الملكة إلى الخاتون الرّابعة، يليهم وليّ العهد لتكون هي آخر من يشرب وتلك هي عادتهم. كما كانت الخاتون لا تمنع من رغبتها بوضع مولودها خارج قصر السّلطان أي عند أهلها، وهذا ما نقله لنا ابن بطّوطة الّذي قام باصطحاب الخاتون الثّالثة بيلون إلى قصر والدها الملك القسطنطيني ملك الرّوم رفقة خمسمائة فارس من جنسيات مختلفة روم وأتراك– هي بدورها كانت كريمة إلى حدّ كبير مع ابن بطّوطة، حيث أهدت له الخيول والأغنام والبغال–، فالجواري كنّ نحو مائتين ومن العربات نحو أربعمائة ونحو ألفي فرس وثلاثمائة من البقر ومائتين من الجمال ومن الفتيان الروميين عشرة ومن الهنديين مثلهم رفقة قائدهم الرومي ميخائيل أمّا جواريها وأثقالها تركت بمحلّة السّلطان[1]. ما يثير الاستغراب هو المرافقون للخاتون وكأنّه جيش مقبل على حملة من الحملات، كانت تلك عادة السّلاطين وحتّى الأمراء لخواتينهنّ خوفا عليهنّ وتعظيما لهن.

وبالنّسبة للخاتون بيلون نجدها في رحلة ابن بطّوطة تمثّل صورة المرأة المتنكّرة لدين زوجها الرّاغبة في استرجاع هويّتها لعدم قدرتها على التمسّك بالدّين الإسلاميّ و بعد فشلها في التأقلم مع عادات وتقاليد المحيط الجديد الّذي نقلها إليه زوجها. فمن عادة السّلطان التركي المسلم محمّد أوزبك والخواتين الاستجابة للصّلاة بمجرّد سماع الآذان، كما كنّ يستمعن للتلاوات الحسان في قصر السّلطان. لكن بمجرّد أن وطئت قدم الخاتون بيلون بلاد الروم تركت مسجدها ليرتفع حكم الآذان بمجرّد دخول بلاد الكفر، فكانت تشرب الخمر وتأكل لحم الخنازير لتقرر في آخر المطاف البقاء مع والدها برفضها العودة إلى السّلطان ،<< ولمّا ظهر لمن كان في صحبة الخاتون من الأتراك أنّها على دين أبيها وراغبة في المقام معه، طلبوا منها الإذن في العودة إلى بلادهم، فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا>>[2].

---

[1]– ينظر: المرجع السابق..، ص 380.

[2]- نفسه ج1..، ص 392.

بعد انتقاد ابن بطّوطة لتصرّفات الخاتون انتقل إلى وصف حفاوة الاستقبال الّذي حظيت به من الأسرة الحاكمة فالبنت في بلاد الرّوم كانت تستقبل أحسن استقبال، مكانتها كانت لا تقلّ شأنا عن مكانة الرّجل، والاستقبال لم يكن من طرف الأسرة الحاكمة بل حتّى من الرّعيّة وهذا ما فصّل فيه ابن بطّوطة قائلا: << لمّا أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها كفالي قراس في خمسة آلاف فارس شاكين السّلاح، ولمّا أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها فرسا أشهب، ولبس ثيابا بيضاء وجعل رأسه مكلّلا بالجواهر، وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك ومن أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضا وعيهم مظللات مزركشة بالذّهب..، وركبت الخاتون من مماليكها وجواريها وفتيانها وخدّامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذّهب المرصّعة، وعلى الخاتون حلّة يقال لها النخ ويقال لها النّسيج، مرصّعة بالجوهر وعلى رأسها تاج مرصّع، فرسها مجلّل حرير مزركش بالذّهب، وفي يديه ورجليه خلاخل الذّهب، وفي عنقه قلائد مرصّعة، وعظم السّرج مكسو ذهبا مكلّل جوهرا. وكان التقاؤهما في بسيط من الأرض نحو ميل من الأرض على نحو ميل من البلد. وترجّل لها أخوها لأنّه أصغر منها، وقبّل ركابها وّلت رأسه، وترجّل الأمراء وأولاد الملوك، وقبّلوا جميعا ركابها وانصرفت مع أخيها..، وفي الغد التقت بأخيها وليّ العهد في مثل زيّها الأوّل وترجّلا جميعا، وأوتي بخباء حرير فدخلت فيه..، خرج السّلطان وزوجته أمّ هذه الخاتون وأرباب الدّولة والخواص..، ولمّا أقبل السّلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج ولم أقدر على الدّخول فيما بينهم فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها خوفا على نفسي>> [1]. وقيل له << أنّها لمّا قربت من أبويها ترجّلت وقبّلت الأرض بين أيديهما، ثمّ قبّلت حافري فرسيهما، وفعل كبار أصحابها مثل فعلها في ذلك>>[2]. ليصف لنا بعد ذلك جلوس الأسرة الحاكمة من زوجات وأبناء قائلا: << ثمّ وصلت إلى قبّة عظيمة والسّلطان على سريره وزوجته أمّ هذه الخاتون بين يديه، وأسفل السّير الخاتون وإخوتها>> [3]. فمكان المرأة السّلطانة كان دائما بجانب السّلطان، إذ كان يستقبل ضيوفه بحضرتهنّ لكن الفرق هو أنّ السّلطان أوزبك أجلس

---

[1] – ينظر: المرجع السابق..، ص ص 383-384 .

[2] – نفسه..، ص 384.

[3] – نفسه..، ص384.

أمامه كلّ زوجاته بالترتيب من أوّل خاتون إلى الرّابعة، لكن عندما نقل لنا ابن بطوطة استقبال سلطان الرّوم لابنته لم يكن إلّا بحضور خاتون واحدة دون سواها.

أمّا بالنسبة للمرأة في خوارزم[1] فكان لها إنجازات عديدة من مساجد وزوايا، كما كانت تتّصف بالكرم وحسن الضّيافة منهنّ زوجة السّلطان أوزبك الخاتون الصّالحة تُرابَك التّي قامت بتعمير المسجد المتواجد بالمدينة. والخاتون جيجا أغا التي بعثت إليه بمائة دينار، أمّا أختها ترابك زوجة الأمير" قطلو دمور"- وكان هذا الأخير والسّلطان من السّنيين-، حضّرت له مأدبة جمعت فيها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التّي بنتها، إذ اعتبرها ابن بطّوطة من أصلح النّساء وأكرمهنّ كونها خصّصت هذه الزّاوية للوارد والصّادر. والخاتون في تلك المنطقة كانت لا تكلّف نفسها بارتداء الحرير والتّزيّن بأبهى الحليّ ومرافقة الجواري، بل كانت مثالا في التّواضع كالّتي صادفها ابن بطّوطة عند خروجه من الزّاوية، لم يعرفها من مظهرها الّذي لم يتعوّده في الخواتين اللّواتي صادفهنّ إذ نجده يقول:<< وتعرّضت لي بالباب امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة، ومعها نسوة لا أذكر عددهنّ، فسلّمت عليّ، فرددت عليها السّلام، ولم أقف معها ولا التفتّ إليها. فلمّا خرجت أدركني بعض النّاس وقالوا لي أنّ المرأة الّتي سلّمت عليّ هي الخاتون، فخجلت عن ذلك وأردت الرّجوع إليها، فوجدتها قد انصرفت، فأبلغت إليها السّلام مع بعض خدّامها، واعتذرت عمّا كان منّي لعدم معرفتي بها >> [2].

فابن بطّوطة لم يهتمّ بشأن المرأة لعدم معرفته هويّتها نظرا لسوء مظهرها الّذي لم يتعوّده في زوجات السّلاطين، ولم يتمكّن حتّى من تعداد الجواري المرافقات لها لجهله هويّتها، كما أنّه لم يشر إلى سبب ظهورها على تلك الهيئة .

---

[1]- خوارزم:<< تقع في الإقليم السّادس ، وبعده عن خطّ المغرب إحدى وتسعون درجة، وعلى خطّ الاستواء اثنتان وأربعون درجة، كانت من مدائن خرسان..، وهي في وسط صحراء ورمال ..، تعرف بجرجان>>(إسحاق بن الحسين: آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كلّ مكان ، دار عالم الكتب، ط1، 1408هـ- 1988 م ، ص79)

[2]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص404.

تحدّث ابن بطّوطة كثيرا عن كرم المرأة في العديد من المناطق التي قصدها، وقد كان كثير الإعجاب بحسن صنيعها وأثنى عليها. كما أشاد بالمرأة المنجزة في مدينة بلخ [2] التّي كان لها الفضل الكبير في تشييد المساجد وتعميرها، منهنّ زوجة أمير بلخ داود بن علي الّتي شيّدت مسجدا كان من أعظم المساجد في تلك المدينة، وكرم هذه المرأة لم يتوقّف عند هذا الحدّ بل تجاوزه إذ نجد ابن بطوطة يفصّل في ذلك قائلا:<< اتّفق أنّ الخليفة غضب مرّة على أهل بلخ لحادث أحدثوه، فبعث إليهم من يغرمهم مغرما فادحا. فلمّا بلغ إلى بلخ أتى نساؤها و صبيانها إلى تلك المرأة التي بنت المسجد، وهي زوج أميرهم، وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم. فبعثت إلى الأمير الذي قدم برسم تغريمهم، فقالت له: اذهب بهذا الثوب إلى الخليفة فقد أعطيتة صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم. فذهب به إلى الخليفة وألقى الثوب بين يديه، وقص عليه القصة. فخجل الخليفة وقال أتكون المرأة أكرم منا وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ و بالعودة إليها ليرد للمرأة ثوبها، وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة. فعاد الأمير إلى بلخ وأتى المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب، فقالت له: أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب؟. قال: نعم، قالت: لا ألبس ثوبا وقع عليه بصر غير ذي محرم منّي. وأمرت ببيعه، فبني منه المسجد والزّاوية ورباط فمقابلته مبنى بالكذان وهو عامر حتّى الآن وفضُل من ثمن الثّوب ثلثه. فذكر أنّها أمرت بدفنه تحت بعض سواري المسجد ليكون هنالك متيسّرا إن احتيج إليه أخرج>>[1].

إنّ القصّة الّتي سردها ابن بطّوطة تحمل دلالات كونها تعكس النّظرة الدّونيّة للمرأة، ولو طرحنا السّؤال التالي لاكتشفنا ذلك، لماذا رفض الخليفة قبول ما قدّم له من زوجة الأمير؟. استطاعت فهذه المرأة بحسن صنيعها أن أثبتت مروءة لم يجدها الرّعيّة عند الرّجل، فالكرم والجود والسخاء وجدوه عندها عوض أن يجدوه في الخليفة، ولو قبل الخليفة المغرم الّذي قدّم له لقضى على رجولته أمام تصرّف امرأة وهبته أكثر ممّا طلب، ويظهر ذلك في قول الخليفة: أتكون المرأة أكرم منّا؟. وهذا يعكس نظرة الخليفة للمرأة، حيث كانت هذه

---

[2]– بلخ: << ولاية من ولايات أفغانستان عاصمتها حاليّا مزار شريف>> (ويكيبيديا الموسوعة الحرة www.google.com).

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص ص 423–424.

النظرة نظرة استعلاء معتبرا نفسه أحسن منها حتّى في الكرم، مبرزا إنسانيّته الّتي تناساها عند فرضه مبالغ طائلة على من لا يستطيع تغريمها.

لم تتصف هذه المرأة بالإنسانيّة والكرم فحسب بل كانت امرأة صالحة تتميّز بالقناعة والتّقى والعفّة وصون النّفس والكفّ عمّا حرّمه الله بملازمتها لما يقرّبها من خالقها ؛ أكرمها جلّ وعلا بالمال والجاه إلّا أنّها كانت متحرّرة من رقّ الجشع والكبرياء والطّمع الّذي يأسر القلوب، وإن كان غناها الّذي لمسناه هو غناها بربّها وتقرّبها منه بصالح الأعمال، لم تغرها ملذّات الدّنيا ولم تغلق بابها في وجه ذوي الحاجات ولم تتقاعس في مدّ يد العون لهم. اجتمعت فيها كلّ الخصال الحميدة وهي من صفات الكمال وإن كان الكمال لله جلّ و علا، فوقارها ودماثة خلقها وتواضعها يظهر في رفضها استعادة لباسها بسبب وقوع بصر الخليفة عليه، وبما أنّ الخراج أُسقِط آثرت أن تجعل مقابل ثوبها أعمالا تقرّبها من خالقها. يقول أبو الورد :<< إذا زاد الله في الوليّ ثلاثة أشياء زاد منه ثلاثة أشياء: إذا زاد جاهه زاد تواضعه، وإذا زاد ماله زاد سخاؤه، وإذا زاد عمره زاد اجتهاده>> [1]. وهذه حكمة من حكم السّلف نجدها تنطبق على هذه المرأة الحكيمة الرّاشدة ذات الرأي السديد.

كان ابن بطوطة أينما حلّ تلقّى ترحيبا من طرف السّلاطين والأمراء وغيرهم، كما حظي باحترام زوجاتهم اللّواتي استضفنه في قصورهم، فجادوا عليه وأكرموه أحسن تكريم من بينهنّ السّلطانة المخدومة جهان والدة سلطان الهند غياث الدين تغلق شاه، قال عنها ابن بطّوطة أنها << من أفضل النّساء كثيرة الصّدقات، عمّرت زوايا كثيرة وجعلت فيها الطّعام للوارد والصّادر، وهي مكفوفة البصر، وسبب ذلك أنّه لمّا ملك ابنها جاء إليها جميع الخواتين وبنات الملوك والأمراء في أحسن زيّ، وهي على سرير الذّهب المرصّع بالجوهر، فخدمن بين يديها جميعا، فذهب بصرها في لحين، وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع>> [2]. وأثناء استضافتها له في قصره قدِّم له الأكل في صواني من الذّهب الخالص هو ومن معه، وبعد ذلك قدّم لهم قطع من القماش ذا نوعية جيدة من حرير وكتان وقطن كما أنها اهتمّت

---

[1]– أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي : طبقات الصوفية ، تحقيق وتعليق : مصطفى عبد القادر عطا، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2 ، 1424هـ–2003م، ص 200.

[2]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2 ..، ص ص 573–574.

بهم أثناء وجودهم بالدّار الّتي خصّصت لهم والّتي كانت مجهزّة أحسن تجهيز، أمّا كرمها وسخاؤها لم يعرف له حدود. وعند سماع ابنها السّلطان بوفاة ابنته كلّف من يحضر جاريته أمّ البنت، وعند وصولها نالها من كرم السّلطانة ما نال ابن بطّوطة وربّما أكثر، إذ نجده يصرّح بذلك قائلا:<< أقامت عندهم ليلة وجاءت في اليوم التّالي وفد أعطوها ألف دينار دراهم وأساور ذهب مرصّعة، وتهليلا من الذّهب مرصّع أيضا وكتّان قماش مزركشا بالذّهب وخلعة[1] حرير مذهّبة وتختا بأثواب>>[2].

لم يقتصر ابن بطّوطة على نقل صورة المرأة الجسد الّتي رآها بأمّ عينه أو وصفت له ناقلا لنا عاداتها تقاليدها جمالها ورعها أو فجورها، بل نقل لنا صورة مرأة العالم الآخر مذكّرا ومشيدا بأعمالها وإنجازاتها واصفا قبرها. من ذلك قبر حليمة السّعدية مرضعة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم[3] و تربة السّيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن علي بن الحسين بن علي عليهم السّلام الموجودة بالقاهرة قائلا أنّها كانت مجابة الدّعوة مجتهدة في العبادة، كما نجده يصوّر لنا تربتها أو قبرها. فهي تربة أنيقة البناء مشرقة الضّياء عليها رباط مقصود، وهذا الرّباط يوضع على الأبواب وكانت العائلات يقصدن تلك المزارات كلّ ليلة جمعة رفقة أولادهم ونسائهم [4].

وقد ورد عن هذه السّيّدة في كتاب أعلام النّساء لعمر رضا كحّالة أنّها كانت من ربّات العبادة والصّلاح والزّهد والورع، كما كانت حافظة للقرآن الكريم وتفسيره. يروى أنّ الإمام الشّافعي لمّا دخل مصر حضر إليها وسمع عليها الحديث، كانت كثيرة البكاء تديم قيام اللّيل وصيام النّهار، حجّت ثلاثين حجّة، ولمّا مرضت حفرت قبرها بيدها في بيتها فكانت تنزل

---

[1]- الخلعة: بالكسر: ما يُخلع على الإنسان من الثياب: طرح عليه أم لم يُطرح ، وكلّ ثوب تخلعه عنك خِلعة: وإذا قيل خلع فلان كان معناه أعطاه ثوبا واستفيد معنى العطاء من هذه اللّفظة. والخِلعة: ما يخلعه الخليفة أو الأمير أو الملك على أحد الناس من الثياب الفاخرة (المعجم العربي لأسماء الملابس..، ص156).

[2]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2 ..، ص 578.

[3]- نفسه ج1..، ص207.

[4]- نفسه..، ص55.

فيه وتصلّي كثيرا فقرأت فيه مائة وتسعين ختمة. احتضرت سنة208هـ وهي صائمة، ألحوا عليها بالإفطار لكنّها رفضت لأنّها عزمت على لقائه وهي صائمة، وماتت وهي تتلو سورة الأنعام ودفنت في منزلها بدرب السّباع ولأهل مصر اعتقاد بها عظيم[1]. كما وصف لنا قبر مريم و فاطمة بنت الحسين بن عليّ عليهم السّلام بالشّام، و ما نقش على ألواح قبورهما، نذكر منها الأبيات التي ضمّنها النّقّاش: محمد بن أبي سهل على لوح قبر فاطمة بنت الحسين [2].

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه بالرّغم منّي بين الترب والحجر

يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمـــــــة بنت الأئمّة بنت الأنجم الزّهـــر

يا قبر ما فيك من دين ومـــن ورع ومن عفاف ومن صون ومن خفر

اهتمّ ابن بطوطة بوصف قبور زوجات الرّسول صلّى الله عليه وسلّم كما اهتمّ بذكر إنجازاتهنّ، من ذلك بناء أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها لثلاث مساجد على طريق التّنعيم[3]، وهو طريق فسيح يتحرّى النّاس كنسه رغبة في الأجر والثّواب[4].

4- صورة المرأة بين العادات والتقاليد:

نجد ابن بطوطة يحرص كثيرا على الوصف كما سبق وأن ذكرنا، لم يستثن شيئا وقعت عليه عينه خاصّة المرأة، اهتمّ بها كثيرا كما اهتمّ بوصفها خلقيّا وخُلُقيّا، مركّزا على عاداتها وتقاليدها مستحسنا بعضها مبديا استياءه نحو البعض الآخر، ومن الأمور الّتي لاقت

---

[1]- ينظر: عمر رضا كحّالة: أعلام النّساء في عالمي العرب و الإسلام، ج5، مؤسّسة الرّسالة للطباعة والنشر، بيروت، د. ط، د.ت، ص ص 187-189 .

[2]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص 76.

[3]- التنعيم: << موضع بمكّة في الحل وهو بين مكة وسَرِف على فرسخين من مكة وقيل على أربعة سمّي بذلك لأنّ جبلا عن يمينه يقال له نعيم وآخر عن شماله يقلا له ناعم، والوادي نعمان، وبالتنعيم مساجد حول مسجد عائشة وسقايا عن طريق المدينة منه يحرم المكّيون بالعمرة >> (معجم البلدان، مج2..، ص 49) .

[4]- ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص ص 124-125.

استحسانه مشاركة المرأة في التحضيرات الخاصّة بالحج . من ذلك صورة المرأة في مصر فابن بطّوطة نقل عادة من عادات أهلها والمتمثّلة في كيفية استعداد المرأة للحج بحكم أنّها كانت تشارك في التحضير له. كان لديهم يوم يسمّى بيوم" **المحمل** " **أو اليوم المشهود** وهو يوم دوران الجمل، هذا المحمل كان يركب فيه القضاة الأربعة أعلاهم منزلة في الجلوس قاضي الشّافعية ثمّ قاضي الحنفية ثمّ قاضي المالكيّة ثمّ قاضي الحنبليّة، ووكيل بيت المال والمحتسب، كما يركب معهم أعلام الفقهاء، وأمناء الرّؤساء، وأرباب الدّولة ليقصدوا باب القلعة، دار الملك النّاصر، فيخرج إليهم المحمل على جمل، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السّنة، ومعه عسكره والسّقّاؤون على جمالهم، ليجتمع لذلك أصناف النّاس من الرّجال والنّساء ثمّ يطوفون بالمحمل وذلك كان يتمّ في شهر رجب[1]. كان أهل مصر وبالتّحديد في القاهرة يقومون بذلك لتحفيز النّاس على آداء فريضة الحجّ وبثّ العزيمة في النّفوس، فمن أراد ذلك تأهّب واستعدّ. وبما أنّها شاركت معهم في ذلك فهذا يعني أنّها لم تستثن، وبالتالي كانت لديها الحرية في اتخاذها قرار شدّ الرّحال إلى الحجاز. كانت تسعى في عهده بين الصّفا والمروة شأنها شأن الرّجل، فهذا الأخير كان يسعى على الأقدام أمّا المرأة فكانت تسعى على الهودج[2]، والهودج محمل يوضع على ظهر جمل له قبّة تركب فيه النّساء، كما كان يستخدم لحمل الأثرياء. فبتخصيصهم هذا الأخير لها لدلالة على رأفتهم بها وحرصهم على راحتها. فهو يحمل برفق ويسير ببطء ودون إسراع رفقا بمن فيه من النّساء، كما أنّه كان يحقّق السّتر للمرأة أثناء ركوبها عليه[3].

أمّا في وصفه لنساء مكّة فقال أنّهنّ << فائقات الحسن، بارعات الجمال وذوات صلاح وعفاف وهنّ يكثرن التّطيّب حتّى أنّ إحداهنّ لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيبا. وهنّ يقصدن

---

[1]- ينظر: المرجع السابق..، ص ص 61-62 .

[2]- نفسه..، ص 182.

[3]- ينظر: ناصر عبد الله احميضي: الهودج، مجلّة الرّياض، ع 13341، الأحد 21 ذو القعدة 1425هـ-20يناير 2005م.www. google.com

الطّواف بالبيت في كلّ ليلة جمعة، فيأتين في أحسن زيّ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهنّ، وتذهب المرأة منهنّ فيبقى أثر الطّيب بعد ذهابها عبقا >>[1]. وبما أنّ ابن بطوطة اهتمّ بوصف اللّباس والعطر فهذا يؤكّد شدّة اهتمامه بالمظهر والهيئة الحسنة فكرهه للأماكن النّتنة ذات الرّائحة الكريهة يعكس لنا جانبا من شخصيّته بميله لكلّ ماهو جميل وذو رائحة طيّبة.

قدّم ابن بطوطة صورا متعدّدة عن المرأة أمّا أختا زوجة، كما قدّم صورة غير مطوّلة عن المرأة البنت في الشّام وبالتحديد في بيروت مقتصرا على عوائدهم في تجهيزها، إذ أنّها كانت تحظى بمكانة عند والدها وجهازها يعكس لنا ذلك، يقول ابن بطّوطة: <<عوائدهم إذا آن بناء زوجها عليها قام الأب بتجهيزها، أمّا جزاها فمعظمه أواني نحاسية، لأنّه بالنّسبة لهم كان مصدر فخر>>[2].

أمّا في دمشق[3] << كانت الأوقاف لا تعدّ ولا تحصى، لكثرتها خصّص جزء منها لتزويج البنات اللّواتي لا قدرة لأهلهنّ على تجهيزهنّ >>[4]. باعتبارهنّ جزء من المجتمع له الحق في الاستفادة منها.

كان ابن بطوطة فضوليّا وهذا الأخير جعلنا نتعرّف على دقائق أمور أحداث وعادات وتقاليد الأمصار الّتي زارها معتمدا فيها على المعاينة والمشاهدة الحيّة من ذلك حرصه على معرفة عادة من عادات الأسرة الحاكمة إذ نجده يفصّل في ذلك قائلا: << ثمّ خرجت من بغداد في محلّة السّلطان أبي سعيد وغرضي أن **أشاهد** ملك العراق في رحيله ونزوله وكيفية تنقّله وسفره من ذلك ما يتعلّق بخواتينه فإذا نزلوا ينزل السّلطان ومماليكه في محلّة على

---

[1]- المرجع السابق..، ص169.

[2]- نفسه..، ص83.

[3]- دمشق: << سمّيت بدمشق بن نمرود بن كنعان، فإنّه هو الّذي بناها، وكان آمن بإبراهيم عليه السّلام وصار معه >>. (أبو عبيد عبد الله بن العزيز البكري الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، مج 2، عالم الكتب، بيروت، د. ط، د.ت، ص556) .

[4]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص118 .

حدة، وتنزل كلّ خاتون من خواتينه في محلّة على حدة – كما كانت الخاتون* بغداد زوجة السّلطان أبو سعيد والمفضّلة عند السّلطان يكون لها ذلك– ولكلّ واحدة منهنّ الإمام والمؤذّن والقرّاء والسّوق..، فإذا كان الرّحيل ضرب الطّبل الكبير، ثمّ يضرب طبل الخاتون الكبرى الّتي هي الملكة ثمّ أطبال سائر الخواتين ثمّ الطّبل الوزير ثمّ أطبال الوزراء دفعة واحدة، ثمّ يركب أمير المقدّمة في عسكره، ثمّ يتبعه الخواتين..، ثمّ أثقال السّلطان و زاملته وأثقال الخواتين>>[1]. لم يكتف ابن بطوطة بذكر ترتيب الخواتين بل حرص على وصف متاعهنّ، كما قدّم لنا صورة عن نساء الأتراك وتنافسهنّ في شراء الجواهر بمدينة تبريز[2] وبالتحديد في سوق قازان قائلا أنّه من أحسن أسواق بلاد الدّنيا إذ اعتبر << هذا التّهافت من طرف النّسوة فتنة يستعاذ منها>>[3] .

كما ركّز ابن بطّوطة على العادات والتقاليد وجدناه يقف مطوّلا على الجانب الأخلاقي، فكما شدّه جمال بعضها وحسنها تأثّر أيضا بورعها وزهدها كالمرأة الّتي صادفها عند عودته إلى بغداد وبالتحديد في الموصل[4]، قال عنها: << وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمّى بالسّت زاهدة، وهي من ذرّية الحنفاء حجّت مرارا، وهي ملازمة الصّوم، سلّمت عليها وكنت في

---

*الخاتون: << المرأة الشّريفة عالية المقام، كان يلقّب بها نساء الملوك وهي كلمة أعجميّة>>(القاموس المحيط..، ص 440). هي كلمة << تركية مغولية انتقلت إلى عدّة لغات لعدد من الشّعوب الإسلامية وفي مقدّمتها العربية والفارسية والأوردية– هي اللّغة الرّسمية في باكستان– وكثيرا ما كانت تطلق على زوجة الخليفة أو السّلطان وأمّه وباقي الأميرات وكذلك زوجات الوزراء والأعيان و الباشوات. وأصل تسمية خاتون من التّأنيث "خاقان تون" والّذي يعني الملك أو السّلطان، ويكون بمعنى خاتون السّيّدة أو المعظّمة أو السّلطانة. ظهر هذا اللّقب في العالم العربي في العهد العباسي في بغداد إثر احتكاك العرب بالتّرك ويجمع على خواتين الخاتون: فارسيّتها خاتون: وهي المرأة صاحبة الكلام في البيت والمتصرّفة فيه ومنها خاتون بالتركية والكردية>>(ادّى شير: الألفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية للآباء الكاثوليكيين، بيروت، د. ط ، 1907 م، ص51)

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص 252.

[2]– تبريز<< من أشهر مدن أذربيجان بإيران>>(معجم البلدان، مج 2..، ص13).

[3]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص252 .

[4]– الموصل: << سمّيت بهذا الاسم لأنّها وصلت بين الفرات ودجلة >> (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، مج4..، ص 1278.

جوارها ومعها جملة من الفقراء يخدمونها، وفي هذه الوجهة توفّيت رحمة الله عليها وكانت وفاتها بزرود ودفنت هنالك>>[1].

أمّا القصّة التّالية فهي تعكس لنا صورة امرأة آثرت الارتباط برجل بعيد كلّ البعد عن مستواها الاجتماعي لتخرج بذلك عن العادات والتقاليد الّتي تفرض على من ينتمي إلى الأسرة الحاكمة أن يرتبط بمن يماثلها في المكانة الثّراء.

هي حكاية ابنة سلطان بمدينة جبلة[2] ، كانت هذه المدينة على مقربة من مدينة اللّاذقية[3] إذ نجده يقول: << ثمّ سافرت من حصون الفداوية إلى مدينة جبلة، وهي ذات أنهار مطردة وأشجار، البحر على نحو ميل منها، وبها قبر الوليّ الصّالح الشّهير إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهو الّذي نبذ الملك وانقطع إلى الله تعالى..، ولم يكن إبراهيم من بيت ملك كما يظنّه النّاس، وإنّما ورث الملك عن جدّه – والد أمّه– ، أمّا أبوه أدهم فكان من الفقراء الصّالحين السّائحين المتعبّدين الورعين المنقطعين. يذكر أنّه مرّ ذات يوم ببستان بمدينة بخارى وتوضّأ من بعض الأنهار الّتي تتخلّلها، فإذا بتفّاحة يحملها ماء النّهر فقال: هذه لا خطر لها فأكلها، ثمّ وقع في خاطره من ذلك وسواس، فعزم على أن يستحلّ من صاحب البستان. فقرع باب البستان، فخرجت إليه جارية فقال: ادعي لي صاحب المنزل. فقالت: إنّه لامرأة، فقال: استأذني لي عليها. ففعلت فأخبر المرأة بخبر التّفّاحة. فقالت له: إنّ هذا البستان نصفه لي ونصف للسّلطان والسّلطان يومئذ ببلخ[4]، وهي على مسيرة عشرة من

---

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص 259 .

[2]– جبلة: << قلعة مشهورة بساحل الشّام من أعمال حلب قرب اللّاذقيّة>>. (معجم البلدان، مج2 ..، ص105).

[3]– اللّاذقيّة: << مدينة في ساحل بحر الشّام، تعدّ في أعمال حمص، وهي غربيّ جبلّة بينهما ستّة فراسخ. ويضيف ياقوت الحموي قائلا أنّها أصبحت في زمنه من أعمال حلب>> (نفسه، مج5، ص 5).

[4]– بلخ: << مدينة مشهورة بخرسان، في الإقليم الخامس، قيل أنّ أوّل من بناها لُهْراسف الملك لمّا خرّب صاحبه بختنصر بيت المقدس، وقيل الإسكندر قديما – وهي ولاية من ولايات أفغانستان –>>(معجم البلدان، مج1..، ص479.

بخارى[1]، وأحّلته المرأة من نصفها وذهب إلى بلخ، فاعترض السّلطان في موكبه، فأخبره الخبر واستحلّه. فأمره أن يعود إليه من الغد وكان للسّلطان بنت بارعة الجمال قد خطبه أبناء الملوك فتمنّعت، وحببت إليها العبادة وحبّ الصّالحين، وهي تحبّ أن تتزوّج من ورع زاهد في الدّنيا. فلمّا عاد السّلطان إلى منزله أخبر ابنته بخبر أدهم، و قال: ما رأيت أورع من هذا، يأتي من بخارى إلى بلخ لأجل نصف تفّاحة، فرغبت في تزوّجه، فلمّا أتاه من الغد قال: لا أحلّك إلّا أن تتزوّج ببنتي. فانقاد إلى ذلك بعد استعصاء وتمنّع، فتزوّج منها. فلمّا دخل وجدها متزيّنة والبيت مزيّنة بالفرش وسواها، فعمد إلى ناحية من البيت وأقبل على صلاته حتّى لأصبح . ولم يزل كذلك سبع ليال. وكان السّلطان ما أحلّه قبل، فبعث إليه أن يحلّه فقال: لا أحلّك حتّى يقع اجتماعك بزوجك، فلمّا كان اللّيل واقعها ثمّ اغتسل وقام إلى الصّلاة. فصاح صيحة وسجد في مصلّاه فوجد ميتا رحمه الله، وحملت منه فولدت إبراهيم ولم يكن لجدّه ولد فأسند الملك إليه>>[2] .

هذه القصّة تحمل دلالات وقيما مختلفة، فالمرأة توفّرت لديها كلّ متطلّبات الحياة من سلطة ورفعة وسموّ ونفوذ، إلّا أنّها كانت متمسّكة بدينها، وولاؤها كان لخالقها ممتنعة من الزّواج بمن يساويها في الطّبقة مفضّلة من هو أدنى منها منزلة، لكن هذا الأخير لا يفوقها في المال والجاه بل يفوقها في الإيمان. وبالتالي كان الزّوج الّذي اختارته المقياس الّذي تقيس عليه الرّجل، وهذا يعكس لنا صورة المرأة البنت الحكيمة المتخلّقة الرّاشدة والمتواضعة المترفّعة عمّا يشدّ الفتاة في سنّها بأمير أو سلطان ذا مال وجاه، مركزة على مكانة وسلطة ووسامة، وبتصرّفها هذا تكون قد كسرت العادات والتقاليد وتلك الحواجز الّتي تقف حائلا بين الطّبقة الأرسقراطيّة والكادحة.

أمّا في مدينة سيلان نجده يكتفي بوصف زينة المرأة قائلا << وجميع النّساء بجزيرة سيلان لهنّ القلائد من الياقوت الملوّن ويجعلنه في أيديهنّ وأرجلهنّ عوضا من الأسورة

---

[1]- بخارى: << من أعظم مدن ما وراء النّهر وأجلّها، وهي في الإقليم الخامس، وبعدها عن خط المغرب سبع وثمانون درجة، افتتحها سعيد بن عثمان بن عفّان في زمن معاوية بن أبي سفيان>> (آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كلّ مكان..، ص 83).

[2]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،ج1..، ص ص95- 96 .

والخلاخيل، وجواري السّلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤوسهنّ>>[1]. في حين أنّنا نجده يتحدّث عن جمالها ولباسها في مدينة جاوة، أمّا المرأة الزّانية في تلك المدينة فكانت تعاقب أشدّ العقوبة عكس المرأة في عمان الّتي كانت تُشَجَّع على ذلك. يقول ابن بطّوطة: << لهنّ جمال بارع يستتر نساؤهم بأوراق الشجر، والزانية منهنّ تعاقب عقابا شديدا حتّى الموت>>[2].

من عادة ابن بطّوطة عند دخوله أيّ مدينة يباشر في وصفها من ذلك مدينة شيراز[3] الواقعة بإيران فبعد وصفه لها انتقل إلى وصف نسائها، وما أثار إعجابه بهنّ تمسّكهنّ بدينهنّ وحشمتهنّ وإقبالهنّ على مجالس الذّكر والوعظ، لكثرتهنّ لم يستطع إحصاءهنّ مدحهنّ قائلا: << وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساؤها، وهنّ يلبسن الخفاف، ويخرجن متلحّفات متبرقعات، فلا يظهر منهنّ شيء، ولهنّ الصّدقات والإيثار ومن غريب حالهنّ أنّهنّ يجتمعن لسماع الواعظ في كلّ يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم، فربّما اجتمع فيهنّ الألف والألفان، بأيديهنّ المراوح يروّحن بها على أنفسهنّ من شدّة الحرّ، ولم أر اجتماع النّساء في مثل عددهنّ في بلدة من البلاد[4].

كانت المرأة في هذه المدينة تتمتّع بحقّها في الميراث عكس المرأة في مدينة عيذاب بالبحر الأحمر الّتي جرى عليها ما جرى على المرأة في العصر الجاهليّ بحكم أنّهم كانوا << لا يورّثون البنات>>[5] ، وخير دليل على ذلك ما نقله لنا ابن بطوطة حول النّزاع الذي كان بين أمّ السّلطان أبا إسحاق ملك شيراز وبين أختيه اللتين لجأتا إلى القاضي مجد الدّين ليفصل بينهما، وهذا الأخير كان من أصدقاء ابن بطّوطة فنجده يقول :<< وأتيته مرّة أخرى إلى المدرسة فوجدت بابها مسدودا فسألت عن سبب ذلك، فأخبرت أنّ أمّ السّلطان وأخته نشأت بينهما خصومة في الميراث فصرفهما إلى القاضي مجد الدّين، فوصلتا إليه في

---

[1]- المرجع السابق ج2 ..، ص679.

[2]- نفسه..، ص 704.

[3]- << شيراز: بالكسر، بلد عظيم يقع وسط بلاد فارس>> (معجم البلدان مج 3..،ص380).

[4]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج1..، ص223.

[5]- نفسه..،ص69.

المدرسة وتحاكمتا عنده وفصل بينهما بواجب الشّرع >> [1]. هذه الأحداث تعكس صورة المرأة الأمّ الّتي خرجت عن سيطرة الرّجل الابن الّذي كان يحتكر على كلّ ممتلكات والده بعد وفاته .

استحسن ابن بطّوطة عشرة نساء اليمن لأزواجهم، لما يتمتّعن به من صبر وتحمّل لمسؤولية الأبناء أثناء غياب الزوج دون تدمّر ودون مطالبتها بنفقة أو كسوة، كما أنّها تبقى وفية له إلى أن يعود. فنساؤهنّ لا يمتنعن من الزّواج ممّن لا يحمل جنسيتهنّ مقارنا إيّاهنّ في هذه المسألة بنساء بلده، لكنّهنّ يرفضن مغادرة بلدهنّ مهما كانت الأسباب مشيدا بجمالهنّ وحسن أخلاقهنّ وكرمهنّ. يقول ابن بطّوطة:<< وتخرج النّساء متمطّيات الجمال في المحامل، ولهنّ مع ما ذكرناه من الجمال الفائق والأخلاق الحسنة والمكارم. وللغريب عندهنّ مزيّة، ولا يمتنعن من تزوّجه كما يفعله نساء بلادنا. فإذا أراد السّفر خرجت معه وودّعته، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيّام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها. وإذا كان مقيما فهي تقنع بقليل النّفقة والكسوة، لكنّهنّ لا يخرجن عن بلدهنّ أبدأ، ولو أعطيت إحداهنّ ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل>>[2]. شأنها شأن المرأة في جزائر ذبية المهل في حالة ما قرّر الزّوج مغادرة البلاد طلّق زوجته الّتي هي بدورها عرفت بإخلاصها ووفائها لزوجها، فالمرأة الزّوجة في تلك المدينة امرأة وفيّة مطيعة خدومة مدلّلة لزوجها لا تكلّفه مالا يطيق، وهذا ما جعله يتزوّج أربع نساء منها وذلك لحسن معاشرتهنّ.

ومن الصّور الّتي لم يغفل عنها ابن بطّوطة المرأة المطلّقة محاولا تغيير مصيرها عند تولّيه القضاء بسبب ما كان يقع عليها ؛ فبعدما كانت المرأة في الجاهليّة تبقى أسيرة أهل زوجها، كرّمها الإسلام وجعلها حرّة تحسّ بوجودها وإنسانيّتها. فالبعض حافظ على هذه المنزلة الّتي منحها لها خالقها إلّا أنّ البعض عاملها نفس معاملة الإنسان الجاهليّ واعتبرها جزءا من أملاكه له الحقّ في التّصرّف فيها كيفما شاء جاعلا إيّاها في مرتبة العبيد. وتلك كانت منزلة المرأة المطلّقة في جزائر ذبية المهل، إلّا أنّ ابن بطّوطة استطاع أن يحرّرها

---

[1]– المرجع السابق..، ص 226.

[2]– نفسه..، ص ص272–273.

بعدما كانت تبقى رهينة وأسيرة طليقها إلى أن تجد زوجا آخر. فالمرأة في هذه المدينة كانت تبقى تحت سيطرته وجبروته حتّى بعد انفصالها عنه ليجعلها سبيّة وخادمة له إلى أن تحظى بزوج آخر، وإن كان العكس ظلّت طول حياتها ملكا له مسخّرة لخدمته وخدمة من معه. فلا حواجز تعترض طريقه له الحق في استبدالها بغيرها، مستهدفا مسّ مشاعرها وأحاسيسها لتعيش مقهورة ذليلة محاصرة بسبب تلك العادات والتقاليد الّتي جعلت منها امرأة مقيّدة مسلوبة الحرّيّة لا سبيل لها للخلاص من عنترته، لتقضي ما تبقي من حياتها مهانة مضطهدة أسيرة طلاق مع وقف التّنفيذ. يقول ابن بطّوطة: << فأوّل ما غيّرت من عوائد السّوء مكث المطلّقات في ديار المطلقين، وكانت إحداهن لاتزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره. فحسمت علة ذلك، وأُوتي إلي بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق، وأخرجت النساء عنهم، ثم اشتددت في إقامة الصلوات، وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق أثر صلاة الجمعة فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته، وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله، وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك، وجهدت أن أكسو النساء، فلم أقدر على ذلك >> [1].

فقول ابن بطّوطة " وجهدت أن أكسو النساء، فلم أقدر على ذلك " يوحي بعدم رضاه على طريقة لباسهنّ الّتي حاول تغييرها عند تولّيه القضاء بها إلّا أنّه عجز عن ذلك . وبنقله لهذه العادة يكون قد نقل صورة أخرى عن المرأة؛ صورة المرأة المتحرّرة الرّافضة للتّغيير نظرا لتشبّثها بمعتقداتها وتقاليدها لها رأي لها مبادئ يستحيل أن تتخلّى عنها، محاولة أن تثبت وجودها وعدم خضوعها للقوى والتأثيرات الخارجيّة، خاصّة وأنّها لم ترفض محاولته تغيير مصيرها بعد طلاقها يقول ابن بطّوطة:<< نساؤها لا يغطّين رؤوسهنّ ولا سلطانتهنّ، يمشطن شعورهنّ ويجمعنها إلى جهة واحدة، ولا يلبس أكثرهنّ إلّا فوطة واحدة تسترها من السّرّة إلى الأسفل، وسائر أجسادهنّ مكشوفة، وكذلك يمشين في الأسواق..، ولباس بعضهنّ قمص زائدة على الفوطة، وقمصهنّ قصار الأكمام عراضها..، وحِليهنّ الأساور، وتجعل المرأة جملة في ذراعيها، بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق، وهي من الفضّة، ولا يجعل

[1]– المرجع السابق..، ص 669.

أساور الذّهب إلّا نساء السّلطان وأقاربه ولهنّ الخلاخيل ويسمّونها البَايِل، وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهنّ ويسمّونها البَسدَرَد >> [1] .

تعجّب ابن بطّوطة من أمور كثيرة خارجة عن المألوف من ذلك خدمة النّساء بالدّيار بجزائر ذبية المهل، حيث كانت الطّبقة الغنيّة تستغلّ عوز وفاقة المحتاجات من الخادمات ويظهر ذلك في عدم تسامحها معهنّ وهذا ما نقله لنا ابن بطّوطة في قوله: << إذا كسر من الأواني ما كسر يخصم من حسابها لتبقى رهينة فيه إلى أن تسدّد ما عليها. أو يسدّده أهل الدار الّذين انتقلت إليهم لكن لا تخرج من البيت الأوّل حتّى يدفع المال بالكامل ليخصم من راتبها الجديد وهكذا >> [2].

وبالنّسبة للمرأة البنت أو الجارية فكانت تقدّم قربانا للآلهة بعد تجهيزها وتزيينها كما كانوا يفعلون في الهند، ليدخلوها بيت للأصنام بعد قيامهم بالقرعة لتبقى هنالك ليلة كاملة، وفي الصّباح يجدونها منتفضة ميتة لتحرق بعدها وتلك كانت عادتهم. يقول ابن بطّوطة أنّ الفضل في خلاص المرأة في تلك المدينة وفي اعتناق سلطانها أحمد شَنْورازة ورعيّته للدّين الإسلامي الشيخ أبو البركات البربري الّذي كان حافظا للقرآن. فقد لازم هذا الأخير ذلك البيت إلى أن قضى على العفريت[3]. و يضيف ابن بطّوطة مبيّنا تعجّبه من تصرّف بعض النّسوة عند دخوله إلى مدينتهم رفقة الأهالي والأولاد قائلا: << سمعت الناس يجهرون بالتّهليل والتّكبير ورأيت الأولاد وعلى رؤوسهم المصاحف، والنّساء يضربن في الطسوت وأواني النّحاس، فعجبت من فعلهم و قلت: ما شأنكم؟. فقالوا ألا تنظر إلى البحر؟. فنظرت فإذا مثل المركب الكبير وكأنّه سُرُجا ومشاعل، فقالوا: ذلك العفريت وعادته أن يظهر مرّة في الشّهر فإذا فعلنا ما رأيت انصرف عنّا ولم يضرّنا >> [4].

ما كان يشدّ ابن بطّوطة في نساء البلدان الّتي زارها بالإضافة إلى الجمال العفاف، وعفّة المرأة في نظره حشمتها وحياؤها وما لفت انتباهه في بلاد المليبار وبالتحديد

---

[1]- المرجع السابق..، ص ص 658-659.

[2]- ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2..، ص659.

[3]- نفسه..، ص 660.

[4]- نفسه..، ص 661.

في مدينة هنّور حفظ النّساء للقرآن الكريم مستحسنا طريقة لباسهنّ مقارنة ببعض المناطق الّتي تجرّدت فيها المرأة من الحياء كبعض نساء جزائر ذبية المهل وعمان وغيرها من المناطق الّتي انتقد فيها عاداتها التي خرجت فيها عن المألوف وعن حدود ما شرّعه الدين، إذ نجده يصرّح بذلك قائلا: << نساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد السّاحليّة لا يلبسن المخيّط، وإنّما يلبسن ثيابا غير مخيّطة، تحتزم إحداهنّ بأحد طرفي الثّوب، وتجعل باقية على رأسها وصدرها، ولهنّ جمال وعفاف، وتجعل إحداهنّ خرص ذهب في أنفها، ومن خصائصهنّ أنّهنّ جميعا يحفظن القرآن ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات>>[1]. فالمرأة البنت في هذه المدينة كانت تحظى بعناية كبيرة من ذلك الحقّ في التّعليم، عكس المرأة المتعلّمة في مدينة دلهي الّتي شبّهت بالرّجال أو ببائعات الهوى وقد استخدم لفظة جميعا للدّلالة على شموليّة ذلك.

من عادة المرأة في مدينة لاذق – بلاد الخنازير– وضع عمامة كبيرة على رأسها وهذه الأخيرة كانت تميّزها عن غيرها وأكثر نساء هذه المدينة كنّ من الصّنّاع هذا ما جعلهنّ أعظم شأنا من الرّجل، لكنّ العادة الّتي لم تلق استحسان ابن بطّوطة اقتناء الرّجال للجواري الحسان اللّواتي كنّ بالنّسبة لهم مصدرا مسخّرا لإشباع رغباتهم ما أدّى إلى انتشار الفساد، فلا معارض على تلك الفواحش التي كانت ترتكب ولا ناهي ولا معاقب عليها قال ابن بطّوطة أنّهم<< كانوا يشترون الجواري الرّوميات الحسان ويتركوهنّ للفساد، وكلّ واحدة عليها وظيف لمالكها تؤدّيه له..، وسمعت هنالك أنّ الجواري يدخلن الحمّام مع الرّجال..، وذكر لي أنّ القاضي بها له جوار على هذه الصّورة >>[2].

نساء مالي هنّ بدورهنّ كنّ أعظم شأنا من الرّجال، لا يمتنعن عن الزّواج ممّن لا ينتمي إليهم لكنّهنّ يمنعن من الخروج عن الحيّز الّذي سطّر لهنّ كنساء جزائر ذبية المهل. أمّا الرّجال فلا غيرة لديهم على نسائهم وحرمهم يقول ابن بطّوطة: << ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله، ولا يرث الرجل إلّا أبناء أخته دون بنيه، وذلك شيء ما رأيته في الدّنيا إلّا عند كفّار بلاد المليبار من الهنود وأمّا هؤلاء فهم مسلمون، محافظون على الصّلوات

---

[1]– المرجع السابق ج 2 ..، ص ص 634–635.

[2]– نفسه ..، ص 319.

وتعلّم الفقه وحفظ القرآن. أمّا نساؤهم فلا يحتشمن من الرّجال ولا يحتجبن مع مواظبتهنّ ومداومتهنّ على الصّلوات، ومن أراد التزوّج منهنّ تزوّج لكنّهنّ لا يسافرن مع الزّوج، ولو أرادت إحداهنّ ذلك لمنعها أهلها. والنّساء هنالك يكون لهنّ الأصدقاء والأصحاب من الرّجال الأجانب، وكذلك للرّجال صواحب من النّساء الأجنبيّات فيدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها، فلا ينكر ذلك، دخلت يوما على القاضي بإيوالاتن بعد إذنه في الدّخول، فوجدت عنده امرأة صغيرة السّن بديعة الحسن، فلمّا رأيتها ارتبت وأردت الرّجوع، فضحكت منّي ولم يدركه خجل، وقال لي القاضي: لم ترجع؟. إنّها صاحبتي. فعجبت منهما فإنّه من الفقهاء الحجاج، وأخبرت أنّه استأذن السّلطان في الحجّ في ذلك العام مع صاحبته فلم يؤذن له >>[1].

وقد استشهد ابن بطّوطة بموقف صاحب له تجرّد من صفات الرّجولة والنّخوة والشّهامة ليقرّر التّخلّي عنه بعدما أدرك رضاه على ما تقدم عليه زوجته من إدخالها للغرباء من الرّجال إلى بيته وجلوسها مع أحدهم فوق سريره دون أن يحرّك ساكنا إذ نجده يقول: << دخلت يوما على أبي محمّد بن يندكان المسوفي الّذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعدا على بساط، وفي وسط داره سرير مظلّل عليه امرأة ورجل قاعد وهما يتحدّثان فقلت له: من هذه المرأة؟. فقال هي زوجتي. فقلت وما الرّجل الّذي معها؟. فقال هو صاحبها. فقلت له: أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشّرع؟. فقال لي: مصاحبة النّساء للرّجال عندنا على خير وحسن طريقة، لا تهمة فيها ولسن كنساء بلادكم>> [2]. فعلى الرّغم من اعتناقهم للدّين الإسلامي إلّا أنّ ذلك لم يمنعهم من الوقوع في المحظور بحكم أنّهم اطّلعوا على دستوره وهو القرآن الكريم الّذي يبيّن عاقبة من يرضى على أهله ذلك. **قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم** في فاقد النّخوة الّذي يرى السّوء على أهله ولا تثور غيرته:<< ثلاثة قد حرّم الله عليهم الجنّة: مدمن الخمر والعاق والدّيّوث الّذي يُقِرُّ في أهله الخبثَ>> [3].

---

[1]– ينظر: المرجع السابق ج2..،777.

[2]– نفسه..، ص777.

[3]– نور الدين عتر: ماذا عن المرأة ؟، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط1 ، 1434هـ–2003م، ص 32.

فابن بطّوطة أنكر ما كانت عليه نساء مالي كما انكر ما كانت عليه عمان من فساد أخلاقي كون تلك الأفعال كانت تصدر عن قناعة منها محمّلا المسؤوليّة للرّجال مشبّها إيّاهم بالرّجل الدّيوث الّذي لا يحرّك ساكنا أمام هذه المواقف. لا غيرة ولا نخوة ولا رجولة لمن يفترض أن يذود عنهنّ ويحميهنّ ويعاقبهنّ لاقترافهنّ مالا يرضي خالقهنّ، بسنّه عقوبات لمن يقدمن على مثل هذه الأفعال – السلطان الحاكم– الآمر النّاهي مشجّعا إيّاهنّ على الفسق والفجور، منذرا من يتعرّض لهنّ من أهلهنّ بالموت. ويظهر ذلك فيما نقله لنا في رحلته مستشهدا بقصّة وتلك عادة ابن بطوطة حيث كان يقدّم لنا أمثلة ممّا كانت تقع عليه عينه قائلا: << ونساؤهم يكثرن الفساد، لا غيرة عندهم ولا إنكار لذلك، وسنذكر حكاية أثر هذا ممّا يشهد بذلك، وسلطان عمان عربيّ من قبيلة الأزد بن الغوث، ويعرف بأبي النّبهان، وأبو محمّد عندهم سمة لكلّ سلطان يلي عمان كما هي أتا بك عند ملوك اللور[1]. وعادته أن يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب ولا وزير، ولا يمنع أحدا مجن الدّخول إليه من غريب أو غيره، ويكرم الضّيف..، وكنت يوما عند السّلطان أبي محمّد بن نبهان، فأتته امرأة صغيرة السّن حسنة الصّورة بادية الوجه، فوقفت بين يديه وقالت: يا أبا محمّد طغى الشّيطان في رأسي. فقال لها: اذهبي واطردي الشّيطان فقالت له: لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبا محمّد. فقال لها: اذهبي فافعلي ما شئت. فذكر لي لما انصرفت عنه أنّ هذه و من فعل مثل فعلها تكون في جوار السّلطان، وتذهب للفساد ولا يقدر أبوها ولا ذوو قرابتها أن يغيروا عليها، وإن قتلوها قتلوا بها لأنّها في جوار السّلطان>>[2].

وما أثار استغراب ابن بطّوطة إضافة إلى ما سبق ذكره عن المرأة في مالي القانون الّذي سنّه السلطان لمعاقبتها جاعلا إيّاها في أدنى المراتب مجرّدا إيّاها من أنوثتها وعفّتها كون تلك المنزلة لم تتعدّ منزلة العبد الرّاضخ لسلطة مملوكها بحكم أنّ هذا القانون ينصّ على تجريدها من ملابسها مدّة سبعة أيّام عند دخولها عليه حتّى يرضى عنها السّلطان. فكشف المرأة لجسدها بجزائر ذبية المهل بالنّسبة لها دلالة على تحرّرها وتخلّصها من طوق

[1]– اللّور:<< تقع بين خوزستان وأصبهان، معدودة من عمل خوزستان، ذكر الإصخري قال: اللّور بلد خصيب، الغالب عليه الجبال، وكان من خوزستان، إلّا أنّه أفرد في أعمال الجبل لاتّصاله بها>> (معجم البلدان، مج5..، ص25).

[2]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص ص 297–298 .

العبوديّة وما أقدمت عليه كان بمحض إرادتها، وتمسّكها بلباسها رغم محاولة ابن بطّوطة لدليل على ذلك. في حين نجدها توافقه فيما أقدم عليه من دعوة إلى تغيير القوانين الخاصّة بالمرأة المطلّقة، فما كان يمارس عليها من طليقها هو كبح لحرّيتها، وبما أنّها كانت تطالب بالتّحرّر لم تعترض على قراره. لكن في مالي بظهورها على تلك الصّورة الّتي أجبرت عليها هو تجريد من إنسانيّتها من كرامتها من كيانها إذ نجد ابن بطّوطة يفصّل في ذلك قائلا: << واتّفق في يوم إقامتي بمالي أنّ السّلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمّه المدعوّة بقاسا، ومعنى قاسا عندهم الملكة، وهي شريكته في الملك على عادة السّودان، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر، وسجنها عند بعض الفرارية، وولّى في مكانها زوجته الأخرى بَنْجو، ولم تكن من بنات الملوك، فأكثر النّاس الكلام في ذلك وأنكروا فعله. ودخلت بنات عمّه على بنجو يهنّئنها بالملكة، فجعلن الرّماد على أذرعهنّ ولم يتربن رؤوسهنّ، ثمّ أنّ السّلطان سرّح قاسا من ثقافها، فدخل عليه بنات عمّه يهنّئنها بالسّراح..، فشكت بنجو إلى السّلطان بذلك، فغضب على بنات عمّه، فخفن منه واستجرن بالجامع، فعفا عنهنّ واستدعاهنّ، وعادتهنّ إذا دخلن على السّلطان يدخلن غير مستترات ففعلن ذلك ورضي عنهنّ، وصرن يأتين باب السّلطان غدوّا وعشيّا مدّة سبعة أيّام على تلك الهيأة وكذلك يفعل كلّ من عفا عنه السّلطان>> [1].

وتلك كانت عادة السّودنيين، فمن مساوئ أفعالهم ظهور الخدم والجواري والبنات الصّغار للنّاس غير مستترات، و الأسوأ في الأمر كما قال ابن بطّوطة أنّهنّ كنّ يظهرن على تلك الصّورة حتّى في شهر رمضان كثيرا على غير العادة، وزوجات السّلطان وبناته بدورهنّ كنّ يدخلن عليه على تلك الحالة، وقد شاهد ذلك عندما خرجت نحو مائة جارية من القصر، وبالنّسبة للجواري عليهنّ وضع التّراب والرماد على رؤوسهنّ تأدّبا [1] .

والعجيب في الأمر أنّ السّودانيين كانوا يفضّلون لحوم الآدميات على الحيوانات، وقيل له أنّ أطيب ما فيهنّ الكفّ والثّدي[2]. فالمرأة لم تحرق، لم توءد، لم تسجن ولم تجرّد من

---

[1] – ينظر: المرجع السابق..، ص ص 788–789.

[1]– ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2 ..، ص790.

[2]– ينظر: نفسه..، ص 793.

ثيابها، بل كانت تؤكل بعد ذبحها مثلها مثل الحيوان. وكان السّلطان منسى سليمان متى وفد إليه وفد من السّودان أكرمهم بجارية جاعلا إيّاها في منزلة الحيوان ومعتبرا إيّاها هديّة وأيّ هديّة كان يقدّمها!. يقول ابن بطّوطة:<< قدمت على السّلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السّودان الّذين يأكلون بني آدم معهم أمير لهم، وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطا كبارا..، فأكرمهم السّلطان وأعطاهم في الضّيافة خادما، فذبحوها وأكلوها ولطّخوا وجوههم وأيديهم بدمها وأتوا السّلطان شاكرين، وأخبرت أنّ عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك>>[1].

5- صورة المرأة المضطهدة:

كانت المرأة في بعض الأمصار تستغلّ أسوء استغلال بسبب ضعفها وحاجتها وقلّة حيلتها وقد تعدّدت صور المرأة المضطهدة في رحلة ابن بطّوطة سواء كانت زوجة، أمّا، أختا أو جارية وحتّى طليقة، فكانت تستأجر تشترى وتباع. إذ اعتبرت في بعض الأمصار وسيلة من وسائل التّسلية يطفئ بها الرّجل نزواته ويشبع بها شهواته متجاهلا حقّها في الحياة كإنسان يحسّ يتألّم يفرح ويحزن. وقد أبدى ابن بطوطة استياءه حيال ذلك برفضه لبعض القوانين الّتي كانت ظالمة ومجحفة في حقّ المرأة جاعلة إياها في دركات وليس في أعلى الدّرجات، لم تحظ بمكانة اجتماعية تليق بها لها الحق في أن تعيش حياة كريمة تحسّ بكيانها بوجودها وبإنسانيّتها سلبت الكثير من حقوقها مع أنّها كانت تقوم بواجباتها، كالمرأة الهندية الّتي كانت ضحيّة قوانين وعادات وتقاليد تجبرها على وضع حدّ لحياتها بمجرّد وفاة زوجها لتحرق بنفس النار المتأجّجة لحرقه. وما نقله لنا ابن بطّوطة عنها وعن حرقها مستمدّ من مشاهدته واتّصاله المباشر بمحيطها، فابن بطّوطة لم يكتف بما سمعه عن تلك المرأة الّتي احترقت مع زوجها وهي تعانقه، بل حرص على تعقّب تفاصيل تضحيتها وقد عرض لنا مشهدا من المشاهد الّتي أثارت انفعاله لما تحمله من الغرابة واللّامعقول .

فابن بطوطة أراد أن يكون الشّاهد على وقائع حرق الزّوجات لأنفسهنّ، فبالنّسبة له كان المشهد أسطوريّا أليما غير مألوف ممزوج بمشاعر الاستغراب والذّهول من ناحية، والتعاطف والأسى لما يقع على هذه المرأة من ناحية أخرى لدرجة أنّه أصيب بصدمة، كونهنّ كنّ يقدم

[1]- المرجع السابق ...، ص793.

على ذلك الفعل بمحض إرادتهنّ مبتسمات غير خائفات و لا أحد يعترض عن مثل هذا التّصرّف بل يسوقون المرأة الأيمّ وكأنّهم في احتفال منتظرين متى ينهي هذا الجنس البشري حياته. وفضول ابن بطّوطة هو الّذي جعلنا نكتشف التحضيرات الّتي تسبق عمليّة الحرق، وكيفية إقدامها على ذاك الفعل الشّنيع. وبالنّسبة لهم المرأة الّتي تقدم على ذلك ستصبح رمزا للوفاء والإخلاص، وهذا الأخير تأصّل فيها بتعاقب القرون حتّى أصبح غريزة ثابتة فيها.

فبعدما سمع ابن بطّوطة بخبر المرأة الّتي أقدمت على حرق نفسها مع زوجها، تشوّق لحضور موكبها الجنائزي الّذي تتصدّره وهي متزيّنة و مبتسمة لتقضي نحبها بين الهتاف والحماسة والأدعية والأناشيد المدوّية. يقول ابن بطّوطة في وصف امرأة في دلهي وبالتّحديد في أجودَهَن– تسمّى اليوم باكبتان–، أقدمت على حرق نفسها مع زوجها لتثبت وفاءها له: << كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفّار الهنود متزيّنة راكبة، والنّاس يتبعونها من مسلم وكافر والطّبول والأبواق بين يديها، ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود. وإذا كان ذلك ببلاد السّلطان استأذنوا السّلطان في إحراقها، فيؤذن لهم فيحرقونها>>[1]. وفي هذا السياق نجده يسرد لنا قصّة أخرى فيقول: << كنت بمدينة تعرف بأمجرى وأميرها مسلم من سماسرة السند، وعلى مقربة منه الكفّار العصاة، قطعوا الطّريق يوما، وخرج الأمير المسلم لقتالهم وخرجت معه رعيّة من المسلمين والكفّار، ووقع بينهم قتال شديد مات فيه رعيّة الكفّار سبعة نفر، وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات، فاتّفقن على إحراق أنفسهنّ وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثّياب، وأقامت عند أهلها بائسة لعدم وفائها، ولكنّها لا تكره على إحراق نفسها، ولمّا تعاهدت النّسوة الثّلاث اللّائي ذكرناهنّ على إحراق أنفسهنّ أقمن قبل ذلك ثلاثة أيّام في غناء وطرب وأكل وشرب، كأنّهنّ يودّعن الدّنيا، ويأتين إليهنّ النّساء من كلّ جهة، وفي صبيحة اليوم الرّابع أتيت كلّ واحدة منهنّ بفرس فركبته، وهي متزيّنة متعطّرة، وفي يمناها جوزة نارجيل (جوز الهند) تلعب بها، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها، والبراهمة يحفون بها وأقاربها معها وبين يديها الطّبول والأبواق والأنفار، وكلّ إنسان من الكفّار يقول لها: أبلغي السّلام إلى أبي أو أخي أو أمّي أو صاحبي، وهي تقول: "نعم"، وتضحك إليهم. وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهنّ في

[1]– ينظر: المرجع السابق..، ص469.

الاحتراق. فسرنا معهنّ نحو ثلاثة أميال وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظّلال، وبين أشجاره أربع قبب، في كلّ قبّة صنم من الحجارة وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظّلال وتزاحمت الأشجار فلا تتخلّلها الشّمس. فكأنّ ذلك الموضع بقعة من بقع جهنّم، أعاذنا الله منها، ولمّا وصلنا إلى تلك القباب نزلن إلى الصّهريج وانغمسن فيه، و جرّدن ما عليهنّ من ثياب وحليّ فتصدّقن به، وأتيت كلّ واحدة منهنّ بثوب قطن خشن غير مخيط، فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها. والنّيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصّهريج في موضع منخفض، وصبّ عليها روغن كنجت، وهو زيت الجلجلان، فزاد في اشتعالها. وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرّقيق، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار. وأهل الطّبول والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة، وقد حجبت النّار بملحفة يمسكها الرّجال بأيديهم لئلّا يدهشها النّظر إليها. فرأيت إحداهنّ لمّا وصلت إلى تلك الملحفة، نزعتها من أيدي الرّجال بعنف وقالت لهم: ما واميترا ساني أزاطش من ميدانم أواطش أست رهاكني مارا" وهي تضحك ومعنى هذا الكلام، أ بالنّار تخوّفونني؟. أنا أعلم أنّها نار محرقة ثمّ جمعت يدها على رأسها خدمة للنّار ورمت بنفسها فيها. وعند ذلك ضربت الطّبول والأنفار والأبواق، ورمى الرّجال ما بأيديهم من الحطب عليها وجعل الآخرون ذلك الخشب من فوقها لئلّا تتحرّك، وارتفعت الأصوات وكثر الضّجيج>>[1]

فالمرأة في الهند كانت تعد بعلها ممثلا للآلهة في الأرض بموته تنزل إلى ما دون سِفلة القوم فإمّا تظلّ في حداد مادامت حيّة مضطهدة بائسة منزوية على نفسها وإمّا تحرق مع بعلها يقول ابن بطّوطة :<< وتعد المرأة العزب والمرأة الأيم على الخصوص من المنبوذين من المجتمع الهندوسي، والمنبوذ عندهم في رتبة والحيوانات، ومن الأيامى الفتاة التي تفقد زوجها في أوائل عمرها، فموت الرجل الهندوسي قاسم لظهر زوجته فلا قيام لها بعده، فالمرأة الهندوسية إذا آمت أي فقدت زوجها ظلت في الحداد بقية حياتها وعادت لا تعامل كإنسان، وعدّ نظرها مصدرا لكلّ شؤم على ما تنظر إليه، وعدّت مدنسة لكلّ شيء تمسّه، وأفضل

[1]– المرجع السابق..، ص ص470–480.

شيء لها أن تقذف نفسها في النار التي تحرق جثمان زوجها، وإلا لقيت الهوان الذي يفوق النار>> [1].

فالانتحار بالنسبة لها كان أرحم وأهون من أن تعيش حياة بؤس و مكابدة حين تصبح أقلّ قيمة من أيّ شيء في الوجود، لتعيش منبوذة محتقرة وسط أهلها وعشيرتها معتبرين إيّاها مصدر الشّرّ والرّذيلة، وكلّ هذا ما جعلها تتعجّل موتها خشية أن يطول بها الأمد وتلقى عذابا أشدّ من عذاب النار. وكأنّ التّضحية كانت واجبة على المرأة دون الرّجل تحرق حتّى الموت تقدّم قربانا لا قيمة لحياتها محكوم عليها أن تعاني وتعيش ضّغوطات واضطرابات بكم أنّ الموت كان لا يفارق تفكيرها خشية وفاة زوجها في الهند أو وقوع القرعة عليها في جزائر ذبية المهل وهذه الأخيرة معاناتها لم تكن جسديّة فحسب بل رافقتها معاناة نفسية خاصّة وأنّها مقبلة على المجهول ولا أحد يعلم ما يقع عليها تلك اللّيلة و شبح الموت لها بالمرصاد.

يقول غوستاف لوبون في كتابه حضارات الهند أنّه لا يوجد كتاب أقسى على المرأة من كتب الهندوس، وهم لا يختلفون عن بقيّة الشّرقيّين في النّظر إليهنّ، فالنّساء عندهم مخلوقات ناعمات، لكنّهنّ متأخّرات متقلّبات يجب حجبهنّ لنيل وفائهنّ. من ذلك ما صدر عن المشرع "منو" وهذا الأخير ظلم المرأة كثيرا حيث سادت شريعته الهند ألفي سنة إلّا من جاء بعده لم يغيّر نظرته للمرأة. فقد جعل منو قسمة النّساء في حبّهنّ لفراشهنّ ومقعدهنّ وزينتهنّ وفي هواهنّ وغضبهنّ وسيِّء ميولهنّ ورغبتهنّ في الشّرّ والدّعارة [2]، يضيف هِثُوبَديشا:<< النّساء متقلّبات على الدّوام، ولا تستثن منهنّ نسوة الآلهة، فطوبى لمن يحسن حجْب نسائه، فالمرأة إذا كانت طاهرة فلرغبة الرّجل عنها، لا لحيائها وعفافها وفضلها ووجلها، فالنّساء كالبقرة الّتي تبحث عن الكلإ الجديد في الغابة، فالجديد هو ما يرغبن فيه>>[3].

ونظرة ينج تنترا للمرأة لا تختلف عن الآخرين إذ نجده يقول أنّ<< النّساء يُكلّمن رجلا وينظرن إلى رجل آخر مضطربات، ويفكّرن في رجل ثالث ماثل في خَلَدهنّ، فمن ذا الّذي

---

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص 50 .

[2]– ينظر: حضارات الهند ..، ص577.

[3]– نفسه ..، ص 578

يحبُّهُ النّساء إذن؟ >>[1]. يضيف قائلا أنّ << المرأة هي زوبعة الرّيَب وبؤرة السَّفَهِ ومدينة التّهوّر ومستودع الذّنوبِ وبيت الخداع وحقل الظّنون وزنبيل الطّلاسم، والمرأة هي السّدّ الّذي لا ينفذ منه أكابر النّاس وذووا الدِّراية منهم، والمرأة هي السّمّ الممزوج بالدّلوك فمن خلقها في الدّنيا لزوال الفضيلة>>[2]. فهذه الأقوال تعكس صورة المرأة الدّونية معتبرين إيّاها مصدر المعاصي، هي الغاوية الخائنة ومصدر الرّذيلة تكلّم رجلا وعينها في رجل ثان أمّا الثالث فهو في نفسها، وبالتالي يستحيل أن يجد الرّجل الفضيلة والعفّة فيها جاعلين إيّاها في مرتبة الحيوان.

إنّ الحرق بالنّسبة للمرأة الهنديّة كان خلاصا من الاضطهاد، أمّا بالنسبة للرّجل فكان أفضل من الأسر، لكن في كلتا الحالتين كانت المرأة تتبع زوجها وحتّى أباها، وهذا ما كان من ملك ملوك الكفّار يعرف بالرّآي كنبيلة، << والرّأي عندهم كمثل ما هو بلسان الرّوم عبارة عن السّلطان، وكنبيلة اسم الإقليم الّذي هو به، وهذا الرّأي له بلاد في جبال منيعة..، حوصرت بلاده واشتدّ الأمر على الكفّار ونفذ ما عنده من الزّرع وخاف أن يؤخذ باليد..، فأمر بنار عظيمة فأجّجت وأحرق فيها أمتعته وقال لنسائه وبناته: إنّي أريد قتل نفسي، فمن أرادت مرافقتي فلتفعل، فكانت المرأة منهنّ تغتسل، وتدهن بالصّندل والمقاصريّ، وتقبّل الأرض بين يديه وترمي بنفسها في النّار، حتّى هلكن جميعا، وفعل مثل ذلك نساء أمرائه ووزرائه وأرباب دولته ومن أراد من سائر النّاس >>[3]. ومن كان يقدم على هذا الفعل الشّنيع كفّار الهند لكن بعض المسلمات تأثّرن بما كان يقدم عليه نساء الهند محاولات تقليدهنّ بعد وقوع أزواجهم في الأسر. وهذا ما كان من زوجة عين الملك بعد قيامه على سلطان الهند يقال له أيضا السّلطان علاء الدّين. كانت زوجته السّبب في خلاصها وفي بقاء زوجها على قيد الحياة بعدما هدّدت آسره بحرق نفسها كما تفعل نساء الهند الكافرات، فأثار ذلك استعطافه لتكون بذلك سببا في نجاة زوجها من الموت . يقول ابن بطّوطة ناقلا لنا الحديث الّذي جرى بين إخوة الأسير وزوجته: << وقالوا لزوجة أخيهم عين الملك: اخلصي بنفسك وبنيك معنا فقالت: أفلا أكون كنساء الكفّار اللّائي يحرقن أنفسهنّ مع أزواجهن؟. فأنا أيضا

---

[1]– المرجع السابق..، ص 577.

[2]– نفسه..، ص 579.

[3]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2..، ص ص 550–551 .

أموت لموت زوجي وأعيش لعيشه، فتركوها وبلغ ذلك السّلطان، فكان سبب خيرها، وأدركته لها رقّة، وأدرك سهيل نصر الله من أولئك الإخوة، فقتله وأتى السّلطان برأسه. وأتى بأم عين الملك وأخته وامرأته فسلّمن إلى الوزير، وجعلن في خباء بقرب خباء عين الملك، فكان يدخل إليهنّ ويجلس معهنّ ويعود إلى محبسه>> [1]. وبالتالي كانت المرأة في هذه الحالة المغيّرة لمصير زوجها المحكوم عليه بالموت، بتصرّفها الحكيم حافظت على حياته لتستأنس بوجودها معه رفقة أمّه وأخته، مكتفيات ببقائهنّ قربه حتى ولو كان أسيرا، فلولاها ولولا حنكتها لكان في عداد الموتى .

كما سرد لنا ابن بطّوطة طريقة تحضير الموكب الجنائزي للمرأة في الهند سرد لنا طريقة تزويجها لكن العروس لم تكن من عامّة النّاس، هي أخت السّلطان علاء الدين طرمشيرين فيروز خوندة بالأمير سيف الدين، وقد عيّن ابن بطوطة ملازما للأمير أيّام عرسه، << ودام العرس أيّاما أحضر فيه الرّجال المغنّون والنّساء المغنّيات والرّواقص وكلّهنّ مماليك السّلطان..، وقام الخواتين بتزيين القصر واستحضرن الأمير سيف الدين كان عربيّا غريبا لا قرابة له، فحففن به..، وكان السّلطان قد أمر ربيبته- زوجة أبيه- أمّ أخيه مبارك خان مقام أمّ الأمير يوم عرسه، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته، وأخرى مقام عمّته، وأخرى مقام خالته، حتّى يكون كأنّه بين أهله، ولمّا أجلسنه على المرتبة جعلن له الحنّاء في يديه ورجليه، وقام باقيهنّ على رأسه يغنّين ويرقصن >>[2].

أمّا العروس يوم عرسها << جعلت فوق منبر عال مزيّن بالدّيباج مرصّع بالجوهر، والمشور ملآن بالنّساء، والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة، وكلّهنّ وقوف على قدم إجلالا له وتعظيما- للأمير- فدخل بفرسه حتّى قرب من المنبر، فنزل..، وقامت العروس قائمة حتّى صعد، فأعطته التنبول بيدها. فأخذه وجلس تحت الدّرجة التّي وقت بها، ونثرت دنانير الذّهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه ولقطتها النّساء والمغنّيات يغنّين حينئذ والأطبال والأبواق والأنفار تضرب خارج الباب، ثمّ قام الأمير وأخذ بيد زوجته ونزل وهي تتبعه، فركب فرسه يطأ به الفرش والبسط، وعلى أصحابه وحملها العبيد على

---

[1]- المرجع السابق..، ص563.

[2]- نفسه..، ص533 .

أعناقهم إلى قصره، والخواتين بين يديها راكبات وغيرهنّ ماشيات، وإذا مرّوا بدار أمير أو كبير خرج إليهم ونثر عليهم الدّنانير على قدر همّته حتّى أوصلوها إلى قصره، بالغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثّياب والدّنانير والدّراهم وأعطى السّلطان لكلّ واحد منهم فرسا مسرّجا ملجّما..، وأعطى الملك فتح الله للخواتين الحرير المنوّعة >> [1].

والملاحظ في الهند أن المرأة في السّلطة الحاكمة كانت تعامل معاملة تختلف عن معاملة غيرها من النّساء، حيث كان يُحتفل بزواجها أيّاما ويصرف عليه أموالا طائلة. فبينما كان بعض النّسوة يلقين الأموال على الغير كان البعض منهنّ يفتقد لرغيف حيث وصل بهنّ الحدّ إلى أكل الجيفة بسبب غلاء المعيشة وكان ذلك بمدينة دلهي، وابن بطّوطة كان دائما شديد الحرص على نقل مثل هذه الصّور إذ نجده يقول: << ولقد خرجت مرّة إلى لقاء الوزير، فرأيت ثلاث نسوة يقطّعن قطعا من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه وكانت الجلود تطبخ وتباع في الأسواق >>[2]،

وفي هذا السّياق يقول المتنبّي[3]:

غَيرَ اخْتِيارٍ قَبِلْتُ بِرِّكَ لي **والجُوعُ يُرْضي الأسودَ بالجِيفِ**

فهنّ فضّلن أكل تلك اللّحوم النّتنة على أن يمتن جوعا ولم يكن ذلك اختيارا منهنّ بل اضطرارا للبقاء على قيد الحياة، فالأسد إذا جاع ولم يظفر بفرائسه أو عجز عنها اضطرّ إلى أكل الجيفة ورضي بها، وهذا يدلّ على افتقارها لأدنى متطلّبات الحياة، قوت يوم يضمن لها حياة كريمة كالحياة التي تعيشها أم وزوجة وأخت السّلطان .

أمّا في الصّين فكانت المرأة كالسّلع تباع وتشترى بأبخس الأثمان، كونها صنّفت ضمن قائمة أشياء و ممتلكات الزّوج أو الأب، والبيع لم يمس الجواري فقط بل حتّى الأولاد والبنات والزّوجات ليكونوا عبيدا، إلّا أنّهم يمنعون من السّفر مع من يشتريهم. فالمرأة في الصّين لم

---

[1]– المرجع السابق..، ص ص 534–535.

[2]– نفسه..، ص570.

[3]– أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي المتنبّي: ديوان المتنبّي، دار صادر للطباعة والنّشر، بيروت، ط15، 1414 هـ–1994، ص 52.

تكن أوفر حظّا من غيرها وبما أنّها كانت من العبيد فهذا يدلّ على أنّها لا تعلوهم شأنا ولربّما كانت أقلّ منهم قيمة، لم تبع من سابيها ولا من مالكها بل بيعت من زوجها الّذي يفترض أن يكون حاميها.

وبذلك كانت المرأة كالمملوكة محتّم عليها أن تعيش تحت سيطرة الأب أو الأخ أو الزّوج، مسلوبة الحرّية مهضومة الحقوق، لكن هذا لا يمنع من أنّه في بعض المناطق سخّر لها من يدافع عنها وينصفها عمّن ظلمها وجار عليها بحكم ما شرّعه لها ديننا الحنيف الّذي رفع من شأنها وسما بمكانتها، خاصّة وأنّها في بعض المواقف كانت تقف عاجزة أمام سلطة الرّجل – الزّوج– .

وقد سرد لنا ابن بطّوطة أحداث قصّة وقعت بمدينة تبريز على لسان القاضي برهان الدّين الموصلي الّذي كان من أهل الدين والورع و الفضل.<< ذكر أنّ امرأة أتت هذا القاضي وهو خارج من المسجد ولم تكن تعرفه، فقالت له: يا شيخ أين يجلس القاضي؟. فقال لها وما تريدين منه؟. فقالت: إنّ زوجي ضربني وله زوجة ثانية وهو لا يعدل بيننا في القسم وقد دعوته إلى القاضي فأبى، وأنا فقيرة ليس عندي ما أعطيه لرجل القاضي حتّى يحضروه بمجلسه. فقال لها: وأين منزل زوجك ؟. فقالت: والله ما عندي شيء أعطيك إيّاه. فقال لها: لا آخذ منك شيئا. ثمّ قال لها: اذهبي إلى القرية وانتظريني خارجها فآتي على أثرك. فذهبت كما أمرها و انتظرته، فوصل إليها وليس معه أحد، وكانت عادته أن لا يدع أحدا يتبعه، فجاءت به إلى منزل زوجها. فلمّا رآه قال: ما هذا الشّيخ النّحس الّذي معك؟. فقال له: نعم و الله وأنا كذلك ولكن أرض زوجتك. فلمّا طال الكلام جاء النّاس، فعرفوا القاضي وسلّموا عليه، وخاف ذلك الرّجل وخجل، فقال له القاضي: لالا عليك أصلح ما بينك وبين زوجتك. فأرضاها الرّجل من نفسه، وأعطاهما القاضي نفقة ذلك اليوم وانصرف>> [1].

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص 258.

كما نقل لنا ابن بطوطة أحداثا تخصّ امرأة **في طرابلس**[1] شكت أمرها لأمير هذه المدينة سندمور وقال ابن بطوطة أنّ أخباره كانت كثيرة في الشّدّة على أهل الجنايات مفادها << أنّ أحد مماليكه الخواص تعدّى عليها في لبن كانت تبيعه فشربه، ولم تكن لها بيّنة، فأمر به فوسط فخرج اللّبن من مصرانه >>[2]. وهذه الحكاية على حسب ما ورد في النّص منقولة عن طريق السّماع ويظهر ذلك في قوله: << وقد اتّفق مثل هذه الحكاية للعتريس أحد أمراء الملك النّاصر أيّام إمارته على عيذاب[3] واتفق مثله للملك كبد سلطان تركستان >>[4]. وهذه الحكاية تعكس لنا طريقة إصدار الأحكام حيث أنّ العدالة كانت فوق الجميع، كما عكست لنا عاقبة من يتعدّى على حقوق المرأة ومحاولا استغلال ضعفها، لكن هذا لا يمنع من وجود صنفين صنف عمل على اضطهادها بسبب ضعفها كامرأة وصنف اعترف بإنسانيّتها وبحقّها مثلها مثل الرّجل.

أمّا المرأة الجارية فكانت تستغلّ من طرف الحكّام أسوأ استغلال محاولين سجن حرّيّتها، اتّخذت كسلعة أو كمتعة مسخّرة لخدمتهم ليتصرّف فيها بعد إشباع رغباتهم وذلك بتزويجها من خدّام القصر دون أن يولوا أهمّية لمشاعرها و أحاسيسها فكانت بالنسبة لهم نزوة عابرة تنتهي بمجرّد إطفاء شهوتهم. وهذا ما كان من سلطان مصر الّذي وهب جاريته لساقيه بكتمور << فلمّا أراد الدّنوّ منها قالت إنّي حامل من الملك الناصر، فاعتزلها وولدت ولدا سمّاه بأمير أحمد ونشأ في حجره فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك النّاصر >>[5]. لكن ابن السّلطان لاقى حتفه على يد والده في مكّة بعد تسميمه، فالظّلم هنا لم يطل الأمّ فحسب بل الابن أيضا.

---

[1]– طرابلس: << ويقال أطرابلس، وقال ابن بشير البكري ، طرابلس بالرّومية والإغريقية ثلاث مدن، وسمّاها اليونانيّون طرابليطة، وذلك بلغتهم أيضا ثلاث مدن، لأنّ طرا: معناه ثلاث، وبليطة: مدينة >> (ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج4، دار صادر، بيروت، د. ط، د.ت، ص25).

[2]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص84 .

[3]– عيذاب : << بليدة على ضفّة بحر القلزم– هو شعبة من بحر الهند– ، هي مرسى المراكب الّتي تقدم من عَدن إلى الصّعيد>> (معجم البلدان، مج 4..، ص171) .

[4]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص84.

[5]– نفسه ج1..، ص 306 .

ومن الصور الّتي نقلها ابن بطّوطة عن المرأة المضطهدة صورة المرأة الخاضعة لسلطة أخيها الّذي لم تسلم من خبثه وطمعه، فهي لم تحرم من الميراث كالمرأة في عيذاب بل حرمت من أبسط حقوقها ؛ ما يأتيها من المحسنين. كانت هذه المرأة الأخت شيقة المترجم لابن بطوطة ومن معه كونه كان لا يفقه اللغة التركية، كان شخصا انتهازيا، أمّا شقيقته فتميّزت بالكرم وحسن الضّيافة. يقول ابن بطوطة: << ومنها أنّا نزلنا ليلة عند أخت له في بعض القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الإجاص والتّفاح والمشمش والخوخ، كلّها ميبّسة وتجعل في الماء حتّى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها، فأردنا أن نحسن إليها فعلم بذلك فقال: لا تعطوها شيئا واعطوا ذلك لي، فأعطيناه إرضاء له، وأعطيناها إحسانا في خفية بحيث لم يعلم بذلك>>[1].

6- صورة المرأة المراودة للرّجال:

سرد ابن بطوطة قصّة مشابهة لقصّة سيّدنا يوسف عليه السّلام حين حاولت زليخة زوجة عزيز مصر مراودته إلّا أنّه أبى واستعصم وذلك في قوله **جلّ وعلا:** << وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي

[1]- المرجع السابق ج1..، ص 344.

لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾>>[1].

سمع ابن بطّوطة بقصّة هذه المرأة بمصر عندما قصد زاوية الشّيخ جمال الدين السّاوي الّتي تقع بدمياط[2]، وكان هذا الشّيخ << قدوة الطّائفة المعروفة بالقلندرية، وهم الّذين يحلقون لحاهم وحواجبهم>>[3].

وقد ورد في معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي أنّ هذه الكلمة- القلندرية- << أعجميّة بمعنى المحلّقين، وهم فرقة صوفية يحلقون رؤوسهم وشواربهم ولحاهم وحواجبهم. كانت هذه الفرقة مكروهة من الفقهاء المسلمين وعلمائهم وقد ظهرت في عهد الظّاهر بيرس وهو الّذي شجّعها وكان سبب انتشارها في مصر والشّام، ومن مشاهير رجالها الشّيخ عثمان

---

[1]- من سورة يوسف (12)/ الآيات: 23-31.

[2]- دمياط: << تقع في الإقليم الرّابع، بعدها عن خطّ المغرب ثلاث وخمسون درجة، وهي على ساحل البحر الشّامي ، يحيط بها البحر من جهة الشّمال، وخلجان النيل تتفرّق عليها غلب على أكثر أرضها ماء البحر>> (آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كلّ مكان..، ص87).

وهي<< مدينة قديمة بين تنّيس ومصر على زاوية بين بحر الرّوم الملح والنّيل..، وهي ثغر من ثغور الإسلام، جاء في الحديث عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ياعمر إنّه سيفتح على يدك بمصر ثغران الإسكندرية ودمياط، فأمّا الإسكندريّة فخرابها من البربر وأمّا دمياط فهم صفوة من شهداء من رَابَطها ليلة كان معي في حظيرة القدس مع النّبيّين والشّهداء>> (معجم البلدان، مج 2..، ص ص 472-473).

[3]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص49 .

كوهي الفارسي، وقال بعضهم إنّ هذه الفرقة أوّل ما ظهرت بدمشق سنة 616هـ، وكان لها عدّة زوايا بمصر>>[1]. لكن ما السّبب الّذي جعله يتصرّف هذا التّصرّف؟.

يقول ابن بطوطة: أنّ السّبب الّذي جعل الشّيخ جمال الدّين السّاوي يحلق لحيته وحاجبيه مراودة امرأة من أهل ساوة دعته لنفسها،<< لأنّه كان جميل الصّورة، حسن الوجه تعلقت به، وكانت تراسله وتعارضه في الطّرق وتدعوه لنفسها، و هو يمتنع ويتهاون، فلمّا أعياها أمره دسّت له عجوزا تصدّت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد وبيدها كتاب مختوم، فلمّا مرّبها قالت له: يا سيّدي أتحسن القراءة؟. قال: نعم، قالت له: الكتاب وجّهه إليّ ولدي، وأحبّ أن تقرأه عليّ. فقال لها: نعم، فلمّا فتح الكتاب قالت له: يا سيّدي إنّ لولدي زوجة وهي بأسطوان الدّار فلو تفضّلت بقراءته بين بابي الدّار بحيث تسمعها، فأجابها لذلك. فلمّا توسّط بين البابين غلقت العجوز الباب وأخرجت المرأة جواريها فتعلّقن به، وأدخلته إلى داخل الدّار، وراودته المرأة عن نفسه. فلمّا رأى أنّ لا خلاص له قال لها: إنّي حيث تريدين فأريني بيت الخلاء، فأرته إياه، فأدخل معه الماء، وكانت عنده موسى جديدة، فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها، فاستقبحت هيأته واستنكرت فعله وأمرت بإخراجه، وعصمه الله بذلك فبقي على هيئته فيما بعد، وصار كلّ من يسلك طريقته أن يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه>>[2].

فالقصّة لاتذكّرنا بقصّة سيّدنا يوسف فحسب بل تذكّرنا أيضا بجواريها اللّواتي انبهرن بحسنه وجماله وتعلّقن به كانبهار النّسوة بسيّدنا يوسف عليه السّلام حين أدخلته زوجة العزيز عليهنّ. وبما أنّ الكثير حذوا حذوه فهذا يدلّ على أنّ النّسوة في تلك الفترة كنّ يراودن الرّجال ويلاحقنهم دون هوادة، مستعملات شتّى الوسائل منتهجات طرقا ملتوية ليصلن إلى من يعجبن به، فمن كان لا يخشى الله اتبع طريق الظّلال، ومن رفض انتهج نهج الشّيخ جمال الدّين السّاوي، وتلك كانت طريقتهم في تحصين أنفسهم. وقد نقل لنا صورة مشابهة لهذه المرأة، جرت أحداثها بالمدينة المنوّرة حيث قامت هذه المرأة بمراودة خادمها الّذي أعجبت بحسنه وجماله وكان هذا الأخير يدعى: أبو عبد الله الغرناطي وكان خديما لزوجها

---

[1]– معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي..، ص 125.

[2]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص49.

وهذا الأخير يدعى الشّيخ عبد الحميد العجمي. كان حسن الظّنّ بخادمه وزوجته إذ كان يتركه معها بداره عند سفره، تعلّقت به زوجة الشّيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه إلّا أنّه رفض الامتثال لأوامرها وذلك بخيانة شيخه قائلا : << إنّي أخاف الله ولا أخون من ائتمنني على أهله وماله>>[1]. إلّا أنّها لم تكفّ عن ذلك وهو بدوره لم يستسلم لها ولم يرضخ لشهوته وآثر العزلة وانقطع عن الناس إلى أن وجد مغشيا عليه، عولج وصار بعد ذلك من خدّام المسجد و مؤذّنا به. و الملاحظ أنّ العامل المشترك بين القصّتين هو وسامة الرّجل، حيث سعت كلّ واحدة منهما الإطاحة بالطّرف الآخر، لكن كلّ منهما أعرض عمّا دعته، ولولا تمسّكهما بدينهما وخوفهما من خالقهما لوقعا في الخطيئة.

اعتمد ابن بطّوطة في رحلته على المقارنة سواء كانت في الأسعار أو العادات والتّقاليد أو المعاملات خاصّة فيما يتعلّق بالقضايا الّتي تتعلّق بالمرأة، فبعد وصوله للمغرب قارن معاملة السّلطان لنساء المغرب مع سلاطين البلدان الّتي زارها مستحسنا تصرّف سلطان بلده الّذي<< كان يقدّم النساء اللّواتي لهنّ شكاوى على الرّجال لضعفهنّ>>[2] ، في حين كانت تعتبر آخرهم في بعض البلدان وتستغلّ أسوأ استغلال في أخرى .

7- صور متفرّقة عن المرأة:

7-1 صورة المرأة المؤذية لزوجها:

قدّمنا صورة المرأة البنت المتمرّدة، لكن هذه البنت لم تتمرّد على السلطة الحاكمة بل تمرّدت على زوجها. حياتهما الزّوجية كانت تقوم على الاستعلاء والغطرسة و العنجهيّة والتكبّر والتعالي كونها ابنة سلطان الهند- السلطان جلال الدين-[3] أمّا زوجها فكان مجرّد

---

[1]- المرجع السابق..، ص140.

[2]- نفسه ج2..، ص760

[3]-<< استطاع جلال الدين فيروز شاه أن يستخلص الملك لنفسه من بين أنياب الأتراك المؤيّدين لأسرة غياث الدّين بلبن، والّذي عملوا على أن يولّوا الطفل الصّغير "ابن كيقباد" حتّى لا يخرج الحكم من أسرة بلبن، و" كيقباد" كان حفيد غياث الدين بلبن. وقد اشتهر جلال الدين شاه بالحلم الّذي لم يعرف يعرف عند أحد من الملوك >> (تاريخ الإسلام في الهند..، ص 151).

إنسان عادي لا مال لديه<< إلّا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفّار، غير أنّ زوجها لم يكن غريبا عنها، هو ابن عمّها زوّجه السّلطان بها و ولّاه مدينة من مدن بلاد الهند، شكاها إلى والدها، عمّه السّلطان جلال الدين حتّى وقعت الوحشة بينهما بسببها لكن تصرّفها المشين هذا أجّج في نفسه حبّ الملك لإحساسه بالذّل لينتهي به المطاف إلى قتل عمّه ليستقلّ بالملك>>[1]. وبالتالي كانت المرأة في هذه الحالة الدّافع القويّ في إثبات ذات الزّوج المحتقَرة من الزّوجة، كما كانت السّبب في تولد الحقد والغل والعداوة بين الأهل. فلو قارنّا بين المرأة البنت في بخارى وبين المرأة البنت في الهند لوجدنا تباينا بينها، فالمرأة البنت في بخارى تناست مكانتها الاجتماعية لأنّ غايتها الارتباط بزوج ورع زاهد وتلك الصّفات أغنتها عن صفات أخرى تبحث عنها أي فتاة تنتمي إلى الأسرة الحاكمة كالمرأة بنت السلطان جلال الدين .

كما سبق وأن ذكرنا كانت المرأة السبب في النزاعات والخلافات بين الأهل، فالعداوة التي كانت بين السّلطان جلال الدين وابن أخيه علاء الدّين امرأة، كما أنّ العداوة التي كانت بين السّلطان علاء الدين وصهره – أخو زوجته– امرأة، حيث اتّفقت مع أخيها على تمليك ولدها خضر خان الملك بسبب مرض زوجها، <<وعلم بذلك نائب أكبر أمراء السّلطان..، فوشى إلى السّلطان بما اتّفقوا عليه، فقال لخواصه: إذا دخل عليَّ سنجر–صهره– فإنّي معطيه ثوبا، فإذا لبسه فامسكوه بأكمامه واضربوا به الأرض واذبحوه، فلمّا دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه>>[2].

فكما كانت السّبب في بعد الابن عن أبيه الّذي لم يره مذ ذاك الحين كونه كان يرى في أبيه صورة القاتل، قاتل أحبّ وأقرب النّاس إليه إلى أن وافته المنيّة، كانت أيضا السّبب في عدم تربّع ابنها على العرش على الرّغم من استدعاء والده له قبل وفاته لتوليته الحكم.

ذكر لنا ذكر لنا ابن بطّوطة في رحلته أنّ المرأة كانت تستخدم كسلاح في حالة عجز الرّجل في الإجهاز على خصمه والتخلّص منه، منتهزين في ذلك الفرصة التي تكون فيها المرأة في حالة نفسية تعجز فيها عن التفكير، حيث يكون هدفها الوحيد هو الانتقام ممّن أهانها وحطّ من كرامتها وهزّ مكانتها وكلّ هذا في الغالب كان سببه استبدالها بامرأة، خاصّة

---

[1]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2 ..، ص 493.

[2]– نفسه ..، ص 496 .

وأنّ تصرّف الطّرف الآخر بالنسبة لها كان كاسرا لظهرها ولأنوثتها ولإنسانيّتها. لذلك نرجّح سبب مساعدة زوجات السّلاطين لأعدائهم غيرتهنّ لأنّ أكثرهنّ كنّ يسمّمن أزواجهنّ بسبب الغيرة الّتي كانت تتأجّج في قلوبهنّ بعد استبدالهنّ بأخريات، أو طمعا في انتقال الحكم إلى أزواجهم بعد القضاء على أشقاء أزواجهنّ. وقد احتوت رحلة ابن بطّوطة على نماذج من هذا النّوع، من ذلك ما كان من بنت الجوبان بغداد خاتون ببغداد الّتي سمّمت زوجها السّلطان بسبب هجره لها وتعلّقه بأخرى، وتخلّصها منه كان فتحا لتربّع خصمه- ابن عمّته- على العرش وقد سبق وأن أشرنا إلى تفاصيل هذه الأحداث. أمّا الصّنف الثّاني فتعكسه لنا وقائع نقلها لنا رحّالتنا جرت بمدينة **هرمز**[1]، كانت فيها المرأة زوجة الأخ هي المنفّذة لخطّة العدو. وكان ذلك بعدما دارت حرب طاحنة بين الأخوين نظام الدّين بمساندة ابنيه و سلطان هرمز قطب الدّين تمَهتْن بن طوران شاه، وكان هذا الأخير يتميّز بالكرم و حسن الخلق، << وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه أنّه ركب البحر مرّة من مدينته الجديدة برسم النّزهة في هرمز القديمة وبساتينها، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ* فخالف عليه أخوه نظام الدّين و دعا لنفسه وبايعه أهل الجزيرة وبايعه العساكر، فخاف قطب الدّين على نفسه وركب البحر إلى مدينة قلهات.وهي من جملة بلاده فأقام بها شهورا، وجهّز المراكب وأتى الجزيرة فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه وعاد إلى قلهات، وفعل ذلك مرارا فلم تكن له حيلة إلّا أن يراسل بعض نساء أخيه فسمّته ومات. وأتى هو إلى الجزيرة فدخلها >> [1].

---

[1]- هرمز<< مدينة تقع على ضفّة البحر، على برّ فارس – جنوب إيران حاليا->> (معجم البلدان، مج 5..، ص 402).

*الفرسخ:<< السكون، وقالت الكلابية: فراسخ اللّيل والنهار ساعتهما وأوقاتهما..، والفرسخ من المسافة المعلومة في الأرض مأخوذ منه، والفراسخ ثلاثة أميال أو ستّة سمّي بذلك لأنّ صاحبه إذا مشى قعد واستراح من ذلك كأنّه سكن وهو واحد الفراسخ، وهو لفظ فارسيّ معرّب >> (لسان العرب، مج 3..، ص 44).

وجاء في معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة: << الفرسخ: ثلاثة أميال هاشميّة وقيل اثنا عشر ألف ذراع، معرّب فَرْسَنْك ومنه مأخوذ الرومي parasanga والفرنسي: parasange وهو مسافة ستّة كيلومترات>> (الألفاظ الفارسية المعربة..، ص 118) .

[1]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص ص 300-301.

7-2 صورة المرأة الجاسوسة:

كان السّلاطين حريصين على معرفة ما يجري في بلاد الأعداء، كما كانوا حريصين على معرفة كلّ ما يتعلّق بأمرائهم حتى يكونوا على دراية بتحرّكاتهم أثناء عدم تواجدهم معهم، وليتأكّدوا من ولائهم لهم حتّى في غيابهم عنه فكان السّلطان منهم << يجعل مع كلّ أمير كبير أو صغير مملوكا له يكون عينا عليه ويعرفه بجميع حاله، ويجعل أيضا الجواري في الدّور يكنّ عيونا له على أمرائه ونسوة يسمّيهنّ الكنّاسات يدخلن الدّور بلا استئذان، ويخبرهنّ الجواري بما عندهنّ، فيخبر الكنّاسات بذلك لملك المخبرين فيخبر بذلك السّلطان وبفضلهنّ كان السّلطان يعرف خبايا الأمراء وخيانتهم له، كالّذي أرغم زوجة له على خيانة السّلطان في فراشه وهذا الأخير نال جزاءه وهلك بسب فعلته[1] . وبالتالي لعبت المرأة دور المخبر النّاقل للحقائق وبهذا نستطيع أن نقول أنّ المرأة في رحلة ابن بطّوطة اتّخذت عدّة أدوار ليكون بذلك قد قدّم لنا نماذج مختلفة باختلاف الأمكنة.

7-3 صورة المرأة المحرّضة على القتال:

أمّا مصير المحرّضة على القتال فكان يختلف عن مصير الجاسوسة التي كانت تكافأ، ففي مكّة كانت هذه المرأة مصدر الفتنة بين أمير مكّة عطيفة وبين أيدمور أمير جندار النّصارى في مكّة القتل، فما طبّق على الرّجل طبّق عليها، وقد اشترك في القتل جماعة من الأتراك مستعملين النّبال . يقول ابن بطّوطة: << ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل أنّها كانت تحرّض أهل مكّة على القتال>>[2].

7-4 صورة المرأة العابدة في القسطنطينية[3]:

---

[1]- المرجع السابق ج2..، ص ص599- 560.

[2]- نفسه ج1 ..، ص 266.

[3]- القسطنطينية: << بناها قسطنطين بن ملك الرّوم، وذلك أنّه أوّل من دخل دين النّصارى وأظهره، وآمن بعيسى عليه السّلام >> (آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كلّ مكان ..، ص116). << وهي اليوم من أهمّ المدن التركية تسمّى حاليا بمدينة إسطنبول>> (ويكيبيديا الموسوعة الحرة www.google.com).

احتكّ ابن بطّوطة بأجناس مختلفة تعتنق ديانات تختلف عن دينه ومعتقداته وعاداته وتقاليده، فالمدينة الّتي قصدها كان فيها كنائس يلقى فيها الإنجيل عوض المساجد الّتي يتلى فيها القرآن كريم، وكان من خدّام الكنائس عابدات أو راهبات، وبالكنيسة العظمى كنيسة أخرى مختصّة بنساء أبكارا تزيد عن الألف، داخل الكنيسة العظمى خصّصت بستانين للمتعبّدين واحد للرّجال والآخر للنّساء، يفصل بينهما نهر، كما خصّصت لهم بيوت للإقامة يقول ابن بطّوطة: << ودخلت مع الرّومي الّذي عيّنه الملك للرّكوب معي إلى مانستار يشقّه نهر، وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهنّ المسوح، ورؤوسهنّ محلوقة فيها قلانيس اللّبد، ولهنّ جمال فائق وعليهنّ أثر العبادة، وقد قعد صبيّ على المنبر يقرأ لهنّ الإنجيل بصوت لم أسمع قطّ أحسن منه، وحوله ثمانية من الصّبيان على المنابر، ومعهم قسّيسهم ، فلمّا قرأ هذا الصّبيّ قرأ صبيّ آخر وقال لي الرّوميّ إنّ هؤلاء البنات من بنات الملوك، وهبن أنفسهنّ لخدمة هذه الكنيسة وكذلك الصّبيان القرّاء..، ودخلت أيضا إلى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد..، فقال لي الرّومي: هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبّدون بهذه الكنيسة >>[1]، كما خصّصت كنائس للأبكار صغار السّن أخرى للعجائز.

5-7 صورة المرأة المغنية مدينة آباد :

تعدّدت صور المرأة في رحلة ابن بطّوطة من أمّ وأخت، زوجة وجارية، سلطانة وخادمة، قائدة و مخطّطة. حتّى المغنّية لم يستثنها إذ نجده يصفها ويصف محيطها قائلا: << وبمدينة آباد سوق للمغنّين والمغنّيات تسمّى سوق طرب آباد من أجمل الأسواق وأكبرها فيه الدكاكين الكثيرة، كلّ دكّان له باب يفضي إلى دار صاحبه، وللدّار باب سوى ذلك والحانوت مزيّن بالفرش، وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنّيات أو ترقد وهي متزيّنة بأنواع الحليّ وجواريها يحرّكن مهدها >> [2]. من خلال الصور المختلفة للمرأة يظهر لنا الفوارق التي كانت بين أفراد المجتمع فمنهنّ من كانت تعيش فقرا مدقعا ومنهنّ من كانت تعيش حياة كريمة .

---

[1]- ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1،..، ص 390.

[2]- نفسه ج2..، ص628.

7-6 صورة المرأة الجارية:

لم يشر ابن بطوطة كعادته إلى جمال المرأة، لكن ما شدّ انتباهه في مدينة **ظفار**[1] اسم جواريها كونها تشبه أسماء خدّام بلده المغرب إذ نجده يقول :<< ومن الغرائب أنّ أهل هذه المدينة أشبه النّاس بأهل المغرب في شؤونهم، نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم وهو عيسى بن علي، كبير القدر كريم النّفس، فكان له جوار مسمّيات بأسماء خدّام المغرب، إحداهنّ اسمها بخيته والأخرى زاد المال ولم أسمع هذه الأسماء في بلد سواها، وأكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم>>[2] . وهنا لم يخصّص بل تحدّث بضمير الجمع "هم" فبقوله "رؤوسهم- ويجعلون" وكأنّه يعمّم كشف الرّؤوس وبالتالي الحكم لا يخصّ الرّجل دون المرأة .

انتقد ابن بطّوطة لباس نساء جزائر ذبية المهل غير المحتشم، كما وجدناه ينتقد طريقة لباس جواريه المقلّدات لنساء أهل دلهي وإن كنا نلمس تناقدا مقارنته ويظهر ذلك في قوله: << كسوتهنّ لباس أهل دلهي تغطّين رؤوسهنّ فعابهنّ ذلك أكثر ممّا زانهنّ إذ لم يتعوّدونه>> [3].

ثانيا: ابن بطّوطة وعالمه مع المرأة:

1- صورة المرأة الأمّ – أم ابن بطّوطة-:

كانت المرأة الأمّ في رحلة ابن بطّوطة مغيّبة غير حاضرة مقارنة بالمرأة الزّوجة والجارية، لم يذكرها إلاّ عند سماعه خبر وفاتها وعند زيارته لقبرها عند عودته لوطنه .

---

[1]- ظفار: << في الإقليم الأوّل، وهي مدينة باليمن في موضعين إحداهما صنعاء..، وقال بعضهم إنّ ظفار هي صنعاء نفسها – ولعلّ هذا كان قديما >> (معجم البلدان، مج4..، ص 60).
وهي الآن << تشكّل ثلث سلطنة عمان، وهي تقع في جزئها الجنوبي، تتصل من الشّرق بمحافظة الوسطى الّتي كانت تشكّل الثلث الشّرقي من ظفار، ومن الجنوب الغربي في الجمهورية اليمنيّة، أمّا من الجنوب فتطلّ على بحر العرب، ومن الشّمال على صحراء الرّبع الخالي المحايدة للحدود السّعودية>>
(ويكيبيديا الموسوعة الحرّة www.google .com)

[2]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،ج1..، ص 287.

[3]- نفسه ج2..، ص 658.

2- صورة المرأة الزّوجة:

تزوّج ابن بطّوطة في بداية رحلته مرّتين، إلّا أنّه في كلتا الزّيجتين لم يقدّم صورة مفصّلة عن زوجتيه غير أنّ الأولى كانت بنتا من أمناء تونس، حتّى أنّه لم يذكر لنا العلاقة الّتي ربطته بها كما تعوّدنا، مبيّنا ما شدّه إليها كحسن العشرة أو الجمال أو الورع. لكن سرعان ما ذكر لنا انفصاله عنها بسبب الخلاف الّذي كان بينه وبين والدها. فمن خلال العبارة التالية يظهر لنا أنّ زوجته بالنّسبة له لم تكن شيئا يذكر وكأنّ زواجه بها كان زواج مصلحة وشجاره مع والدها كان مجرّد ذريعة للتخلّص منها. ويظهر ذلك في قوله: "وقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق ابنته"، ليستبدلها بغيرها في فترة وجيزة ببنت لبعض طلبة فاس الّتي كان مصيرها لا يختلف عن الأولى، وهذا يعكس عدم تعلّقه بهما مقارنة بزوجاته بجزائر ذبية المَهَل*[1] اللّواتي حرص على عدم تطليقهنّ لتعلّقه بهنّ، وهنا كانت القوانين هي السّبب في فراقهنّ، بحكم أنّ النّساء يمنعن من تخطّي الحدود المسطّرة لهنّ .

كما سبق وان ذكرنا عرف ابن بطّوطة بتعدّد الزّوجات[2] ، لكنّه في آخر المطاف عاد كما خرج أوّل مرّة وحيدا، إذ وجدناه يفصّل أحيانا ويتحفّظ أحيانا أخرى مقتصرا على تلميحات. وما استوقفنا فيما يتعلّق بحياته الشّخصية عند تحدّثه عن ابنته و زوجته بالهند "حور نسب"، أخت الشّريف إبراهيم الّذي كان واليا على بلاد حانسي وسرستي عبارة : << لا أدري ما فعل الله فيهما>>[3]. فزوجته كما قال عنها كانت زوجة صالحة، وبما أنّها كانت كذلك يفترض أن تكون أقرب النّاس إليه، حتّى لو انتقل إلى مكان آخر يفترض به أن يتقصّى أخبارها خاصّة وأنّه رزق بابنة منها. لكن العجيب في حديثه عدم اكتراثه لوجودهما ولما حلّ بهما فقوله لا أدري ما فعل الله فيهما لدلالة عدم اهتمامه معتبرا إيّاهما مجرّد حدث

---

[1]- جزائر ذبية المهل : << تسمّى جزر مالديف، أرخبيل مكوّن من ألف وسبع وثمانين جزيرة ، سكّانها مسلمون، اعتنق سكّانها الإسلام في القرن السّادس الهجري وتعدّ زيارة ابن بطّوطة لها أقدم لرحلة مدوّنة عنها>> (المرجع السابق..، ص654).

<< تقع في جنوب قارة آسيا في المحيط الهندي، كان يسمّيها العرب قديما ذبية المَهَل أو محلديب >> (ويكيبيديا الموسوعة الحرّة www.google.com).

[2]- ينظر: الفصل الأوّل، ص ص 79-83.

[3]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2..، ص 557.

عابر أو شيء لا قيمة له، حتّى أنّه لم يكلّف نفسه عناء العودة لتطليقها ومعرفة ما حلّ بابنته. كما أنّه ترك له زوجا حاملا بدمشق وأنجبت له هذه الأخيرة ولدا إلّا أنّه لم يكلّف نفسه معرفة أخبارهما إلّا بعد مضيّ مدّة من الزّمن أي بعد مرور عشرين سنة. انطلاقا ممّا سبق ذكره فإنّنا نرجع سبب تجرّد ابن بطّوطة من عاطفة الأبوّة هوسه وشغفه الاستكشافي الّذي جعله ينسى زوجاته بمجرّد بعدهم عنهم، وكأنّ العلاقة الّتي ربطته بزوجاته وأبنائه كانت تنتهي بانتهاء إقامته. وبما أنّ زواجه الأوّل بني على مصلحة يمكننا أن نعتبر اقترانه بنساء المدن الّتي حلّ بها عاملا لمعرفة عوائدهنّ وسلوكيّاتهنّ، خاصّة وأنّ ما نقله لنا عن المرأة في عصره كان عن طريق التّعايش، لكن بعيون إثنوغرافية تعتمد على الدّقة في الوصف محددا مواضع الجمال والفتنة فيهنّ .

3- صورة البنت – بنت ابن بطوطة – :

لم يقدّم لنا ابن بطّوطة معلومات كافية عن ابنته وكانت هذه الأخيرة من جارية له ولدت في سمرقند، كان سعيدا بمولدها إذ اعتبرها طالع سعد، لأنّه مذ ولادتها لم ير إلّا الخير، لكن ابن بطوطة لم يفصح عن مشاعره وحزنه أثناء تلقيه خبر وفاتها مقتصرا على ذكر مراسيم الجنازة، وهذا ما عهدناه من ابن بطّوطة لا يفصّل في ذكر ما يخصّ حياته الشّخصية وطبيعة العلاقة التي كانت تربطه بزوجاته وتعلّقه بهنّ من عدمه، أمّا جنازتها فتولّى ترتيبها الوزير وفقا للترتيبات وعادات الدّفن عندهم .

4- صورة المرأة الجارية – جواري ابن بطّوطة -:

تحدّث ابن بطّوطة كثيرا عن الجواري، جواري السّلطان والقضاة وغيرهم لكن في كلّ هذه المدن التّي انتقل عبرها لم يذكر لنا أنّه اتّخذ جارية إلّا عند وصوله إلى مدينة أيا سُلُوق. وقال علي المنتصر الكتاني أنّها تسمّى –في زمنه– " سلجوك"[1]. وكانت الجواري تهدين له من طرف الوزراء والملوك، وفي بعض الأحيان كان يشتريهنّ كالجارية الّتي أخبرنا عنها في بداية رحلته. لم يظهر اهتمامه بهنّ في بداية رحلته، لكن مذ دخوله إلى هذه المدينة لمسنا ميله الشّديد لهنّ ولربّما تولّدت فيه هذه العادة بعد احتكاكه بغيره محاولا تقليدهم من جهة، ولتؤنسه في وحدته من جهة أخرى. فعلى الرّغم من انتقاده للجواري الرّوميات

[1]– ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص333.

جاعلا إيّاهنّ مصدرا للفساد والرّذيلة إلّا أنّه انبهر بجمالهنّ مصرّحا بثمن وجنسية الأولى ذاكرا اسم الثّانية قائلا:<< واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرا بأربعين دينارا ذهبا. أمّا الأخرى فتدعى مرغليطة >>[1]. كما كانت لديه جارية أخرى ذكرها لمّا عزم قصد مدينة السرا، فنجده يقول: << وجهّزت لمّا أردت السّفر عربة لركوبي مغشّاة باللّبد ومعي بها جارية لي >>[2]. لكنّه لم يذكر لنا جنسيتها ولا اسمها ويرجّح أن تكون جارية أخرى غير اللّواتي أشار إليهنّ، كما كان له ثلاث أخريات صرّح بذلك وهو في طريقه إلى خوارزم[3].

وما استنتجناه من رحلة ابن بطّوطة أنّه كانت تربط بينه وبين الجواري علاقة تتعدّى الخادمة بالمخدوم، فكان يتّخذهنّ كخليلات حتّى أنّ بعضهنّ حملن منه إذ نجده يقول عند مغادرته لبخارى: << ثمّ سافرنا من بخارى..، وعندي جارية قد قاربت الولادة، وكنت أردت حملها إلى سمرقند لتلد بها، فاتفق أنّها كانت بالمحمل، فوضع الجمل وسافر أصحابنا من اللّيل وهي معهم والزّاد وغيره من أسبابي. وأقمت أنا حتّى أرتحل نهارا مع بعض من معي، فسلكوا طريقا وسلكت طريقا سواها >>[4]. وما يؤكّد ذلك قوله: << فوصلنا عشيّة النّهار في محلّة السّلطان علاء الدّين طرمشرين..، وكان السّلطان غائبا فاجتمعت بنائبه الأمير تقبغا فأنزلني بقرب مسجده وأعطاني خرقة، وهي شبه الخباء، فجعلت الجارية في تلك الخرقة، فولدت تلك اللّيلة مولودا، وأخبروني أنّه ولد ذكر ولم يكن كذلك، فلمّا كان بعد العقيقة أخبرني بعض الأصحاب أنّ المولدة بنت، فاستحضرت الجواري فسألتهنّ فأخبروني بذلك. وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد، فرأيت كلّ ما يسرّني ويرضيني منذ ولدت، وتوفّيت بعد وصولي إلى الهند بشهرين>>[5]. كما كانت له جارية أخرى حملت هي بدورها منه لكنّه تلقّى خبر وفاتها وهو في طريقه إلى قالقوط. يقول ابن بطوطة:<< فعدت إلى قالقوط، ووصل إليها غلامان كانا لي بالككم، فأخبراني أنّ الجارية التي كانت حاملا وبسببها كان تغيّر

---

[1]- المرجع السابق..، ص ص333-337.

[2]- نفسه..، ص 357.

[3]- نفسه..، ص 396.

[4]- نفسه..، ص 410.

[5]- نفسه..، ص ص 410-411.

خاطري توفّيت>>[1]، لكن كالعادة لم يذكر لنا من هي وما سبب وفاتها. وما يؤكّد معاشرته لهنّ وحرصه على شراء الحسان منهنّ قوله:<< ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار من الذّهب الواحد، و اشتريت بنحو هذه القيمة جارية تسمّى عاشورة، وكان لها جمال بارع>> [2].

وأثناء وجوده بالهند بعث له الوزير عشر جوار فأعطى لمن أحضرهنّ واحدة لكنّه رفض، وأصحابه أخذوا ثلاثا والباقي لم يعرف ما حلّ بهنّ. لكن ما سبب رفضه تلك الهديّة؟. يقول ابن بطّوطة: " والسّبي هنالك رخيص الثّمن، لأنّهنّ قذرات ". وبما أنّنا أصبحنا نعرف عادة ابن بطّوطة وطباعه بحرصه على النّظافةّ فالأرجح قذارتهنّ سبب تخلّيه عنهنّ، خاصّة وأنّه عرف باقتنائه للجواري الحسان إذ أصبح لا يستطيع التّنقّل من مكان إلى آخر دونهنّ. وقد صرّح بذلك لوكيل الجنك يسمّى سليمان الصّفدي الشّامي قائلا: فقلت له: << أريد مصرية لا يشاركني فيها أحد..، ومن عادتي ألّا أسافر إلّا بهنّ>>[3]. ولربّما من شدّة تأثّره بمن عايشهم أصبح ينتهج في بعض الأحيان منهجهم، ويظهر ذلك في رفضه إعادة امرأة إلى زوجها الّتي أهداها له السّلطان بعدما شارك في فتح سندابور، إذ نجده يصرّح بذلك في قوله: << وأعطاني – السلطان– جارية منهنّ تسمّى لمكي فسمّيتها مباركة، وأراد زوجها فداءها فأبيت>> [4]، فالمرأة الجارية عندهم كانت مجرّد متاع جسد يشترى و يباع وهذا يعكس لنا قيمتها في المجتمع. وقد ذكر لنا ابن بطّوطة مغامرته مع الجارية التي حاول مساعدتها عند محاولتهم هو ومن معه اجتياز النّهر، فخافوا على أنفسهم وآثروا أن يجتازوه من دونها لكن ابن بطوطة أردفها محاولا اجتيازه لكن النّهر كما قال << شديد الجرية، فلمّا توسّطه وقع بهما فرسه ووقعت الجارية فخلص هو، أمّا الجارية فأخرجه أصحابه وبها رمق>> [5].

سبق وأن أشرنا إلى أنّ ابن بطّوطة كان متحفّظا بعض الشّيء، إذ أنّه لم يعرب عن مشاعره نحو زوجاته أو جواريه ولا عند تلقّيه خبر وفاة أبنائه أو والديه إلّا في ثلاث مواضع وذلك أثناء وجوده ببلاد المعبر مفضّلا جارية على أخرى كانتا معه في قوله:<< وصنع

---

[1]– المرجع السابق ج2..، ص 652.

[2]– نفسه..، ص698.

[3]– نفسه..، ص647.

[4]– نفسه..، ص 652.

[5]– نفسه ج1..، ص344.

البحرية معدية من الخشب، وكان بيننا وبين البرّ فرسخان، فأردت أن أنزل في المعدية وكان لي جاريتان وصاحبان من أصحابي فقالا: أتنزل وتتركنا، فآثرتهما على نفسي وقلت: انزلا أنتما والجارية الّتي أحبّها >> [1]. كما صرّح بمشاعره اتّجاه زوجته ربيبة السّلطانة خديجة الّتي أحبّها حبّا شديدا، وكذا عند مغادرته جزائر ذبية المهل بعد تطليقه لزوجاته قائلا: << وبعثت عن جارية كنت أحبّها>> [2] كي ترافقه في رحلته .

كما قدّم لنا صورا أخرى عن الجواري<< فمنهنّ المغنّيات عليهنّ أجمل لباس وأحسن حلية ومنهنّ رواقص>> [3].

5- صورة المرأة الجسد:

حاول رحّالتنا استقصاء أوصاف المرأة مركزا على صورتها الجسدية مبيّنا مواضع الجمال والفتنة فيها، من ذلك وصفه للمرأة في البرادمة مشبّها إيّاها بالمرأة في مالي حيث كانت أعظم شأنا من الرّجل تعيش حياة البدو الرّحّل لا تستقرّ في مكان، وقد وصفهنّ ابن بطّوطة قائلا:<< ونساؤهم أتمّ النّساء جمالا وأبدعهنّ صورا مع البياض النّاصع والسّمن ولم أر في البلاد من يبلغ مبلغهنّ في السّمن، طعامهن حليب البقر وجريش الذرّة يشربنه مخلوطا بالماء غير مطبوخ، عند المساء والصّباح، ومن أراد التّزوّج منهنّ سكن بهنّ في أقرب البلاد إليهنّ>> [4]. وقد لمسنا هوسه بالنّساء بعد خروجه عن الأقاليم العربيّة الإسلامية ودخوله بلاد التّرك والهند وجزائر ذبية المهل، فتعدّد زيجاته وشرائه للجواري واستحالة تنقّله دونهنّ لدليل على ذلك .

رابعا: الأبعاد الخفيّة في رحلة ابن بطّوطة:

عكست لنا رحلة ابن بطوطة جوانب مختلفة اجتماعية نفسية سياسية دينية وحتّى خُلُقيّة، وقد تعدّدت هذه الجوانب بتعدّد صورة المرأة فتفاوتت فيها وجهات النظر تفاوتا شديدا بالانتقال من مكان إلى آخر سواء كانت هذه المرأة بنتا أو أختا أو زوجة حبيبة أو سلطانة، كما اختلفت هذه الصورة باختلاف المناطق ففي بعضها نجدها متحرّرة مسؤولة

---

[1]- المرجع السابق ج2 ..، ص 688.

[2]- نفسه..، ص 673.

[3]- نفسه..، ص518.

[4]- نفسه..، ص798.

عن نفسها لها الحقّ في تقرير مصيرها، وفي بعض المناطق ذليلة مضطهدة مسلوبة الحريّة، كما نجدها ورعة تقيّة تتقرب من خالقها بصالح الأعمال أو مترصّدة باغية مراودة للرجال من ناحية أخرى، وهذا ما أردنا الوصول إليه من خلال رحلة ابن بطوطة وهو الكشف عن صورة المرأة نقلها للمجتمع خلال القرن الثامن الهجري/الرّابع عشر ميلادي من جميع النواحي محاولين التطرّق لهذه الجوانب مقتصرين على نماذج منها .

1- البعد الديني:

الكيد صفة مذكورة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بعضها منسوب إلى الإنسان سواء كان رجلا أو امرأة وبعضها منسوب إلى الشّيطان. وقد جاء وصف النّساء بالكيد في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم مرّتين على لسان يوسف عليه السّلام ومرّة على لسان العزيز في سورة يوسف. فما ورد على لسان العزيز قوله جلّ وعلا:<< فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾>>[1]. و ما ورد على لسان سيّدنا يوسف عليه السّلام قوله سبحانه وتعالى :<< قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾>>[2]. وقوله أيضا:" وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾>>[3].

فالقصّتان اللّتان نقلهما لنا ابن بطّوطة بمصر والحجاز كان الكيد فيهما من المرأة كما كان في قصّة سيّدنا يوسف عليه السّلام، كلّ واحدة منهما اشتركت في صفة المراوغة والحيلة و المكر. أمّا الثّانية فاتّصفت بصفات أخرى كونها امرأة متزوّجة فبتصرّفها هذا خدعت زوجها وخانته لتتجرّد من عفّتها وتستغني عن شرفها مستسلمة لنوازعها وغريزتها، حيث انتظرت رحيله لتكشف عمّا كانت تخفيه، بتصرّفهما كشفتا عن خلقهما وطبائعهما. فقد حاولت المرأة في مصر بشتّى الوسائل استدراج جمال الدّين السّاوي مستعملة الحيلة

---

[1]- من سورة يوسف (12) /الآية:28.

[2]- من سورة يوسف (12) /الآية:33

[3]- من سورة يوسف (12) /الآية:50

والمراوغة متبعة أساليب المكر و الممازقة والتلاعب للإيقاع به لنيل مبتغاها، أمّا المرأة المراودة في الحجاز زوجة الشّيخ عبد الحميد العجمي أخفت مشاعرها وأحاسيسها اتّجاه خادم زوجها الّذي ائتمنه على زوجته من جهة ولأنّه وثق بها من جهة أخرى، لكن بمجرّد غيابه أظهرت ما كانت تضمره فلو عدنا إلى الأحداث سنقف عند عبارة " كان يتركه بداره عند سفره"، ونحن نعرف أنّ السّفر في تلك الفترة كان يستغرق وقتا – ذهابا وإيابا –. ما استنتجناه هو أنّ الفتى كان يبقى معها مدّة من الزّمن وهو أمام ناظريها فتلك الألفة وجدتها في خادم زوجها ما جعلها تتعلّق به ليتولّد عندها شعور دفعها إلى مراودته، إلّا أنّ هذا الأخير أثبت نزاهته وإخلاصه واستقامته وحفظه للأمانة الّتي حاولت استدرجه إلى الخطيئة ليقع في المعصية. وردّ فعل جمال الدّين السّاوي لم يختلف عنه فكلاهما كانت لديهما قدرة على الامتناع وكلاهما انتهجا نفس الطّريق، لأنّ ذلك زادهما تقرّبا من الله فالأخلاق الجنسية كسائر الأخلاق قوامها كبح جماح النّفس حتّى لا تنجرف مع الهوى متى تعرّض الفرد للاستهواء. والعامل المشترك في القّصّتين وهو أنّ أكثر ما كان يجذبهما في الرّجلين وسامتهما وشبابهما اللّذان اعتبرا بالنّسبة إليهما نفحة من النفحات سلبت منهما رشدهما.

قال المتنبّي[1]:

وإذا غَدَرَتْ حسناءُ وفت بعهـــدها فمِن عهدِها أن لا يَدُومَ لها عهْــدُ
وإنْ عَشِقَتْ كانت أشدّ صبابـــــةً وإنْ فَرِكَت فاذْهبْ فما فِركُها قصْـدُ
وإن حقدتْ لمْ يَبْقَ في قلبِها رِضًى وإنْ رَضِيَتْ لم يَبْق في قلبها حِقْـدُ
كذلك أخْلاقُ النّساءِ ورُبّمـــــــا يَضِلُّ بها الهادي ويخفى بها الرّشدُ

وقد قال العقاد عن المتنبّي << بعد تلخيص ما قيل في معناه أنّ عهد المرأة عهد لا يدوم فهي تتقلّب وتراوغ وترائي وتكذب وتحزن وتميل مع الهوى وتنسى في لحظة واحدة عشرة السّنين الطّوال، وهي مسوقة إلى ذلك بالفطرة الجنسية الّتي خلقت فيها قبل نشأة الآداب

[1]– ديوان المتنبّي..، 206.

الاجتماعية والآداب الدّينية بألوف السّنين، فقد أغرتها الفطرة الجنسية بالميل إلى الأقدر والأكمل من الرّجال >> [1] .

وهذه قصّة من القصص الّتي تروي لنا كيد النّساء من خلالها تبيّن لنا بأنّ الصّفة الجامعة بين الحكايات الأربع بالإضافة إلى قصّة زليخة مع سيّدنا يوسف هي الجمال. قال أحمد بن يحيى:<< كان مرثد عمّ عمرو بن قيمة الشّاعر-جاهلي-، عنده امرأة جميلة، وكان قد كبر، وكان يجمع بين أخيه وبني عمّه في منزله للغذاء كلّ يوم، وكان عمرو بن قيمة شابّا جميلا، وكانت أصبع رجله الوسطى والّتي تليها مفترقتين، فخرج مرثد يرمي بالقداح، فأرسلت امرأته إلى عمرو بن قيمة: ابن عمّك يدعوك، فجاءت من به من دبر البيوت، فلمّا دخل عليها لم يجد عمّه فأنكر أمرها، فراودته عن نفسها، فقال لها، لقد جئت بأمر عظيم، وما كان مثلي يدعس لمثل هذا؟. قالت: لَتَفعلنّ ما أقول لك أو لأسوأنّك. قال إلى المساءة دعوتني!. ثمّ قام فخرج، وأمرت بجفنة فكبّت على أثر رجله، فلمّا رجع مثرد وجدها متغضّبة، فقال لها: مالك؟. قالت: إنّ رجلا من قومك قريب القرابة جاء يستامني- يراودني- نفسي ويريد فراشك منذ خرجت. قال ومن هو؟. قالت: أما أنا فلا أسمّيه ولكن قم فاقتف أثره تحت الجفنة، فلمّا رأى الأثر عرفه فأعرض عنه وجفاه، ولم يزد عن ذلك، و كان أعجب الخلق إليه>> [2].

انتقد ابن بطّوطة بعض العادات الّتي كانت تساعد على نشر الفساد في بعض المناطق الّتي زارها لم يرض عنها ولا عمّن كان يحكمها كون بعض السّلاطين كانوا يشجّعون ذلك منهم سلطان عمان: أبو محمّد بن نبهان وكان سلطانا عربيّا من قبيلة الأزد بن غوث و الأزد من أعظم قبائل العرب وأشهرها تنتسب إلى الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان من القحطانية. حقيقة اتّصف بالكرم وحسن الخلق لكن هذا لا يمنع من اتّصافه ببعض الصّفات الّتي لم يتقبّلها ابن بطوطة كتشجيعه للمرأة للمضيّ في طريق الرّذيلة والفسق متوعّدا ممّن أراد من أهلها قتلها بالقصاص، فكان الحامي والمدافع على من ينتهج هذا الطّريق ومن منهنّ قصدته أصبحت من جواريه أي ضمن الملكية الخاصة

---

[1]- عباس محمود العقاد: موسوعة عبّاس محمود العقاد الإسلامية : القرآن والإنسان، مج4، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط،1390هـ -1971م ، ص429.

[2]- أخبار النساء...، ص 149.

لسلطانها، وبالتالي كان السّلطان هو السّبب الرّئيسي في انتشار الزّنى في عمان بمساعدته لهنّ في الوقوع في معاثر الفساد، والّتي كانت بالنّسبة له ولهنّ تحرّرا وخلاصا لا خطيئة خاصّة وأنّ الزّنا يعتبر خطيئة من الخطايا في جميع الأديان .

قال تعالى:<< الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾>> [1]. ولبشاعتها حرص سبحانه وتعالى على عدم الرأفة بترك العقوبة أو تخفيفها، كما حرص على حضور العقوبة عددا من المؤمنين تشنيعا وزجرا وعظة واعتبارا للغير.

أمّا الكتاب المقدّس فإنّه يحكم بالموت على الزّاني والزّانية – المرأة المتزوّجة- ، أمّا إذا كانت المرأة غير متزوّجة فبالنّسبة لهم لا يعتبر زنى[2]. وقد ورد في ضرورة ردّ المرأة عن البغاء في كتاب حقوق المرأة في المسيحيّة:<< إنّ من ردّ خاطئا عن ضلال طريقه، يخلّص نفسا من الموت و يستر كثرة من الخطايا >> [3]. << كما كان في مقدور الزّوج أن يحكم على زوجته بالموت إذا ما ضبطها متلبّسة بجريمة الزّنى، وكان من حقّه ضربها حتّى الموت إذا ضبطها تعاقر الخمر دون أن يلومه أحد >> [4]. وعند عند اليهود كانت تعاقب دون الرّجل كونها كانت تعدّ صفقة من الصّفقات كون ثمن البكر هو ضعف ثمن الثّيب لذلك كانوا يحرصون على عذريتها .

أراد حمّو رابي حماية الزّوجات فأصدر قانونا وهو أقدم نصّ تشريعي لكن بعد اطّلاعنا على بعض المواد وجدنا العكس، وممّا ورد فيه مايلي :<< إذا اتّهمت الزّوجة بشرفها فيحقّ لها أن تدافع عن سمعتها، وذلك بخضوعها لحكم إله النّهر وهذه مجازفة لا تحمد

---

[1]– من سورة النور(24)/الآيتان :2-3.

[2]– ينظر: الفيلسوف المسيحي و المرأة..، ص37. المرأة في الإسلام والمرأة في العقيدة : اليهودية والمسيحية بين الحقيقة و الأسطورة ..، ص22.

[3]– حقوق المرأة في المسيحية..، ص 83.

[4]– الفيلسوف المسيحي والمرأة..، ص 29-30.

عقباها قد تودي بحياتها >> [1]، وقد ورد ذلك في المادّة 132 الّتي يقول فيها:<< إذا وجّهت الأصبع إلى زوجة سيّد بسبب رجل آخر ولكنّها لم تقبض أثناء اضطجاعها مع الرّجل الآخر، فعليها أن تلقي نفسها في النّهر لأجل زوجها >> [2]. أي أنّ الزّوجة إذا اتّهمت بالزّنا دون دليل وتناولتها ألسنة النّاس فعليها أن تلقي بنفسها في النّهر، إذا طافت على وجه الماء كانت بالنّسبة لهم بريئة، أمّا إذا غطست اعتبرت مذنبة، ومصيرها يحدّده كما قيل إله النّهر، وبالتالي حتّى لو كانت المرأة شريفة ولم يحالفها الحظّ وغطست عدّت في نظرهم آثمة وأيّ حكم هذا؟.

وفي الهند إذا خرجت المرأة عن حدود المألوف وزنت طبّق عليها حكم الرّجم حتّى الموت، من ذلك ما نقله لنا ابن بطّوطة عن المرأة الزّانية الّتي رجمها << القاضي كمال الدّين بعد اعترافها بالزّنا >> [3].

كان ابن بطّوطة يبدي اعتراضه على تشجيع البعض لحرّية المرأة وذلك بدفعها لارتكاب المعصية، لكن هذا لا يمنع من أنّها بالنّسبة له كانت مطلبا من مطالب المتعة، ويظهر ذلك في حرصه على شراء الجواري بعد تصريح منه باستحالة تنقّله دونهنّ.

2- البعد الاجتماعي :

وما استخلصناه في هذا الجانب أنّ المرأة الحرّة والمرأة ذات السّلطة وذات المكانة لم يمارس عليها الظّلم والجور الذي مورس على المرأة السبيّة والجارية أو الّتي تنتمي إلى الطّبقة الكادحة، أي أنّ المعاملة كانت تقوم على التّفاوت الطّبقي. فصورة المرأة الملكة << وإن كانت الأقلّ شيوعا فإنّها ترمز إلى المرأة كآخر بعيد، يمدّ موقعه المتعالي مسافة

---

[1]- هورست كلينكل: حمو رابي البابلي وعصره، تعريب: محمد وحيد خيّاطة، دار المنارة للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، ط1 ، 1990م، ص222.

[2]- سهيل قاشا: شريعة حمو رابي، ترجمة: محمود أمين، شركة دار الوراق للنشر المحدودة، لندن، ط1، 2007 م، ص 40.

[3]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2..، ص 540.

تفصله عن صخب وتموّجات الأفعال اليومية للبشر العاديين>> [1]، وما يطبّق على الأخريات لا يجري عليها. فالحرق في الهند مثلا كان محتكرا على فئة معينة دون سواها ولم ينقل لنا ابن بطّوطة حالة من تلك الحالات تنتمي إلى البلاط طبّق عليها هذا القانون الظّالم والمجحف. واضطهاد المرأة واحتقارها واعتبارها نذير شؤم في المجتمع الهندي بالنّسبة للمرأة العانس أو الأرملة الّتي أبت أن يكون مصيرها كمصير غيرها لم نلمسه أيضا في الأسرة الحاكمة وقد اطّلعنا على كتاب حضارات الهند ، لكن لم نصادف مشهدا من هذه المشاهد الّتي نقلها وصوّرها لنا ابن بطّوطة وغيره تنطبق على من تنتمي إلى الأسرة الحاكمة إلّا حالة واحدة، وكان ذلك عندما فضّل ملك الرّوم حرق نفسه على أن يسلّم نفسه مقترحا على زوجاته وبناته ذلك خوفا من السّبي وهذه الحالة تختلف عن الحالات الأخرى .

كما لمسنا في رحلة ابن بطّوطة وجود مفاضلة بين المرأة والرّجل في بعض المناطق الّتي زارها، فالمرأة في البرادمة ومالي كانت أفضل وأعلى مكانة من الرّجل وأعظم شأنا منه، وهذا ما أدّى إلى إطلاق العنان لحرّية المرأة في مالي وذلك باتّخاذها الأصحاب واستقبالهم في البيت وبحضور زوجها على الرّغم من أنّهم كانوا معتنقين الدّين الإسلامي. وبما أنّهم مسلمون يفترض أن يميّزوا بين الحلال والحرام بين ما هو مباح وما هو محضور خاصّة فيما يتعلّق بصفات المرأة الحقّة، دون أن ننسى أنّه قد جعل القوامة للرّجل والأفضليّة له. << فالقرآن حكم بتفضيل الرّجل على المرأة، وهو حكم بيِّن من تاريخ بني آدم، منذ كانوا قبل نشوء الحضارات والشّرائع العامّة وبعد نشوئها >> [2].هذا لا يمنع من بروز بعض النّساء ونبوغهنّ وقد اشتهر منهنّ ملكات وقائدات كالسّلطانة رضية الدّين وابنة سلطان مُل جاوه اللّتان استطاعتا أن تحقّقا ما لم يستطع تحقيقه الرّجال من انتصارات وإنجازات، لتميّزهما بالعزيمة والصّرامة وقوّة الشّكيمة والحزم والبأس. كما اشتهر منهنّ الصّالحات اللّواتي تميّزن بفضائل الأخلاق كابنة سلطان بخارى الّتي آثرت أن تتزوّج شخصا صالحا ورعا على أن تتزوّج بمن يفوقها في الإيمان وليس في المال والجاه وبذلك تكون قد هدّمت حاجز الطبقية

---

[1]– فوزية أبو خالد: الصورة النمطية للمرأة "النساء والإبداع، المبدعة العربية بين مخالفة الصورة النمطية للمرأة في الذاكرة الجماعية وبين تفكيك الخصاب السائد "، بحث، قسم الدراسات الاجتماعية، جامعة الملك سعود، الرياض، ص7.

[2]– موسوعة عبّاس محمود العقاد الإسلامية: القرآن والإنسان، مج 4..، ص 398.

والفوارق الاجتماعية التي يتمسّك بها البعض متجاهلين قيمة الفرد الصّالح على حساب مكانته الاجتماعيّة. دون أن ننسى المرأة المنجزة الّتي سخّرت مالها للمحتاجين من الرّعيّة كزوجة أمير بلخ داود بن علي بالإضافة إلى بنائها للمسجد وتعميرها له. لكن<< فضائل الأجناس لا تقاس بالنّصيب المشترك، بل تقاس بالغاية الّتي لا تدرك، ولا تؤخذ بالاستثناء الّذي يأتي من حين إلى حين، بل بالقاعدة الّتي تعمّم وتشيع بين جملة الآحاد، وقد يوجد بين الصّبيان من هو أقدر على أعمال الرّجال، بل قد توجد في أثناء اللّيل ساعة أضوأ من بعض ساعات النّهار، وإنّما تجري الموازنة على الغايات القصوى، وعلى الأغلب الأعم في جميع الأحوال، وما عدا ذلك فهو الاستثناء الّذي لا بدّ منه في كلّ تعميم وعلى هذا يمكن أن يقال أنّ الاستثناء يحمل في أطوائه دلائل القاعدة الّتي يخالفها، ولا يخلو من ناحية تعزّز القاعدة الغالبة ولا تنفيها >>[1].

كما قدّم لنا ابن بطّوطة صورة عن المرأة في ذبية المهل والمرأة السّودانيّة وكلّ منهما كانت لا تستتر وإن كانت المرأة في ذبية المهل محتشمة نوعا ما عن المرأة السّودانية، لكن ما عرفناه عن السّودانيّين في رحلة ابن بطّوطة حرصهم على تحفيظ أبنائهم القرآن و ملازمتهم المساجد، لكن المشكلة في عدم تطبيق ما حفظ من الذّكر الحكيم بعدم حرصهم على ستر بناتهنّ وجواريهنّ وحتّى زوجاتهنّ دون أن نستثني زوجات السّلطان. وكانت هذه العادة من الأمور التي انتقدها ابن بطّوطة ورفضها كونها لا تتماشى مع الدين والأخلاق ومجتمعنا المسلم يرفضها إذ نجد ابن بطّوطة يقول:<< فمن أفعال السّودان الحسنة قلّة الظّلم..، ومنها مواظبتهم للصّلوات، والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلّي لكثرة الزّحام..، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقّهم التّقصير في حفظه، فلا تفكّ عنهم حتّى يحفظون..، ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصّغار يظهرن للنّاس باديات العورات، ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهنّ على تلك الصّورة>>[2].

ولم يغفل ابن بطّوطة عن سلوكات اجتماعية أخرى فرضت على المرأة بحكم العادات والتقاليد، وهنا لا نخرج عن الحيّز الضّيّق الّذي رسمه ابن بطّوطة في رحلته فيما يخصّ

---

[1]– المرجع السابق..، ص 401.

[2]– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2..، ص 790.

حياته الشّخصية فالمرأة شغلت مكانا لا حدود له من زوجات و جوار، و هنا نخصّ بالذّكر زوجاته بذبية اللّواتي حرم منهنّ بسبب العادات والقوانين الّتي تحتّم على الزّوج تطليق زوجته قبل الرّحيل خاصّة وأنّه وجد ضالّته فيها الزّوجة الصّالحة والحبيبة . وبالتالي كانت تلك القوانين عقبة اعترضت طريقه ولم يستطع أن يعيش مدّة طويلة كربّ أسرة يتربّع على عرشها معه زوجاته وأبناؤه، حتّى بعد عودته إلى ذبية المهل لم يشأ أن يأخذ ابنه معه بسبب العادات التي تمنع اصطحاب الوالدة ولو كان ذلك بعد محاولة باءت بالفشل، وكأنّ الظّروف بدورها لم تكن حليفته.

3- البعد النّفسي :

نقل لنا ابن بطّوطة معناة المرأة وصراعها مع الحياة ومع الرّجل، إذ نجدها مرّة قاتلة لأخيها ومرّات قاتلة لزوجها، وإن لم ترتكب جريمة فنجدها تعيش حالة قهرية لتكون هي من يقدّم كقربان للآلهة أو تلقى نفس مصير زوجها. وبالتالي كانت حالتها النّفسية في بعض الحالات متذبذبة لا تعرف استقرارا، أحيانا تكون إيجابية مشرقة مستقرّة وأحيانا سلبية. تارة تخرج عن صمتها لتضع حدّا لمترصّدها ولقاهرها وتارة تستسلم لقدرها كحال المرأة المضطهدة في الهند منظرة دورها لتحرق مع زوجها هروبا من الجحيم الأقوى من لهيب النار، أو لتقدّم قربانا للآلهة كفتاة جزائر ذبية المهل الّتي كان يحلّ في قلبها السّكينة بمجرّد عدم وقوع القرعة عليها لتعيش مرّة أخرى ذلك الاضطراب النّفسي باقتراب موعدها. وسنستهلّ ذلك بنموذج استطاعت المرأة أن تكون فيه منتصرة عوض أن تكون ضحيّة بفضل حنكتها ودهائها وذكائها المتوقّد وسعة حيلتها. وهذه العبارات تذكرنا بالسّلطانة رضيّة الدّين الّتي حاول أخوها تصفيتها بعد القضاء على أخيها لكنّها تمكّنت منه قبل أن يقضي عليها، فكما تغلّبت بصيرة العقل عند أخيها على بصيرة القلب، هي بدورها انتهجت نفس الطّريقة للمحافظة على حياتها مطبّقة قول أحد علماء النّفس:<< على قلبنا أن يعرف عالم القلب وعلى عقلنا أن يتّخذ قلبا واعيا كدليل له>> [1]. وبالتالي كان عقلها دليلا لها وهذا يعكس نضجها العاطفي الّذي جعلها أكثر مقدرة على فهم ما كان سيقدم عليه شقيقها متناسيا رابطة الأخوة ورابطة الدّم التّي كانت تجمع بينهما. ولو تتبّعنا الأحداث لوجدنا كلّ واحد منهم قضى على الآخر بسبب العرش حتّى ولو ادّعت السّلطانة رضية أنّ سبب قتلها لشقيقها قتله

[1]- حسن مدن: بعبارة أخرى..الذكاء العاطفي لمَن المشورة: للقلب أم للعقل، www.google.com

لأخيها وعدم اتّباعه طريقة حكم والده، لكن ما لاحظناه أنّ السّلطانة رضيّة الدّين حاولت أيضا تنحية أخيها عن العرش على الرّغم من عدله وإنصافه للرّعيّة، وهذا لدليل تولّد حب شهوة التّسلّط على العرش وعلى غلبة لذّة التّرأّس في نفسها، لكن ما يهمّنا هنا طريقة تخلّصها من أخيها السلطان فكلّ ما أقدمت عليه كان بعد تخطيط وتدبير .

لو قلنا الانحياز إلى العقل أكثر من القلب فالمقصود بالحكم الرّجل، وإذا قلنا العكس فالمقصود بالحكم هو المرأة. لكن متى تكون المرأة عكس ذلك ؟.

يقول علماء النّفس إنّ الذّكاء عند الفرد يعمل على قطبين قطب مذكّر وآخر مؤنّث والنّسبة تختلف من شخص لآخر لكن كيف يعمل هذين القطبين عند المرأة؟. هذا ما سنتعرّف عليه بعد تعريف كلّ واحد منهما لنبيّن من خلالهما متى يكون القطب المذكّر الّذي يسمّى بالذّكاء البارد أكبر من القطب المذكّر والّذي يسمّى بالذّكاء الّدافئ محاولين تطبيقه على شخصيّتنا رضيّة الدّين .

ورد في كتاب المرأة بحث في سيكولوجية الأعماق لبيير داكو أنّ الذّكاء عند المرأة يغيّر آليّا إذا انتقلت من اتّجاه من اتّجاهات الأنوثة إلى اتّجاه من اتّجاهات الذّكورة، وصورة كلّ ذكاء وتعبيره وعمقه وسطحيّته مرتبط بالوجدان قبل كلّ شيء. فالقطب المؤنّث يسمّى بخزّان اللّاشعور والوجدانيّة والأحاسيس والحياة الدّاخليّة هو ذكاء لا عقلاني لذلك سمّي بالذّكاء الدّافئ تحكّم فيه المرأة قلبها وعواطفها وأحاسيسها على العقل. أمّا القطب المذكّر فيتمثّل في خزّان الشّعور والعقل المنطقي والفكر الاستدلالي، يتشكّل من آراء قاطعة ومحدّدة بعد رؤية محكمة ودقيقة للأشياء. وبالتالي تحكّم فيه المرأة أو الفرد بصفة عامّة العقل على القلب، فيسيطر فيه العقل على القلب و الأحاسيس[1]. وبالنّسبة للسّلطانة رضيّة الدّين مساحة الذّكاء البارد كانت أوسع من مساحة الذّكاء الدّافئ وبالتالي انحيازها للعقل كان أكثر من انحيازها للقلب، وهذا ما جعلها تكيد لأخيها مستعملة ذكاءها الذي مكّنها من الوصول إلى مبتغاها. يضيف بيرد داكو أنّ هذه الصّورة من الذّكاء<< مرتبط بالطّريقة الّتي أتقن بها الأب واستطاع من خلالها تنشيط شخصية الفتاة >> [2]. وهذا ما اكتشفناه من خلال اطّلاعنا على

---

[1]– ينظر : بيير داكو: المرأة " بحث في سيكولوجية الأعماق" ، ترجمة: وجيه أسعد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، د. ط، 1983م، ص ص 524–527.

[2]– نفسه..، ص527.

حياة السّلطانة رضيّة الدّين الابنة المفضّلة عند والدها، يقال أنّه فكّر في أن يعهد لها بالعرش من بعده لرجاحة عقلها وإلمامها بالعقيدة والفقه الإسلامي، فتعهّدها برعاية فخصّص لها من يعلّمها أصول الدّين والفقه والحديث، وحتّى بمن يدرّبها على فنون القتال والفروسيّة. فأصبحت لا تقلّ شأنا عن إخوتها في العلم والسّياسة كما كانت أكثر فطنة ودهاء، فكانت خامس مملوك دولة المماليك بالهند، استطاعت أن تستميل أمراء البلاد ويقسموا لها يمين الولاء بفضل حزمها وامتلاكها كلّ الصّفات الّتي تؤهّلها تولّي الملك وإدارة شؤن المملكة. << فكان والدها إذا تغيّب في حروبه ينيبها عنه في إدارة أعمال حكومته مفضّلا إيّاها على أبنائه الذّكور، ولمّا سئل عن سبب اختياره لها بدل أحد أبنائه في نيابة المملكة أجاب: أنّ أولاده انهمكوا في الشّرب واللّعب فإدارة المملكة صعبة عليهم أمّا رضيّة بيكم – الأميرة – فمع أنّها امرأة لكن لها عقل وقلب رجل>>[1]. وهذا ما سبق وأن أشرنا إليه فسيطرة القطب الذكر كان مسيطرا على السّلطانة رضيّة الدّين، وهذا كلّه يعود إلى والدها الّذي جعل من مساحته تكبر وتزيد من خلال تركيزه على تعليمها كلّ الشّؤون الّتي تخصّ الدّولة وكذا من خلال استخلافه لها في غيابه .

ومن حالات المرأة السّلبية الكئيبة المرأة الهندية والمرأة في جزائر ذبية المهل الّتي كانت تسلّم كقربان للآلهة حتّى يسلموا من أذاها، فهذه المرأة تمثّل حالة المرأة الخائفة المرأة المستسلمة الرّاضخة والخاضعة للقوانين الّتي كانت ضدّها، تحرق بموت زوجها في حين أنّ الرّجل يعيش حياة أخرى بعد وفاة زوجته وكأنّ التّضحية تخصّ المرأة دون الرّجل. كما أنّ القربان المقدّم كان امرأة ولم يكن رجلا وكأنّ التّضحية تخصّ المرأة فقط دون الرّجل حتّى العفريت في جزائر ذبية المهل لم يرحمها هو بدوره كان يرى فيها المرأة الجسد دون المرأة الرّوح وكأنّ كلّ القوى تحالفت لتكون ضدّها. ومن شدّة تأثّر المرأة الهندية بهذه العادات والتقاليد أصبحت تعتبر حرقها واجبا من واجباتها، لأنّ تلك النّظرة الدّونية من طرف المجتمع باعتبارها مصدر شؤم مدنّسة لكلّ ما تمسّه جعلها تستصغر نفسها وتحسّ بأنّها عبء ثقيل على ذويها. وبالتالي حياتها أصبحت بالنّسبة لها ولهم لا قيمة لها والانتحار كان خلاصا لها من تلك الحياة، وموتها بتلك الطريقة بالنسبة لها كان عملا بطوليّا على الأقل تحظى

[1]– عمر رضا كحّالة: أعلام النّساء في عالمي العرب والإسلام، ج1، مؤسّسة الرسالة للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص 448.

بالهتاف والأدعية والتحية قبل أن تلقى نحبها، لدرجة أنّ ذلك تأصّل فيها بتعاقب القرون << حتّى أصبح غريزة ثابتة فيها، ولمّا حظرت الحكومة الإنجليزيّة تلك العادة قاومت النّساء هذا الحظر، فداومن على القيام بها طويل زمن محبِطات كلّ مراقبة، والنّسوة هنّ اللّائي منعن إلغاء تلك العادة في نيبال على الرّغم من الوزير الحازم جنك بهادُر >> [1].

وقد تعرّضت المرأة لضغوط جعلتها تفقد السّيطرة على نفسها نتيجة عوامل خارجيّة تأتيها من حيث لا تدري، ومن هذه العوامل الغيرة تلك العاطفة المتأجّجة في قلب المرأة. وتلك الغيرة لم تكن غيرة فطرية عادية بل كانت غيرة غير طبيعيّة لتحوّل إلى انحراف نفسيّ لما ولّدته في نفسها من نوازع الشّرّ كالحقد والغلّ ما جعلها ترتكب جرائم تصل إلى حدّ القتل، وهذا ما نقله لنا ابن بطّوطة من ذلك قتل ابنة الجوبان أمير بغداد "بغداد خاتون" لزوجها، وكنّا قد نقلنا أحداثا سبقت زواجها به من ذلك قتله لوالدها وإخوتها، وكذا إرغام زوجها التّخلّي عنها ليتزوّجها. لأنّها كما قال عنها ابن بطّوطة كانت من أجمل النّساء ولنا أن نتصوّر حالتها النّفسية لكن رغم ذلك رضت به وعاشت معه، ليتزوّج بأخرى وكانت هذه المرأة سببا في هجرانها، لتتأجّج في صدرها نار الغيرة وبما أنّ المرأة عند السّلطان لا حول لها ولا قوّة يستبدلها بغيرها دون مراعاة شعورها، وبما أنّه يملك السّلطة فلا أحد يلومه على أفعاله، لكن هذا الرّفض كان يتولّد عنه تصرّفات لا عقلانية وذلك بالإقدام على تسميم الزّوج، حيث قامت بغداد خاتون بتسميم السّلطان ليلقى حتفه على يدها. وبالنّسبة لها قتل السّلطان كان انتقاما لها ولكرامتها وكذا لموت والدها وإخوتها. ولو عدنا للحضارة الرّومانية لوجدنا أنّ المرأة كثيرا ما كانت تلجأ إلى تسميم الزّوج وكان ذلك بسبب القانون الرّوماني الّذي منح للرّجل سلطانا لا حدّله على زوجته وأبنائه، << و القصص الّتي كانت تروى حول تمرّد النّساء تدلّ على ما كانت تعاني منه المرأة من قهر وظلم وتعسّف، حتّى أنّها تلجأ إلى دسّ السّمّ للرّجل..، ثمّ تلجأ للانتحار الجماعي في حالة يأس كامل من الحياة المهينة الّتي تحياها >> [2]. ففي كلّ الحلات تلك التّصرّفات كانت تصدر من شخص يائس يعيش ظروفا قاهرة وحياة بائسة، فكما اعتبر الطّلاق كاسر ظهر المرأة اعتبرت المرأة وجود امرأة أخرى في حياة زوجها ضربة مميتة بالنّسبة لها، فتلك الحالة النّفسية الّتي كانت تحياها جعلتها

---

[1]– حضارات الهند..، ص647.

[2]– إمام عبد الفتاح إمام: الفيلسوف المسيحي والمرأة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1996، ص 28.

تتخلّص منه لعدم تقبّلها لمن يقاسمها زوجها من جهة، وكذا لتلك النّظرة الدّونية لها الّتي ترجمتها تصرّفات ومعاملات الزّوج لزوجته المتمثّلة في هجرانها وتفضيل غيرها عليها على الرّغم من التّضحيات الجسام الّتي تكبّدتها، قتل والدها وإخوتها حرمها وسلبها من زوجها كلّ ذلك تقبّلته، لكن زواجه وهجرانه اللّذان أثقلا كاهلها لم تتقبّله ما جعلها تخرج من استكانتها لتثأر لنفسها وكرامتها .

فالغيرة غريزة فطرية التمسناها حتّى عند نساء الأنبياء، وحتّى بين نساء المصطفى خاتم الأنبياء و المرسلين. من قصص نساء الأنبياء نذكر قصّة سارة زوجة النّبيّ إبراهيم عليه السّلام: << يروى أنّ سارة كانت تحبّ إبراهيم خليل الرّحمن، فمكثت معه دهرا لا ترزق ولدا، فلمّا رات ذلك وهب له هاجر..، فولدت لإبراهيم إسماعيل عليه السّلام، فغارت من ذلك سارة ووجدت في نفسه وعتبت على هاجر. فحلفت لتقطعنّ عضوا من أعضائها فقال لها إبراهيم عليه السّلام: هل لك أن تُبرّي يمينك؟. قالت: كيف اصنع؟. قال: اثقبي أذنيها وخصّفيها، والخصف هو الخياطة، ففعلت ذلك بها، فوضعت في أذني هاجر قرطين فازدادت حسنا. فقالت سارة: إنّي إنّما زدتها جمالا، فلم تتركه على كونها معه. ووجد إبراهيم وجدا شديدا، فنقلها إلى مكّة وكان يزورها في كلّ وقت من الشّام لشغفه بها وقلّة صبره عنها>> [1].

4-البعد السياسي:

شاركت المرأة في أمور الدّولة بطريقة مباشرة ويظهر ذلك في صراعها القائم على تولّي الحكم كرضيّة الدين بالإضافة إلى توليّها دور لقيادة مثلها مثل السلطانة حاكمة كيلوكري بعد إثبات أحقيّتها في تولّي حكمها لتلك المدينة على أخيها. كلّ واحدة منهما أثبتت جدارتها وقوّة شخصيّتها وحكمتها وسيطرتها وحسن وقيادتها وتسييرها شؤون رعيّتها مقتحمة ساحة الوغى دون خوف أو تردّد محقّقة انتصارات عجز عن تحقيقها الرّجال، لتثبت من خلالها تساويها بل تفوّقها على الرّجل في زمن كانت تعتبر فيه المرأة لا شيء أمامه، دون أن ننسى بغداد خاتون الّتي كانت تفرض نفسها عند اتّخاذ القرارات الهامّة والمتعلّقة بشؤون الدّولة ويظهر ذلك عند إصدارهم القرارات النّافذة << إنّه عن أمر السلطان والخواتين>>[2]. وهذا يعكس لنا

---

[1]- أخبار النساء..، ص75.

[2]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1..، ص 248.

تجربة المرأة في الحياة السياسية وحتّى العسكريّة في العصور الأولى من الإسلام، فهي لم تكن أمّا أو زوجة أو بنتا بل كان لها أدوارا أخرى فلعبت دور المخطّط والمساند وحتّى المحارب، وحاولت إثبات هويّتها واستقلاليّتها وتفوّقها على الرّجل من خلال تحدّيها ومواجهتها له، وهذا ما أثبتته سلطانة كيلوكري بعزوف الجنس الآخر عن مواجهتها خشية الهزيمة لتثبت بذلك سيادتها وسيادة جنسها على المجتمع حيث كانت الملكة الوحيدة الّتي ضمّ معسكرها مقاتلات يقاتلن كالرّجال وربّما أحسن .

من خلال هذه الجولة في كتاب الرحّالة المشهور ابن بطّوطة استطعنا أن نتعرّف على صورة المرأة خلال القرن الثّامن الهجري أظهر فيها اهتمامه الكبير بها، فقدّم لنا صورة فاحصة دقيقة عنها معتمدا على المقارنة بحكم اختلاف العادات والتّقاليد وحتّى الأديان بمختلف الطّبقات بدءا من السّلطانة وصولا إلى الخادمة وفي جميع الميادين سياسية اجتماعية ودينية وحتّى نفسية.

الخاتمـــــــة

بعد هذه الجولة الّتي نحسبها قد طالت في ثنايا الرّحلة، وبالتّحديد رحلة ابن بطّوطة ها قد وصلنا إلى آخر لمسة من لمسات هذا البحث المتواضع والّذي انتهى بفضل منّة وكرم الله عزّ وجلّ وبفضل مداومة أستاذي الفاضل بالنّصائح والإرشادات القيّمة، وقد حاولت فيه جاهدة مثابرة على بلوغ الهدف وهو التعرض لمكانة المرأة وصورتها في رحلة ابن بطّوطة – خلال القرن الثّامن الهجري –، وخلصت في النّهاية من خلال فصول البحث إلى عدّة استنتاجات أهمّها:

1- إنّ أدب الرّحلة مزيج من الجغرافيا والاثنوغرافية، فهو أقرب إلى الجغرافيا في وصفها للطّرق وتحديد مواقع البلدان، نقل لنا فيه الرّحّالة صورة دقيقة عن الأمصار من عادات وتقاليد وسلوك وأخلاق .

2- كان الحجّ هو أوّل دافع لشدّ الرّحال، وهذا الأخير استثار همم الرّحّالين في شتّى أقطار الدّول الإسلاميّة، فضلا عن الرّغبة في اكتساب العلوم من منبعها الأصلي: مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، إذ كانت نورا يضيء درب من يأتي بعدهم ودليلا لهم .

3- ما جعل ابن بطّوطة يتّخذ قرار شدّ الرّحال ومفارقة الأحبّة والخلّان رغبته في آداء فريضة الحجّ وتحصيل العلم من مصدره الأصليّ وذلك بحرصه على لقاء المشايخ، فضلا عن رغبتة في اكتساب العلوم وتحصيلها من منبعها ومصدرها الأصلي، فشغفه الشّديد بالرّحلة و رغبتة في اكتشاف جعلاه لا يعرف الاستقرار مضحّيا بحياته وماله ووقته .

4- امتاز ابن بطّوطة بوصفه الاثنوغرافي للأمصار، متمثّلا بيئتها وشخصيّاتها وأحداثها بأدقّ تفاصيلها، مسجّلا انطباعاته عاقدا مقارنات بينها وبين بلدان أخرى، وقد اعتبرت رحلته من أهمّ مراجع البحث الأساسيّة إذ أصبحت تتصدّر قائمة المصادر والمراجع في كتب التاريخ والجغرافيا، كما أشيد بإنجازاته وفضّل عن سابقيه وعمّن عاصروه فلم يتجاوزه أحد لا من حيث المسافة ولا الزّمن .

5- استطاع ابن جزيّ الكلبي أن يحوّل مغامرات ابن بطّوطة إلى قوالب نصّيّة جمعت في كتاب يحمل قيمة أدبيّة، تاريخيّة اقتصاديّة سياسية واجتماعيّة، فعلى الرّغم من مرور مدّة من الزّمن إلّا أنّه لم يفقد وزنه ولا قيمته، بل ارتقى عبر الأزمان والعصور ليصبح من أهمّ الكتب النّادرة كما سبق وان ذكرنا، إذ بات مقصدا ومرجعا لمن يبحثون عن عجائب وغرائب البلدان، فحقّ له أن يسمّيه تحفة .

6- يعتبر القرآن من الأمور العجيبة فهو المعجزة الخالدة والمعجزة كانت في ألفاظه وعباراته ونظمه المنفرد، سحر العقول وأسر الألباب، فبعدما كان العرب يجتمعون إلى الشّعراء انكبّوا على القرآن الكريم يتدارسونه ويتدبّرون آياته ومعانيه والعجائبية كانت في حروفه أحداثه، وفي الزّمن والمكان وحتّى الأشخاص .

7- نقل لنا ابن بطوطة في رحلته أحداثا واقعيّة، اجتماعية سياسيّة تاريخية، دينيّة إلّا أنّها لم تخل من العجائبيّة نظرا لاقترانها بالعجائب والغرائب، تحمل في ثناياها دلالات الدّهشة والحيرة من خلال وصفه لبعض الأماكن وعجائبها، راسما عالما خارقا معتمدا ومرتكزا فيه على الخيال وعلى الأحداث العجيبة لا نجدها إلّا في الأساطير الّتي تخترق فيها الحدود، وهذا ما جعل المستمعين و القرّاء ينقسمون إلى قسمين: قسم مصدّق لما رواه على مسامعهم، وهذا القسم سانده ودافع عنه، وقسم ساورته الشكوك بشأن مصداقيتها من عدمها متهما إيّاه بالكذب لما فيها من المبالغة.

8- إنّ الأواصر الّتي تربط المرأة بعهدها القديم، لهي في غاية الإجحاف والتّزمّت، حين عدّها ذاك العصر بليّة وفاجعة يتوارى منها القوم، ففي القرن الثامن الهجري كانت نظرة الهنود للمرأة لها لا تقلّ عن نظرة العرب لها في الجاهلية وإن صحّ التعبير اكتشفنا من خلال هذه الإطلالة السريعة نقاطا مشتركة بين ما نقله لنا ابن بطوطة في رحلته عن بعض الأمصار وبين ما سبق ذكره عنها في العصور القديمة .

9- استطاع ابن بطوطة أن ينقلنا عبر رحلاته إلى عالم المرأة، وذلك بوقوفه على القضايا الاجتماعية الّتي تتعلّق بها، وإن كان الحديث عنها قديم قدم البشرية مذ خلقت أوّل

امرأة في الوجود. فكانت بالنّسبة له جزءا لا يتجزأ من رحلته ولا من حياته احترم تركيبتها الأنثوية ومنحها حقوقها أثناء معاشرته لها، كما هجرها هجرا جميلا .

10- استنكر ابن بطّوطة أن تستغلّ المرأة لتكون في بعض البلدان كأداة للفساد والكسب الدّنيء، كما أشاد بجودها وكرمها وبإنجازاتها من ناحية أخرى حيث استطاعت أن تثبت تساويها مع الرجل في التسيير والتدبير مركّزا في ذلك على إبراز علاقتها بالرّجل داخل وخارج الأسرة .

11- تعدّدت صور المرأة في رحلة ابن بطّوطة حيث نقلها في حالته الإيجابية فمنها الزّاهدة التّقيّة العفيفة، ومنها الحاكمة الزّعيمة وهذه الأخيرة كانت رمزا للصّمود والتّحدّي، فكانت واعية طموحة متحرّرة من رقّ الجشع والكبرياء والطّمع وهذا الصّنف شغل حيّزا واسعا في رحلته، لكن هذا لا يمنع من وقوع البعض ضحيّة ذلك كالسّلطانة رضيّة الدّين، كما نقلها لنا في حالتها السّلبيّة وهذا النوع تمثّله المرأة الرّاضخة والمستسلمة للقوانين وللعادات والتقاليد، كما مثّله صنف آخر كان عرضة للانغماس والتلوّن بلون الدّهاء لاستهواء الرّجل وجرفه نحو الرّذيلة ومنها المتّخذة كعنوان للتّسلية والترفيه سارقين منها عفّتها لتلقى بعدها في سلّة الازدراء. ففي الوقت الّذي حظيت فيه المرأة بالمكانة اللاّئقة في بعض الأمصار متمتّعة بالحرّية، كانت مضطهدة مسلوبة الحقوق والحرّية في أماكن أخرى عاملين على طمس هويّتها وشخصيّتها وإنسانيّتها وسلب حرّيتها .

12- ركّز ابن بطّوطة في رحلته على جانبين في إبرازه لصورة المرأة، الجانب الدّاخلي للشّخصية ويظهر ذلك في تركيزه على الجانب المعنوي من وعي اجتماعي ونضج فكريّ وسياسيّ وهذا الصّنف مثّلته السّلطانة في طواليسي والسّلطانة رضيّة الدّين اللّتان استطاعتا إثبات سيادتهما على الرّجل، و زوجة والد السّلطان أبو سعيد بهادرخان ببغداد الّتي مثّلت المرأة المساندة للرّجل وغيرهنّ كثيرات، كما اهتمّ بالجانب الخارجيّ و يظهر ذلك في عاداتها وتقاليدها .

13- استحسن ابن بطّوطة بعض الأمور الّتي تتعلّق بالمرأة وانتقد بعضها من ذلك ما يتعلّق بالعادات والتّقاليد محاولا تغييرها مبديا استياءه منها لعدم تماشيها وتعاليم الدّين الإسلامي كعادة النساء في جزائر ذبية المهل والسودان .

14- امتاز ابن بطّوطة بوصفه الدّقيق للمرأة، إلّا أنّنا نلمس بعض الغموض فيما يتعلّق بحياته الشّخصيّة .

15- على الرّغم من زيجات ابن بطّوطة ومعاشرته للجواري، إلّا أنّه عاد كما خرج أوّل مرّة وحيدا، لا زوجة ولا ولد يستأنس به يجد الرّاحة بمجالستهما بعد استقراره. وكأنّ العلاقة الّتي ربطته بزوجاته وأبنائه كانت تنتهي بانتهاء إقامته. وبما أنّ زواجه الأوّل بني على مصلحة يمكننا أن نعتبر اقترانه بنساء المدن الّتي حلّ بها عاملا لمعرفة عوائدهنّ وسلوكيّاتهنّ، خاصّة وأنّ ما نقله لنا عن المرأة في عصره كان عن طريق التّعايش، لكن بعيون إثنوغرافية تعتمد على الدّقة في الوصف .

16- يعتبر ابن بطوطة من الشّخصيات الأسطورية التي جابت الآفاق في عصر غابت فيه وسائل تعين الرّحالة على خوض غمار شدّ الرحال، دون راحلة ودون مال كاف وفي سنّ مبكّر يفتقد فيه الخبرة والتجربة متجها نحو مجهول مليء بالمخاطر والأهوال، ليعاشر ويصادف أجناسا لا تجمعه معهم قرابة أو دين أو لغة تمكّنه من التواصل معهم والتأقلم مع عاداتهم وتقاليدهم وشرائعهم. فحقّ لنا أن نقول عنها أنّها شخصية أسطورية يستحيل أن تتكرّر في عصر من العصور، إذ يمكن أن نعتبره خبيرا مدقّقا، باحثا، محلّلا، فبرحلته استطاع أن يحفظ لنا الشيء الكثير من صور العالم الإسلامي الّذي زاره والمجتمع الّذي احتكّ به وعاصره.

ولا يسعني في الأخير إلّا أن أرجو من الله عزّ وجلّ أن أكون قد وفّقت في بحثي هذا، وأن يكمل غيري ما كنت قد قصّرت فيه .

فهرس الأعلام

أ

- إبراهيم بن أدهم:42، 174.
- إبراهيم عليه السّلام:28،19، 53،218،124،115،112 .
- ابن أبي شيبة:25 .
- ابن أبي عمرة:29.
- ابن الحوقل:17.
- ابن العباس رضي الله عنه:4، 25 ،115 ،118.
- ابن المدني:15.
- ابن بطوطة : 11 ،16 ،32 ،55 ،63 ،64 ،65 ،67 ،68 ،69 ،70 ،71 ،72 ،74 ،76 ،77 ،78 ،79 ،80 ،81 ،82 ،83 ،84 ،87 ،89 ،90 ،91 ،92 ،93 ،96 ،100 ،103 ،129 ،130 ،132 ،134 ،135 ،136 ،137 ،138 ،139 ،140 ،141 ،142 ،143 ،144 ،148 ، 150 ،153 ،154 ،155 ،157 ،160 ،161 ،166 ،168 ،169 ،172 ،173 ،179 ،180 ،181 ،182 ،183 ،185 ،189 ،190 ،192 ،193 ،195 ،198 ،199 ،202 ،203 ،205 ،206 ،210 ،211 ،213 ،217 ،218 ،219 .
- ابن جبير:63 ،75 ،86 ،92.
- ابن جزي الكلبي:66 ،75 ،77 ،85 ،86 ،87 ،90 ،95 ،96 ،143 .
- ابن خرداذبه:15 ،84.
- ابن خلدون:65 ،88 ،89 ،103 ،135 ،136 ،140 ،141 .
- ابن رشيد محمد بن محمد السبتي:43.
- ابن سعيد:66.
- ابن فضلان:5.
- ابن كثير:118.
- ابن مسعود:42.
- ابن هشام:28 ،52.
- أبو إسحاق بن محمّد شاه ينجو:176.
- أبو الحسن المسعودي:37.
- أبو الدرداء:37.
- أبو العباس جعفر بن أحمد المرزوي :15.
- أبو الفدا:66.
- أبو النّبهان:182.

- أبو بكر الصدّيق:111.
- أبو سعيد بهادرخان:154 ،155.
- أبو سلمة:29.
- أبو طالب:24.
- أبو عبد الله الحافظ بن منده:15.
- أبو عنان المريني:72 ،73 ،75 ،86 ،87 ،89 ،136.
- أبو هريرة:29.
- أحمد بن حمدان الحنبلي:39.
- أحمد شنورازة: 81، 179
- آدم:4 ،8 ،28 ،35 ،36 ،108 ،116 ،212.
- إدريس بن عبد الله:65.
- إسحاق بن إبراهيم: 29.
- الإدريسي:20.
- الأصخري:84.
- الألوسي:119.
- البلفيقي:67 ،88 ،103 ،138.
- الترميذي:25 ،38.
- التيجيني:54.
- الحجاج بن يوسف:86.
- الحموي:17 .
- الخضر(العبد الصالح):126.
- الخليفة المقتدر:5.
- الرازي:111.
- الزبيدي:78.
- الشافعي: 55 ،56 ،169.
- العبدري:13 ،54.
- الغزالي:9.
- القزويني: 101.
- المتنبّي:190 ،208.
- المسعودي:38 ،39 ،63 ،75.

- ألمش بن بلطوار:5.
- اليعقوبي:17 .

ب

- بختنصر:111 ،112 ،174.

ج

- جابر بن عبد الله الأنصاري:5 ،6 .
- جلال الدين فيروز شاه:198 .

ح

- حافظ إبراهيم:233.
- حليمة السعدية:264.
- حمو رابي:313.
- حواء:4.

خ

- خالد بن حزام بن خويلد الأسدي:34.
- خديجة بنت خويلد:24 ،34.

ذ

- ذو القرنين:44 ،46.

ر

- رضيّة الدين:149 ،151 ،214 215 ،216 .
- رفاعة الطهطاوي:10.

ز

- زليخة زوجة عزيز مصر:193.

- زياد بن عبد الله البكائي:52.

س

- سارة زوجة النّبيّ إبراهيم عليه السلام:53 ،218.
- سانجينيتي:75.
- سلام الترجمان:35.

ش

- شارل فرانسواديفريمري:75.
- شمس الدين لَلْمِش "ألتمش":149 ،150 ،135.

ص

- صالح عليه السّلام:124.

ض

- ضمرة بن جندب:34.

ط

- طيطغلي:161 ،163.

ع

- عائشة بنت طلحة:29.
- عائشة زوجة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:29 ،170.
- عزير:112،120 ،123.
- علاء الدين طرمشيرين فيروز خوندة:189.
- علي بن أبي طالب:134 ،157.
- عمر بن الخطّاب رضي الله عنه:28 .
- عيسى عليه السلام:108 ،116 ،117 ،122 ،124 ،129.

غ

- غياث الدّين بلبن: 150 ،152 ،196.
- غياث الدّين تغلق شاه:131 ،168.

ف

- فارس بن وردار الحشمي:89 ،135.

ل

- لسان الدين بن الخطيب: 65 ،71 ،85 ،86 ،139 ،140.
- لوط:53.

م

- ماجوج:35 ،46.
- ماركوبولو:90 .
- محمد أوزبك خان:161 ،164.
- محمد بن إسحاق المطّلبي:52.
- محمد بن تغلق:69 ،71.
- محمد بن عبد الله بن الحكم:29.
- محمد شاه:131 .
- معاذ بن جبل:36.
- منسى سليمان:184.
- موسى:28 ،40 ،51 ،123 ،125 ،126 ،129.

ن

- نصيب بن رباح:39.

هـ

- هاجر:218.
- هارون الرّشيد:34، 35.

ي

- ياجوج:35 ،46.
- يعقوب عليه السّلام:122.
- يوسف بن تاشفين:65 .
- يوسف عليه السّلام:3 ،119 ،193 ،195 ،207 ،209.

فهرس الأماكن

أ

- آباد:200.
- أجودهن:125.
- آسيا:67 ،91.
- أصبهان:182.
- إفريقيا:31 ،67 ،73 ،91.
- إفريقيا الاستوائية:74.
- إفريقيا المدارية:74.
- أفغانستان:73، 174.
- الإسكندرية:66 ،194،81 .
- الأندلس:64 ،65 ،73 ،133.
- البحر الأحمر:73 ،176.
- البرادمة:206 ،212.
- البصرة:66.
- البلغار:5.
- البنغال:73.
- الجزائر:73.
- الحجاز:19،13 ،68 ،73 ،77 ،81 ،171.
- الخنسا:132.
- السودان:70 ،74 ،163 ، 183 ،184 ،213 .
- الشام:5 ،6 ،13 ،19 ،20 ،31 ،72 ،73 ،77 ،134 ،139 ،172 ،194.
- الصين:71 ،73 ،76 ،132 ،142 ،144 ،153.
- العراق:31 ،73 ،89 ،102 ،172 .
- العليا:158.
- الفداوية:174 .
- القدس:24 ،76 ،194.
- القرم:73، 159.
- القسطنطينية:73 ،138 ،140 ،163 ،199.
- القيسرية:158.

- اللاذقية:174.
- المليبار:179 ،180.
- المدينة المنورة:34 ،195.
- المشرق:78 ،85 ،89.
- المغرب:13 ،64 ،66 ،72 ،73 ،75 ،76 ،77 ،78 ،81 ،85 ،87 ،89 ،139.
- الموصل:66 ،143 ،173.
- الهند:8 ،69 ،73 ،81 ،88 ،89 ،130 ،133 ،153 ،179 ،186 ،187 ،188،190، 192، 196، 197، 198، 202، 204، 205، 206، 210، 212، 213، 214.
- اليمن:20 ،34 ،73 ،89 .
- أوروبا:67.
- أيا سُلُوق:203.
- إيران:73 ،176 .

ب

- بابل:112.
- باكبتان:185.
- بجاية:68.
- برصى:153.
- بخارى:73 ،174 ،175 ،197 ،204 ،212.
- بغداد:66 ،85 ،86 ،143 ،173 ،217 .
- بلاد التلنك:130.
- بلاد الروم: 164 ،165.
- بلاد السوس:87.
- بلاد المعبر:83
- بلخ:167، 174 ،213.

ت

- تازى:73.
- تبريز:173 ،191.
- تركستان:73 ،192.

- تركيا:73 ،154 ،206.
- تلمسان:13 ،87.
- تونس:73، 80 ،81 ،87.

ج

- جاوه:176.
- جبلة:174.
- جبل السكسيوي:87.
- جبل الفتح:65.
- جبل المصامدة:87
- جزائر ذبية المهل:69 ،81 ،82 ،92 ،132 ،153 ،179 ،180 ،187 ،201 ،202 ،206 ،213 ،216 .
- جزر المالديف:73.
- جزيرة سومطرة:73.
- جزيرة سيلان:73.
- جنوة:90.

ح

- حانسي:81 ،202 .
- حران:53.
- حلب:66 ،86 ،174.
- حوض الفولغا:73 .

خ

- خان بالق:71.
- خوارزم:73 ،66 ،204.
- خوزستان:182.

د

- دمشق:43 ،72 ،83 ،86 ،172 ،195.
- دلهي:69 ،81 ،89 ،180 ،185 ،190 ،201.
- دمياط:131 ،164

ر

- رندة:64 ،65 ،73.

ز

- زيلع:70.

س

- سبتة:17.
- سدرة المنتهى:25.
- سرستي:81 ،202.
- سرنديب:8.
- سلجوك:203.
- سمرقند:203 ،204.
- سومطرة:71.
- سيلان:175.

ش

- شبه الجزيرة العربية الجنوبية:20.
- شيراز:156 ،157 ،176.

ص

- صفاقس:80.

ط

- طرابلس:73 ،80 ،192.

- طنجة:64، 73، 77، 84، 89.
- طواليسي:153.

ظ

- ظفار:70، 201.

ع

- عمان: 176، 180، 182.
- عيذاب:176، 192، 193.

غ

- غرناطة:71، 73، 85، 138.

ف

- فارس:176.
- فاس: 43، 72، 73، 80، 86، 87، 139.
- فلسطين:73.

ق

- قالقوط:204.
- قسنطينة:87.
- قلهات:192.

ك

- كرله:153.
- كيلوكري:153

ل

- لاذق:180.

- ليبيا:81.

م

- مالي:180 ،182 ،183 ،212
- مراكش:65 .
- مربلة:73.
- مسلاتة: 80.
- مصر: 9 ،43 ،63 ،171 ،192 ،194.
- مكة:19 ،24 ،25 ،28 ،31 ،32 ،34 ،73 ،75 ،77 ،157 ،171 ،192 ،199.
- مل جاوه:153 .

هـ

- هرقلي:154.
- هرمز:198.
- هنور:180

ي

- يزنيك:153.
- ينجا:154.

فهرس الأشعار

الشّاعر	الأبيـــات	القافيـــة	الصّفحة
النّجاشي	يَا راكِبًا بلِّغا عنّى مُغَلْغَلَـــــــــة مضن كانَ يَرْجو بَلاَغَ اللهِ والدّيـنِ كُلَّ امرِئٍ مِنْ عِبادِ الله مضطهِدٍ بِبَطْنِ مَكَّةَ مَقْهورٍ ومَفْتُـــــــــونِ أَنَّا وَجَدْنَا بِلاَدَ الله واسِعَـــــــةً تُنْجي منَ الذُّلِّ والمَخْزاةِ والهُونِ	دِيْنِـيْ 0/0/	52
الشافعي	تغرّبْ عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائــد: تَفَرُّجُ هَمٍّ واكتسابُ معيشــــــــةٍ وعلْمٌ وآدابٌ وصُحبةُ ماجـــــــــدِ فإن قيلَ: في الأسفار ذلٌّ ومحنَـةٌ وَقَطْعُ الفيافي وارتكابُ الشّدائـــــدِ فموت الفتى خيرٌ له من قيامِــه بدار الهوان بين واش وحاسِـــــــدِ	وائـدو 0//0/	55
	ما في المقام لذي عقــلٍ وذي أدبِ من راحةٍ فَدَع الأَوطانَ واغتــرِبِ سافر تجِدْ عِوَضًا عمَّنْ تُفارِقُـــــه وانصبْ فإنّ لذيذ العيْشِ في النّصَبِ إنّي رأيتُ وُقُوف الماء يُفسِـــــــدُهُ إن ساح طاب وإن لَمْ يَجْرِ لم يطِــبِ والأُسْدُ لولا فراقُ الأرْضِ ما افتَرَسَتْ والسّهمُ لولا فِراقُ القَوْسِ لمْ يُصِـــبِ والشّمسُ لوِ وَقَفَتْ في الفُلْكِ دائمـةً لملّها النّاسُ من عُجُمٍ ومن عـربِ والتِّبْرُ كالتُّرْبِ مُلْقى في أماكِنِــه والعودُ في أرْضِهِ نوْعٌ من الحـطَــبِ فَإِنْ تَغَرّب هذا عزّ مَطْلَبُـــــــهُ وإِنْ تغرَّبَ ذاكَ عزَّ كالذّهَـــــــب	وَغْتَرِبِـيْ 0///0/	55- 56
	ارحل بنفسِك من أرضٍ تُضام بهـا ولاتكُنْ من فراق الأهل في حُـرُقِ من ذلّ بين أهاليه ببلدتـــــــه فاغتراب له مِن أحسن الخُلُـــــق والعنبر الخام روْثٌ في مواطنـه وفي التغرّبِ محمولٌ على العنُـــق والكُحْلُ نوع من الأحجار تنظُـرُهُ في أرضه وهو مرميّ على الطرق	فِيْ حُرُقِيْ 0///0/	56

	لمّا تغرَّبَ حاز الفضلَ أجمعـه فصار يُحمَلُ بين الجفن والحـــدق			
نقشـــت على لوح قبـــــر فاطمـــة بنـــــت الحسين	أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه بالرّغم منّي بين الترب والحجر يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمـــــــة بنت الأئمّة بنت الأنجم الزّهـــر يا قبر ما فيك من دين ومـــن ورع ومن عفاف ومن صون ومن خفر	ولْحَجَرِيْ 0///0/	170
المتنبي	غَيرَ اخْتِيارٍ قَبِلْتُ بِرَّكَ لـــــــي والجُوعُ يُرْضي الأسودَ بالجِيَـــــفِ	بِلْجِيَفِيْ 0///0/	190
	وإذا غَدَرَتْ حسناءُ وفت بعهدها فمِن عهدِها أن لا يَدُومَ لها عهْـــد وإن عشقت كانت أشدّ صبابـــــةً وإنْ فَرِكَت فاذْهبْ فما فِركُها قصْـــدُ وإن حقدتْ لمْ يَبْقَ في قلبِها رِضًى وإنْ رَضِيَتْ لم يَبْق في قلبها حِقْـــــد كذلك أخْلاقُ النّساءِ ورُبّمـــــــا يَضِلُّ بها الهادي ويخفى بها الرّشدُ	عَهْدُوْ 0/0/	208

قائمة المصادر والمراجع

أوّلا :المصـــادر

القرآن الكريم برواية حفص

1-ابن الأثير الجزَريّ: الكامل في التاريخ " تاريخ ما قبل الهجرة النبوية، المجلد1، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1407،1هـ-1987 م .

2-ابن كثير: قصص الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، مصر، ط5، 2012 م .

3-أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب، الجزء1، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط5، 1393هـ-1973 م.

4- أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي المتنبّي: ديوان المتنبّي، دار صادر للطباعة والنّشر، بيروت، ط 15، 1414هـ-1994 م.

5- أبو العبّاس سيد أحمد بن عمّار: نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة،الجزائر،د.ط،1320هـ-1902م.

6- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدّمشقي: تفسير القرآن العظيم، الجزء1،الجزء7،الجزء8، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ-1997 م.

7- أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، تحقيق: كاظم المظفر، ط2، 1385 هـ - 1965 م .

8- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، المجلد5، المجلد7، المجلد9، المجلد11،دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، د. ط، د. ت.

- المجلد4، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1990م.

9- أبو بكر جابر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير،المجلد1،المجلد5،مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط3، 1418هـ- 1997م.

- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري:

10- تفسير الطبري "غرائب القرآن جامع البيان في تفسير القرآن"، د. ط، د. ت.

11- مختصر تفسير الطبري المسمّى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المجلد1، اختصار و تحقيق: محمد علي الصابوني، صالح أحمد رضا، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1408 هـ- 1987 م .

12- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء 2، دار الكتب العربية، د. ط، د. ت.

13- أبو زكريا الأنصاري: فتح الرّحمٰن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق وتعليق: محمد علي الصابوني، ساحة بورسعيد، الجزائر، ط2، 1408 هـ -1988 م.

14- أبو زكريا محي الدّين بن شرف النّووي: تهذيب الأسماء واللّغات، الجزء1، دار الكتب العلمية، لبنان، د. ط، د. ت.

15- أبو سعد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني: الأنساب، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، الجزء5، دار الجنان، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ-1988 م.

16- أبو عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائي: سنن النّسائي المجتبي، الجزء5، مركز البحوث وتقنية المعلومات دار التأصيل، د. ط، د. ت.

17- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسننه وأيّامه، الجزء1، المطبعة السّلفيّة ومكتبتها، مصر، ط1، 1400هـ.

18- أبو عبيد عبد الله بن العزيز البكري الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، المجلد 2، عالم الكتب، بيروت، د. ط، د. ت .

19- أبو علي المرزوقي الأصفهاني: الأزمنة والأمكنة، الجزء1 ، دائرة المعارف، الهند، ط1، 1332هـ .

20- أحمد بن حمدان الحرّاني الحنبلي: صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ط1، 1380هـ.

21- أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، المجلد5، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د. ط، 1388هـ -1968 م .

22- أحمد بن محمّد بن علي المقري الفيومي: من كتاب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرّافعي،الجزء1، المطبعة الميمنية، مصر، د. ط، د. ت.

23- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد1، نشر توزيع وطباعة عالم الكتب، ط1، 1429 هـ-2008 م .

24- الرّاغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، د. ط، 1972 م.

25- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجزي القرشي البغدادي: أخبار النساء، تحقيق و تهذيب: إيهاب كريم، دار النديم، للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط1،1991 م.

26- حافظ إبراهيم: ديوان حافظ إبراهيم، الجزء1، دار صادر للطباعة والنّشر، بيروت، ط1، 1409هـ- 1989 م .

27- خليل البدوي: موسوعة شهيرات النساء، دار أسامة للنشر، الأردن، عمان، ط1، 1419هـ- 1998 م .

28- شمس الدين أبو عبد الله الذّهبي: تذكرة الحفاظ، الجزء4، مطبعة دائرة المعارف النّظامية بمحروسة حيدر آباد الدكن، الهند، ط3، 1377 هـ-1958 م.

29- شمس الدين أبو عبد الله اللّواتي الطّنجي: رحلة ابن بطوطة المسمّاة " تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"،الجزء1، الجزء2، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، ط4، 1405هـ -1985 م .

- المجلد1، تقديم و تحقيق: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط، المغرب، د. ط، 1997 م .

- تقديم وتحقيق: محمد عبد المنعم العريان، مراجعة وفهرسة: مصطفى القصاص، المجلد1، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ-1987 م .

- مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه: أحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك، مطبعة الأميرية، القاهرة، د. ط، 1933 م .

30- شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثمانية، تحقيق: محمد عبد المعيد، المجلد4، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر آباد، الهند، د. ط، 1392 هـ-1972 م

- الجزء3، دار الجيل، بيروت، د. ط، 1414هـ-1993 م.

31- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان المجلد2، المجلد3، دار صادر، بيروت، د. ط، د. ت .

32- صالح العلي الصالح، أمينة الشيخ سليمان الأحمد: المعجم الصافي في اللغة العربية، الرياض، د. ط، 1401هـ.

33- صبحي عبد الرّؤوف عَصَر: المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم، دار الفضيلة للنّشر والتوزيع، د. ط، 1990 م.

34- عباس محمود العقاد: موسوعة عبّاس محمود العقاد الإسلامية: القرآن والإنسان المجلد4، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ط، 1390هـ-1971 م .

35- عبد الرحمن بن محمد خلدون الحضرمي: ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت

- مقدّمة ابن خلدون، طبعة باريس، د. ط، 1858 م .

36- عبد المنعم الفلاني: مآثر العرب والإسلام في القرون الوسطى1359-1940، مطبعة أم الربيين الموصل، د. ط، د. ت .

37- فخر الدين الرازي أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حسين: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، 1425هـ-2004 م .

38- لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: عبد الله عنان، المجلد1، ط2، مكتبة الخانجي القاهرة، مصر، 1393هـ-1973 م .

- المجلد2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1394هـ-1974 م .

- المجلد3، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1395هـ-1975 م .

- المجلد 4، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1397هـ -1977 م.

39- لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرّواية " عربي، إنكليزي، فرنسي "، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، لبنان ، ط1، 2002 م.

40- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، طبع ونشر دار الحديث، القاهرة، د. ط، 1429هـ-2008 م.

- المجلد3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، 1403هـ-1983م.

41- مجدي وهبه، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984 م.

42- مجمّع اللّغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425هـ -2004 م .

43- محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ-1990 م .

44- محمد بن عبد الله القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات(مخطوط)، مكتبة روايال، د. ط، 1176هـ-1874 م .

45- محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم " تفسير المنار"، الجزء3، الجزء7، دار المنار، مصر، ط3، 1367هـ.

- الجزء 12، دار المنار، مصر، ط2، 1966هـ -1947 م.

46- محمد شلتوت: إلى القرآن، شركة الشّهاب: الجزائر، د. ط، د. ت .

47- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار ومطابع الشعب، د. ط، د. ت.

48- ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد4، المجلد5، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

ثانيا: المراجـــــــع

أ- بالعربيـــــة:

49- ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الأول،الجزء1 و2 حقّقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السّقّا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت.

50- أبو الحسن علي الحسني النذْوي: نظرات في الأدب، دار البشير للنشر والتوزيع، ط2، 1418هـ-1997 م.

51- أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث تحقيق وتعليق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1395هـ-1975 م.

52- أبو بكر جابر الجزائري: العلم والعلماء، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، د. ط، 1985 م.

53- أبو خالد ناصر بن سعيد بن سيف السّيف: الرّحلة إلى الدّار الآخرة، دار بن حزيمة، د. ط، 1429هـ.

54- أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي: طبقات الصوفية، تحقيق وتعليق: مصطفى عبد القادر عطا، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2 ، 1424هـ-2003 م .

55- أبو عمرو عثمان بن عبد الرّحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر النصري الشهر زوري الشافعي: علوم الحديث، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1326هـ.

56- أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني: رحلة التيجاني، قدّم لها: حسن حسني عبد الوهّاب، الدار العربية للكتاب، تونس، د. ط، 1981 م

57- أبو محمد عبد الملك بن هشام:

58- سيرة النّبي صلّى الله عليه وسلّم، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، الجزء1، مطبعة حجازي، القاهرة، د. ط، 1937 م.

- سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم، الجزء1، مطبعة حجازي، القاهرة، د. ط، د. ت.

59- أحمد محمود أبو زيد: الرحلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة: " أدباء ورحالة ومؤرّخون وعلماء في الحجاز "، إصدار المجلة العربية 216، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1435 هـ .

60- ادّى شير: الألفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية للآباء الكاثوليكيين ، بيروت، د. ط، 1907 م.

61- إسحاق بن الحسين: آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كلّ مكان، دار عالم الكتب، ط1، 1408هـ- 1988 م .

62- الإمام مسلم: صحيح مسلم بشرح النّووي،الجزء1، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط.

63- الإمام النّووي الدّمشقي: رياض الصّالحين، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د. ط، 1988 م .

64- الجوهرة بنت عبد الرحمن المنيع الرحلات العربية مصدر من مصادر تاريخ المملكة العربية السعودية(1338هـ-1373هـ/1920م-1953م)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، د. ط، 1431 هـ .

65- الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني،الجزء1، منشورات عكاظ، الرباط، د. ط، 1990م.

66- إمام عبد الفتاح إمام: الفيلسوف المسيحي والمرأة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1996 م .

67- جميل صليبا: المعجم الفلسفي " بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاّتينية " ، الجزء1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982 م .

68- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء 4، الجزء7، نشر جامعة بغداد، ط2، 1413هـ-1993 م .

69- حسن زكريا فليفل: حقيقة أغرب من الخيال " يأجوج ومأجوج "، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د. ط، د. ت .

70- حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1983 م .

71- حسين علام: العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431 هـ - 2010 م .

72- حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989 م .

73- حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د. ت .

74- خيرالدين الزركلي: الأعلام " قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين"، الجزء5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، ماي2002م .

75- رجب عبد الجواد إبراهيم :المعجم العربي لأسماء الملابس" في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث"، تقديم: محمد فهمي حجازي، مراجعة عبد الهادي التازي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1423هـ -2002م.

76- سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة قديما و حديثا، مكتبة غريب، الفجالة، د.ط، د. ت .

77- سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد4 "الأجزاء12-18" دار الشروق، القاهرة، ط1، 1972م.

- شاكر خصباك

78- الجغرافية عند العرب، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1986 م.

79- كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي، مطبعة دار السلام، بغداد، د. ط، 1979 م .

80- شوقي أبو خليل: أطلس القرآن " أماكن، أقوام، أعلام"، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 2000 م .

81- صلاح الدين علي السّامي: الرّحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدّراسة الميدانية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط2، 1999 م .

82- عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، د. ت .

83- عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام: أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1416هـ-1996 م .

84- عبد الحي بن فخر الدين الحسني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمّى" نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنّواظر"، الجزء2، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت

85- عبد الرحمن المصطاوي: ديوان الإمام الشافعي، دار المعرفة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 2005 م .

86- عبد الرّحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب " مقتطفات من آثارهم "، دار الفكر، دمشق، ط1، 1984 م .

87- عبد العزيز بن عبد الله: الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1، 2001 م .

88- عبد الفتاح أبو غدّة: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، بيروت، ط1، 1391هـ- 1971 م .

89- عبد الفتاح الحجمري: عتبات النّصّ " البنية والدّلالة "، منشورات الرّابطة، الدار البيضاء، ط1، 1996 م .

90- عبد الفتاح محمد وهيبه: جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع، منشأة المعارف، الإسكندرية، د. ط، 1995 م .

91- عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1 ، 1401هـ - 1981م

92- عبد الهادي التازي:

93- القدس والخليل في الرحلات المغربية " رحلة ابن عثمان نموذجا "منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسيسكو، د. ط، 1418هـ-1997 م .

94- عبد الودود شلبي: موسوعة أدب الرحلات" مالا يعرفه المسلمون عن المسلمين في العالم"، الجزء1، مركز الراية للنشر والإعلام، ط2، 2004 م .

95- عثمان موافي: لون من أدب الرحلات: دراسة نقدية، دار الكتب الوطنية، بغداد، د.ط، د. ت .

96- عزّ الدين بن الأثير بن أبي الحسن علي بن محمد الجزريّ: أسد الغابة في معرفة الصّحابة، ج1، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت .

97- علي إبراهيم الكردي: الرِّحلُ في المغرب والأندلس، مطابع الهيئة السورية للكتاب، د.ط، 2013 م .

98- علي العسيلي العاملي: الإسراء والمعراج " نظرة عامة دراسة وتحليل" ، الدار الإسلامية، ط2، 1988 م .

99- علي عبد الحليم محمود: القصة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1979 م .

100-علي محمد الصلابي: فقه التمكين عند دولة المرابطين، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 1427هـ - 2006 م .

101-عمر رضا كحّالة: أعلام النّساء في عالمي العرب والإسلام، الجزء 1، الجزء5، مؤسّسة الرّسالة للطباعة والنشر، بيروت، د. ط، د. ت .

102-عواطف محمد يوسف نواب: الرّحلات المغربية والأندلسية " مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين دراسة تحليلية مقارنة " ، مكتبة الملك فهد الوطنية، د. ط، 1996 م .

103-فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 2002 م.

104-فضل حسن عباس: القصص القرآني" إيحاؤه و نفحاته"، شركة شهاب للنشر والتوزيع،الجزائر، د.ط، 1989م.

105- فهمي توفيق محمد مقبل: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوربية الفكر الجغرافي نموذجا، جامعة البترا، 1430هـ- 2009 م .

106-فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،2010 م.

107-محمد إبراهيم سليم: ديوان الإمام الشافعي المسمى: الجوهر النّفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر، د. ط، د. ت .

108-محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، الجزء1، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط2، 1419هـ-1999 م .

109-محمد الخضر حسين: الرحلات، تحقيق: علي الرضا التونسي، مطبعة التعاونية، دمشق، د. ط، 1976 م .

110-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الجزء1، الدار التونسية للنشر، تونس، د. ط، 1984 م .

111-محمد بن أحمد أبو بكر المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، 1408هـ-1987 م .

112-محمد دواوي: الرّحلات المغربية والإسلامية وأعلامها في الأدب العربي القديم والمعاصر(دراسة نصوص)، مكتبة الملك فهد، مطابع الفرزدق، الرياض، د. ط، 1995م.

113-محمد شلبي: تفسير آية الكرسي للأئمة الكبار: الفخر الرازي، ابن كثير، الألوسي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت .

114-محمد عابد الجابري: مدخل إلى القرآن الكريم الجزء الأوّل في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2006 م .
115-محمد عجاج الخطيب: السّنة قبل التّدوين، أمّ القرى للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1407هـ-1988 م .
116-محمد علي الصابوني: قبس من نور القرآن الكريم: من سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران: دراسة موسعة تحليلية لأهداف ومقاصد السور الثلاث، الجزء الأوّل، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط2، 1407 هـ-1977 م .
117-محمد محمود الصّبان: رحلة ابن بطوطة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1994 م .
118-محمود محمود الغراب: الخيال عالم البرزخ والمثال "من كلام الشيخ الأكبر: محي الدين بن العربي"، دار الكتاب العربي، دمشق، ط2، 1404هـ- 1984 م .
119-محمد محمود محمدين: الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار الخريجي للنّشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1417هـ-1996 م .
120-مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب الجزء1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2000 م .
121-منّاع قطّان: مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة ناشرون، لبنان، ط1، 1434هـ-2013 م .
122-ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1415هـ-1995 م .
123-نضال الصالح: النّزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتّحاد كتاب العرب، سوريا، د. ط،2001 م .
124-نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالية للكتاب ش.م.ل ، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، د. ط، 1987 م .

125-نور الدين عتر: ماذا عن المرأة ؟، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق، بيروت، ط1 ، 1434هـ-2003 م .

126-وهبة بن مصطفى الزحيلي:

127-التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، المجلد2، الجزءان 3و4، المجلد3، الجزءان 5-6، المجلد4، الجزءان 7-8، المجلد8، الجزءان15-16، المجلد9، الجزءان 17-18، المجلد13، الجزءان 25-26 ، المجلد15، الجزءان29-30، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط 1، 1430هـ-2009 م .

128-يوسف القرضاوي: الصبر في القرآن، مكتبة الشركة الجزائرية، مرازقة بودواو، دار البعث، قسنطينة، د. ط، 1988 م .

ب- المترجمـــــة:

1- أغناطيوس يوليا نوقتش كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، الجزء1، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة: إيغور بليايف، الإدارة الثقافية: جامعة الدول العربية، د. ط، 1957 م .

2- بيير داكو: المرأة: بحث في سيكولوجية الأعماق، ترجمة: وجيه أسعد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، د. ط، 1983 م .

3- جمال الفندي: الجغرافيا عند المسلمين، ترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1982 م .

4- جيرار جينيت: عتبات " من النص إلى المناص" ، ترجمة: عبد الحق بلعابد، تقديم: سعيد يقطين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ، 2008 م .

5- رينهارت دوزي: المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب، المجلد 10، الجزء3، ترجمة: أكرم فاضل، المكتب الدائم لتنسيق التعريب، الرباط، د.ط، د.ت.

6- سهيل قاشا: شريعة حمو رابي، ترجمة: محمود أمين، شركة دار الوراق للنشر المحدودة ، لندن، ط1، 2007 م

7- كارل بروكلمان: تاريخ الشّعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير البعلبكّي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1968 م .

8- م .ڤ مينورسكي: الجغرافيون والرحالة المسلمون، ترجمة: عبد الرحمن حميده، ع73، إصدار قسم الجغرافيا جامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ربيع الثاني 1405هـ- يناير 1985م.

9- هورست كلينكل: حمو رابي البابلي وعصره، تعريب: محمد وحيد خيّاطة، دار المنارة للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، ط1، 1990 م .

❖ المجلات (الدوريات):

1- أمال ماي: العجائبية في رواية "سرادق الحلم والفجيعة " لعزّ الدين جلاوجي، مجلة المخبر، العدد9، أبحاث في اللغة العربية والأدب الجزائري جامعة بسكرة، الجزائر،2013م.

2- جزيل عبد الجبّار الجومرد: رحلة ابن بطوطة إلى الموصل بين الحقيقة والتأليف، مجلّة أكاديميّة المملكة المغربية،العدد18، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 2001 م .

3- جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، مجلّة عالم الفكر، وزارة الثّقافة، الكويت، العدد3، المجلد25، 1997 م .

- شعيب حليفي:

4- بنيات العجائبي في الرّواية العربية، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مج16،ع3، شتاء 1997 م .

5- مكوّنات السرد الفانتاستيكي، مجلّة فصول، مج 12،ع4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر،1993، ص 91 .

6- عبد الرحمن شلش: أدب الرّحلات عند العرب، مجلّة الفيصل: العدد9، دار الفيصل الثقافية، المملكة العربية السعودية، الرياض، ربيع الأول 1398هـ- فبراير/ مارس1978 م.

7- عبد القادر رحيم: العنوان في النص الإبداعي- أهمّيته وأنواعه -، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد2 و3، جامعة محمد خيضر بسكرة، جانفي / جوان ، 2008 م .

8- محمد مظلوم: ابن بطوطة ورحلاته، مجلة: كتاب في جريدة، العدد97، إصدار منظمة اليونسكو، الأربعاء 6 يوليو(سبتمبر)1996 م .

9- نادية محمد عبد الله: الرحلة بين الواقع والخيال عند أندريه جيد، عالم الفكر، وزارة الإعلام، العدد4، الكويت، مارس 1983 م .

❖ المذكرات:

1- إسماعيل زردومي: فن الرّحلة في الأدب المغربي القديم، مخطوط رسالة دكتوراه، جامعة الحاج الأخضر، باتنة، 1424هـ-1425هـ/ 2004 م-2005 م .

2- بهاء بن نوار: العجائبية في الرواية العربية المعاصرة " مقاربة موضوعاتية تحليلية"، مخطوط رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012 م-2013 م .

3- سميرة بن جامع: العجائبي في المخيال السردي في ألف ليلة وليلة، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 1430هـ-1431هـ/2009 م-2010 م .

4- شادي حكمت ناصر: ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة " نسيج الواقع والخيال" ، مخطوط رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، 2003 م .

5- نورة بنت إبراهيم العنزي: العجائبي في الرواية العربية، " نماذج مختارة "، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، د. ت .

6- هدى سليمان الحافي: " العجائبية في القصّة السورية القصيرة، القصّة النّسوية أنموذجا" ، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة تشرين، سوريا، 2009 م .

❖ بحوث من الأنترنيت:

1- مبارك بن الحسن لمين: رحلة العلماء الأندلسيين إلى مكة المكرمة خلال القرن الهجري الخامس بين الاستفادة الإفادة، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، جامعة: ابن زهر/أكادير المغرب 1426هـ.

2- فوزية أبو خالد: الصورة النمطية للمرأة "النساء والإبداع، المبدعة العربية بين مخالفة الصورة النمطية للمرأة في الذاكرة الجماعية وبين تفكيك الخصاب السائد "، بحث، قسم الدراسات الاجتماعية، جامعة الملك سعود، الرياض.

❖ مقالات من الأنترنيت:

1- إبراهيم أكراف: بلاغة أدب الرحلة: قراءة تأويلية في نص " جزيرة سيلان " لابن بطوطة www.google.com

2- إسلام ويب: رحلات العلماء ودورها في حفظ الحديثwwww.google.com

3- حسن مدن: بعبارة أخرى .. الذكاء العاطفي لمَن المشورة : للقلب أم للعقل، www.google.com

4- ناصر عبد الله احميضي: الهودج، مجلّة الرّياض، العدد 13341، الأحد 21 ذو القعدة 1425 هـ- 20 يناير 2005 م.www.google.com

5- ياسر عبد الجواد المشهداني: من مكوّنات العلاقات العربية الهندية: " رحلة ابن بطّوطة أنموذجا "، جامعة الموصل، قسم التاريخ، العراقwww.google.com

❖ المراجع الأجنبية:

1- Voyage d'ibn Batoutah ,tome1 , texte arabe accompagné d'une traduction par :C .Defrémery et B.R Sanguinetti , imprimer par autorisation de l'empereur a l'imprimerie impériale ,Paris

فهرس

المحتويات

العنـــوان	الصّفحـــــــــــــة
كلمة شكر	
الإهداء	
المقدمة	أ – ب–ج– د–هـ
المدخل:مفهوم الرّحلة "أنواعها ،بواعثهاوأهدافها"	59–1
أوّلا: مفهوم الرّحلة لغة واصطلاحا	11 –6
1– لغة	8 –6
2– اصطلاحا	11 –8
ثانيا: أدب الرّحلة تعريفه وأهمّيته	17 –11
1– الرحلة في الإسلام	21 –17
2– دعوة الإسلام إلى الرحلة	21 –19
ثالثا: أنواع الرّحلات العربية من حيث التقسيم	54 –22
1– الرحلة الدينية	34 –24
1–1 الإسراء و المعراج	27 –24
1–2 الرّحلة بغرض قصد البقاع الكريمة	32 –28
1–3 تدبر آيات الله ونواميسه في الكون	33 –32
1–4 الرحلة للجهاد في سبيل الله و لنصرة الدّين الإسلامي	34 –33
2–الرحلة العلمية	43–34
2–1 الرّحلة الاستكشافيــة	35 –34
2–2 الرحلة في طلب العلم	41– 35
❖ رحلة سيّدنا موسى مع العبد الصّالح	41 –40
❖ الرّحلة في طلب الحديـــــــــــث	43 –41
2–3 الرّحلة بقصد أخذ العبرة "قصّة ذو القرنين "	47–44

3.1 الرحلة الأولى: " رحلة المغرب "	45
3.1 الرحلة الثانية: " رحلة المشرق "	46-45
3.1 الرّحلة الثالثة: " رحلة بين السّدين "	47-46
3-الرحلة التجاريـة	48
4-الرحلة السياحية	48
5-الرحلة الرسمية	49
5-1 السّفارة (التّمثيل الدّبلوماســــــــي)	50-49
5-2 التوسط في فكّ الخصومات والنّزاعات	50
5-3 تبليغ الدعوة إلى أقطار العالم	54-50
رابعا: أنواع الرحلات من حيث التدوين و التسجيل	55-54
1- رحلات كتبت أثناء الرحلة	54
2- رحلات كتبت من المذكرات	54
3- رحلات كتبت من الذاكرة	55
خامسا: فوائد الرّحلة وأهدافها	57-55
سادسا: قيم تضمنتها الرحلة	59-57
1- قيمة علمية	57
2- قيمة دينية	58
3- قيمة أدبية	59-58
الفصل الأوّل: ابن بطوطة وتجواله في الآفاق	99-60
أولا: ابن بطّوطة وكتاب الرّحلة	63
4- مولده ونشأته	73 -64
2- رحلاته	77-73
❖ الرّحلة الأولى 725هـ- 751هـ	73
❖ الرّحلة الثّانية: 751هـ -هـ752	73

❖ الرحلة الثالثة 753هـ-754هـ	74
3- وفاتـــه	77
ثانيا: سبب تسميته بابن بطوطة	79-78
ثالثا: قصة ابن بطوطة مع الزواج	83 -79
❖ زواجه بتونس	81 -80
❖ زواجه بالهند	81
❖ زواجه بجزائر ذبية المهل	83 -82
❖ زواجه بدمشق	83
رابعا: ابن بطوطة ودوافعه إلى الرحلة	85-83
❖ الدافع الأول: الرغبة في أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة	84
❖ الدافع الثاني: عشق ابن بطوطة للسفر منذ الصغر و رغبته في اكتشاف المجهول	84
❖ الدافع الثالث: حب المعرفة والرغبة في العلم وحرصه على لقاء المشايخ	85-84
خامسا: الأربعة الذين كانوا وراء إنجاز الرحلة	85
1- ابن جزي الكلبي: 693-741هـ/1294-1340م	87 -85
2- أبوعنان المريني: 729-759هـ/1329-1385م	88- 86
3- الوزير فارس بن وردار الحَشَمي	90 – 89
4- ابن بطوطة	90
سادسا: أهمية كتاب رحلة ابن بطوطة	91
سابعا: سبب تسمية رحلة ابن بطّوطة بـ: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار	96 -93
الفصل الثّاني: العجائبي في رحلة ابن بطوطة	144 -100

أوّلا: مفهوم العجائبي	129 -100
1- العجائبي في القرآن	129 -103
العجائبية في الحروف	111 – 108
❖ **العجائبية في الزّمن**	115 -112
❖ **عجائبية في المكان**	115
❖ **عجائبية الأشخاص**	116
❖ **عجائبية الأشياء**	119 -117
❖ **عجائبية الرّؤى وتأويلها**	120 -119
❖ **عجائب الكون**	121 -120
❖ **عجائب الأحداث**	124 -122
❖ **عجائب مخلوقاته**	129 -124
2- العجائبي في رحلة ابن بطوطة	135 -129
2-1 العجائبية في الأشخاص	132 -130
2-2 العجائبية في الأحداث	133 -132
2-3 العجائبية في الزّمان والمكان	135 -133
ثانيا: رحلة ابن بطوطة بين الحقيقة والتأليف	144 -134
1- قسم أعجب بما سمعه أخذته الدهشة مصدقا تلك الروايات	138-135
1-1 الوزير فارس بن وردار الحشمي	136-135
1-2 السلطان أبو عنان المريني	138-136
2- قسم بين شاك ومكذب	144 -138
2-1 القاضي المشهور: أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السلمي بن الحاج البلفيقي ت771هـ -1369م	138
2-2 لسان الدين بن الخطيب 713هـ-1313م / 776هـ-1374م	141 -139

3-2 ابن خلدون 732هـ- 1332م/707هـ - 1406 م	142-141
الفصل الثّالث :صورة المرأة في رحلة ابن بطّوطة	219 -145
أوّلا: صورة المرأة في القرن الثّامن الهجري من خلال رحلة ابن بطّوطة	201-148
1- صورة المرأة القائدة والحاكمة	154-149
2- صورة المرأة المخطّطة	157-154
3- صورة المرأة الكريمة والمنجزة	170-157
4- صورة المرأة بين العادات والتقاليد	184-170
5- صورة المرأة المضطهدة	193-184
6- صورة المرأة المراودة للرّجال	196-193
7- صور متفرّقة عن المرأة	201-196
7-1 صورة المرأة المؤذية لزوجها	198-196
7-2 صورة المرأة الجاسوســـــة	199
7-3 صورة المرأة المحرّضة على القتال	199
7-4 صورة المرأة العابدة في القسطنطينية	200-199
7-5 صورة المرأة المغنية بمدينة آباد	200
7-6 صورة المرأة الجارية	201
ثانيا: ابن بطّوطة وعالمه مع المرأة	206-201
1- صورة المرأة الأمّ – أم ابن بطّوطة-	201
2- صورة المرأة الزّوجة	203-202
3- صورة المرأة البنت – بنت ابن بطوطة	203
4- صورة المرأة الجارية – جواري ابن بطّوطة	206-203
5- صورة المرأة الجسد	206
رابعا: الأبعاد الخفيّة في رحلة ابن بطّوطة	219-206
1- البعد الدينـــــي	211-207

2- البعد الاجتماعي	214-211
3- البعد النّفســـي	218-214
4- البعد السياســي	219-218
الخاتمـــــــــــــــة	224 -220
فهرس الأعـــــــــلام	231-225
فهرس الأماكـــــــــــن	238-232
فهرس الأشعـــــــــــار	241-239
قائمة المصادر و المراجع	257-242
فهرس المحتويات	264-258

الملخّص:

أدب الرّحلة من الفنون النثريّة الّتي أثرت خزانة الجغرافيا والأدب لما تحتويه من معلومات تاريخيّة، جغرافيّة، سوسيولوجيّة. من أقدم نماذجه الذّاتيّة رحلة ابن بطّوطة المسمّاة " تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، رصد فيها كلّ ما يتعلّق بالحضارات الّتي احتكّ بها بعيون الاثنوغرافيّ الخبير المدقّق والمحلّل، ومن الأمور الّتي عُنِيَ بنقلها خلال القرن الثّامن الهجريّ صورة المرأة في مختلف المجتمعات. وفي دراستي هذه حاولت التعريف بهذه المرأة التي احتضنتها رحلته مبيّنة صورتها في مختلف الأمصار بالوقوف على مواطن ذكرها.

الكلمات المفتاحية: أدب الرّحلة، المرأة، العجائب، الحضارات، الاثنوغرافيّ.

Résumé:

La littérature de vol des arts en prose qui ont influencé le trésor de la géographie et de la littérature, car il contient des informations historiques, géographiques, sociologiques. Des plus anciennes auto gribouillis le voyage d'Ibn Battuta appelé « Un cadeau pour ceux qui contemplent les splendeurs des villes et les merveilles des voyages », où il a surveillé tout ce qui concerne les civilisations qui a pris conscience des yeux des auditeurs d'experts Ethnographiques et analystes, et des choses qui a était intéressé de la déplacer à son vol l'image de la femme dans divers sociétés au huitième siècle de l'hégire. Dans mon étude –ci, j'ai essayé de présenter cette femme évoquée dans son voyage en montrant son image en insistant sur les passages qu'il l'a citée.

Les mots clés:littérature de vol, La femme, les merveilles, les civilisations, Ethnographique.

Summary:

The flying literature of the prose arts that have influenced the treasury of geography and literature, as it contains historical, geographical, and sociological information. From the oldest scribbles Ibn Battuta's journey called "A gift for those who contemplate the splendours of cities and the wonders of travel", where he watched all that concerns the civilizations that became aware of the eyes of the listeners of " Ethnographic experts and analysts, and things that was interested in moving her the image of woman in various societies in the eighth century of the Hegira. And in my study I tried to define this women standing on some homelands mentioned.

Keywords: flying literature, Woman, wonders, civilizations, ethnographic.